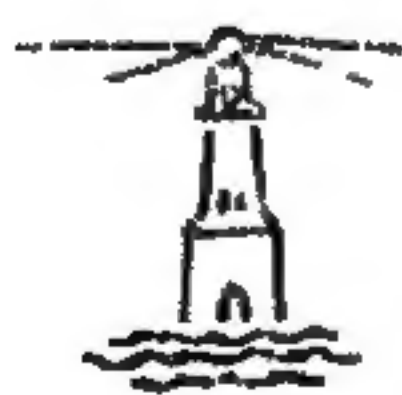


طه حسين

حديث الأربعاء ٢



دارالمعارف



طه حسين

حديث الأربعاء

٢

الطبعة الرابعة عشرة



دارالمغارف

فهرست الموضوعات

صفحة		صفحة	
٨٣	الخمير عند أبي نواس	٣	القدماء والمحدثون :
٩٣	الخمير عند أبي نواس		الجهاد بين القديم والجديد
١٠٣	الغزل في شعر أبي نواس	١٤	القدماء والمحدثون :
١٠٩	الغزل عند أبي نواس		الشعراء في العصر الأموي
١١٨	جد أبي نواس	٢٠	القدماء والمحدثون :
١٢٨	خاتمة القول في أبي نواس		الشعر في العصر العباسي
١٣٩	الوليد بن يزيد	٢٧	القدماء والمحدثون :
١٤٨	مطيع بن إياس		الأندية الأدبية
١٦٠	حماد عجرد	٣٤	القدماء والمحدثون :
١٧٣	الحسين بن الضحاك		الأندية الأدبية
١٨٨	بشار بن برد	٤١	القدماء والمحدثون :
١٩٧	شعر بشار		أبو نواس
٢١٢	والبة بن الحباب - أبان	٥١	القدماء والمحدثون :
	ابن عبد الحميد		تمثيل أبي نواس لعصره
٢٢٦	مروان بن أبي حفصة -	٥٨	إلى الأستاذ طه حسين
	السيد الحميري	٦٣	رد على نقد
٢٣٩	السيد الحميري		كيف نفهم التاريخ
	علويون ، وعباسيون	٧١	الخمير قبل أبي نواس
٢٥١	القديم والجديد		

رقم الإيداع	١٩٩٣/١١٠٩١
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-4316-7

١/٩٣/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. ٢٠٠٤)

القدماء والمحدثون^(١)

الجهاد بين القديم والجديد - مصدره ونتائجه في فروع
الحياة المختلفة - مظهره في الحياة الأدبية - آثاره العظيمة
في الأدب اليوناني ، وآثاره الضئيلة في الأدب العربي .

لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم ، التي كان لها نصيب من الأدب وحظ
في إتقان القول وإيجادته ، من هذه المسألة « مسألة القدماء والمحدثين » ولم
تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم ، إلا أحدثت
خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية
أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين
مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ
الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ،
ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثمرها تغير
الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي
نعيش فيه . وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على
الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شيء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول
الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية ، والسياسية والاجتماعية ؛
وذلك معقول ، لأن الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصليين
لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية
أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم
والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى أن نشعر
بأن حياتنا الآن هي إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من
آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

(١) نشرت بجريدة السياسة في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ هـ ، ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغير أمسنا، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهي تغاير من وجوه . وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور والحاجة إليه ، مترددون في ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقة ألا يكون إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا نعرف لها أولاً ولا آخراً، وهي سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة، فيكاف الجديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف، فلا يفكر إلا في شيء واحد : هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام، دون أن يقف فيفكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الحديد الغلاة في التشيع له : يشتد هذا الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا بقاء ، وإنما هي محقة لهذين الأصلين تحقيقاً طبيعياً غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة ، والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية في كل ضرب من ضروب الحياة العامة ، عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، وهي منتجة نتائج تختلف قوة وضعفاً باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها في الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة لا تتجاوز الخصومات اللفظية لإقليلا ، وكذلك الحال في الحياة العقلية الفلسفية . فأما في العلم فانتصار الحديد يسير محقق ، لا خوف عليه ولا شك فيه ، لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعداداً للخلاف والمناقضات . ولكن هذه النظرية إذا ظهرت في الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت في أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها ، لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما

أشد ضروب الحياة ميسياً بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها ، والإنسان بطبيعته عبد لمنفعته ، يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافاً أدبياً في أسلوب الشعر والنثر ، أو أن خلافاً في نظرية من نظريات الفلسفة ، أو أصل من أصول العلم ، أحدث ثورة سفكت فيها الدماء ، وأزهقت فيها النفوس ، واختل لها نظام الأمن ، في حين كان الاختلاف في تقسيم الثروة ، أو في نظام الحكم — وسيظل دائماً — مصدر هذه الثورات التي أشرنا إليها .

وما لنا نذهب بعيداً ، ونحن لا نعلم أن شاعراً قتل شاعراً آخر لأنه يخالفه في الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفاً قتل فيلسوفاً آخر لأنه يخالفه في أصل من أصول الفلسفة ، لا نعلم شيئاً من هذا ، ولكننا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد ، وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة ، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال . لا تذكر لى الخلافات الدينية التي أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد ، فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات في الحياة العقلية أو الأدبية أو الفنية الخالصة ، وإنما أحدثتها من حيث إنها اختلافات في ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها .

ستقول لى : ولكن الاختلاف في السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة ، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية . وليس في هذا شك . فإن سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص . وإنما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر ، لأنها تكاد تنحصر في الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال .

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الحديد فيصبح هذا الحديد قديماً ويظهر جديد آخر يحاربه .

ولعل من ألد أنواع الجهاد بين القديم والحديد ، وأحبها إلى النفس ، هذا الجهاد الذي يقع بين الشعراء والكتاب في عصورهم المختلفة . هذا الجهاد للذيذ

لأنه برىء ، ولذيد لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ بضمحل وينمحي ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هذا الفصل إن الأمم التى لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ولكننا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتاً عظيماً باختلاف الأمم والأجيال ، فهو منتج جداً فى أمة من الأمم ، عقيم جداً فى أمة أخرى ، معتدل الإنتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال ، فقد يختلف القدماء والمحدثون فى الألفاظ ، وقد يختلفون فى المعانى ، وقد يختلفون فى الألفاظ والمعانى ، وقد يختلفون فى الأنواع الفنية نفسها ، فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئاً .

انظر إلى الأمة اليونانية مثلاً وإلى الشعر ، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب ، وإنما استتبع تطوره فى نوعه أيضاً . فكان الشعر القصصى مظهر الشعور اليونانى أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضيرها ، فلما عظم حظها من الحضارة المادية ، وأخذ عقلها فى التفكير ، وذاقت لذة الترف والثروة ، كان الشعر الغنائى مظهر شعورها ، فلما قوى نصيبها من الحضارة ، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها ، كان الشعر التمثيلى مظهر شعورها . فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيماً معقداً مختلف المناحي ، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع ، فى حين كان عند الأمة العربية ضيقاً محصوراً لا يكاد ينتج شيئاً ، لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعانى فى عصر من العصور ، هو أول العصر العباسى ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل فى أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثانى للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهاً شعر جرير ، لأن هذا « المولد » كان مجيداً . ثم ظهر الخلاف فى منتصف القرن الثانى بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين

وأنصار المحدثين ، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر. ثم ظهر الخلاف فى القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحثرى وأبى تمام ، والذين كانوا ينتصرون لأبى نواس ومسلم . ثم ظهر الخلاف فى القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبى ، والذين كانوا ينتصرون لأبى تمام .

فأنت ترى أن كل هذا العصر الأدبى الذهبى عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وليس عليك إلا أن تنظر فى كتب الأدب على اختلافها ، لترى هذا المقدار الوفور من الكلام الكثير الذى قيل وقيل فى الانتصار للشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض ، سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلاً وعصراً . ولكن أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ؛ وما نتائجه الكبرى ؟

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شىء فى اللفظ ، ثم فى المعنى ، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين .

كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون فى اللفظ اختلافاً ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصيناً يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أى إن جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية فى العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه .

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه فى أول العصر العباسى ، فاختلف الشعراء العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون فى أى الشعراء أجمل وأرقى وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام فى متانة اللفظ ورصانته وبداوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها الناس عامة ، لا علماء اللغة خاصة ؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر فى المعنى فاختلف الشعراء فى معانى الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعراية ، أم تتحضر كما تحضر الناس ؟ أتصف الأطلال والحيام والصحراء والإبل والحيل والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتناول الشعور الإنسانى فتصفه

لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضريّة والمستطرفات التي لم يعهدها الأعراب ؟ وعلى الحملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد ؟

ظهر هذا الخلاف ، وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجاً وأكثرها خصباً ، لأن أنصار الحديد - وعلى رأسهم أبو نواس - أقدموا غير خائفين ولا وجلين ، فوصفوا لنا الحياة الحديدية دقيقة وجليها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والمحدثين :

اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والمتنبي وأمثالهما من أصحاب البديع ، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحري وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعاً ولا استعارة ولا جناساً .

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشيء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلاً جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقي موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء ورثاء ووصفاً وغزلاً ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجدها جوهرياً ولا مطرداً ، وإنما هو التجدد الذي يكفي لشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد ، وقد مضت القرون وتعاقبت ، والشعر العربي في لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديماً ، لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذي أشرنا إليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة ، وأن نتبين الأسباب القوية التي أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتطور قليلاً ، ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون (١)

رأينا في الأسبوع الماضي أن الآداب العربية ، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التي تشترك فيها الآداب الحية جميعاً : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه ، لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً في الشعر على أقل تقدير ، وسنعرض للنثر في غير هذا الفصل .

لم ينتج شيئاً كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان ، لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والثناء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات ، وظل شكل الشعر كما كان ، لم يخترع فيه شكل جديد ، ولم تضاف إليه صورة طريفة ، وإنما بقيت القصيدة مظهراً للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها .

وإذن فلم يحدث تطور الأمة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر في موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئاً جديداً في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا في الفصل الماضي ، وربما اضطربنا إلى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشيء الجديد كان أقل جدّاً مما كنا ننتظره ؛ فإن الحياة العربية تطورت في القرن الأول والثاني للهجرة تطوراً يوشك أن يكون كاملاً ، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت في هذين القرنين تبديلاً تاماً ؛ فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فبينما كانت الحياة في بغداد أبعد ما تكون عن الحياة في صحراء جزيرة العرب من كل وجه ، كان الشعر الذي ينشد في بغداد شديد القرب جدّاً من الشعر الذي كان ينشد في تلك الصحراء .

وإذن فنحن بإزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرهما : الأولى أن الحياة العربية

(١) نشرت بالسياسة في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ - ١٣ ديسبر سنة ١٩٢٢ .

قد تطورت تطوراً كاملاً ، وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما ؛ والأخرى أن تطور الشعر لم يكن مناسباً لتطور الحياة في جميع فروعها .

وربما لم يكن من العسير جداً تفسير هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خصوصاً تماماً لمؤثرين مختلفين اختلافاً تاماً ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعاً قوياً إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذباً قوياً إلى الوراء فتتنجذب . كانت تندفع إلى الأمام اندفاعاً قوياً في الحضارة المادية ، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحداثتها ورياضها ، وما تشتمل عليه هذه القصور والحداثق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تتحوى من مظاهر العيش الحشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية ، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة ، واجب ديني لا سبيل إلى جموده أو التقصير فيه .

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام ، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطئ في حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذاك .

ومن هنا كان التناقض ظاهراً بين حياة العرب المادية في تفصيلها وبين حياتهم الأدبية في إجمالها ، فكانوا أحراراً في الحياة المادية ، محافظين في الحياة الأدبية .

وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة ، ويحاولون تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ، ولا ضئيلة الأثر في الحياة العامة ؛ كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراس على القديم ، أعداء لكل جديد ، وكان هؤلاء الشعراء

يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية ، مضطرون إلى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بالفاظها وأساليبها أيضاً ، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل ، وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها ، فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهى الفقهاء والوعاظ ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة ؛ أضف إلى هذا كله ، أن الأمة العربية بفطرتها حريصة على سننها القديمة ، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وأن الآداب العربية القديمة في نفسها جذابة بخلاصة محبة إلى النفوس مستاثرة بالقلوب ، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين ، كموقف الفلاسفة المجددين ، ثقيلًا شديد الحرج ، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب .

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقيون في العصر العباسي ضروباً من الحزن تختلف قوة وضعف باختلاف الخلفاء والوزراء ، كانوا محبين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء ، فكثير من هؤلاء الخلفاء ، والوزراء كان يحب شعر بشار ويلد لشعر أبي نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار ، حتى مات ، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ، مع أن إعجاب المأمون بأبي نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريههم كانوا يحيون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون ؛ وحياة لأنفسهم ، ولخلصائهم في القصور ومن وراء الحجب ، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقترفون ضروباً من الآثام .

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة ، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب ، وإنما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس ؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يُفْتَنُّ لآفته شاعر أو مفكر فحسب ، بل قد يفتن أيضاً لأنه يرى رأياً سياسياً لا يراه السلطان ، لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع ، لأنه يرى رأى العلويين ، لأنه يؤثر الفرس على العرب ، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين .

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة — والشعر خاصة — بطيئاً قليل الإنتاج ؛ ولكن هناك سبباً نعتقد أنه هو السبب الأساسى الذى حال بين الشعر العربى وبين ما كان ينتظر له من التجدد ، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر ، ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جداً ، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة ، ونتاجاً من الحكم والأمثال ، فجهلت الأمة العربية جهلاً تاماً ، أو جهلاً يوشك أن يكون تاماً ، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الوفور ، ولم تك تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية ، وروايات مشوهة فى الحكم والأمثال ، وسياسة الملوك ، ولم تك تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم ، وقليل من المواعظ والوصايا .

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبى جديد يحتذونه ويسعون فى تقليده ومحاكاته ، فظلوا على ما كانوا عليه ، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه ، لا يجددون من هذا كله إلا ما يضطرهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه ، وهم فى هذا التجديد القليل نفسه ، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية . وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم ، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج ، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة

المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة الأدبية للشعوب الأجنبية ، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الأمم المعاصرة ، لما تطور شعرهم هذه الأنواع من التطور . وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم ، وقل إن الأمم الأوربية مدينة بتطور آدابها لهذه الحركة التي حدثت في عصر النهضة ، فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان .

ويطول القول إذ أردنا أن نذكر أثر الاختلاط بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوربية الحديثة ، وقد حرم العرب هذا الاختلاط ، فحرم الأدب العربي نتيجته ، وهي التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية ، فجهلوا الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنوناً كثيرة وضروباً مختلفة ، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربي ، وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوي بين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم ، وموعداً بهذا الفصل الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

تجدد الشعر في العصر الأموي - الغزل الإباحي -
الغزل العفيف - الشعراء المتوسطون بين هذين الفنين .

نظم العصر الأموي ، ونظم معه تاريخ الأدب العربي ، إن زعمنا أن التجديد الذي تناول لفظ الشعر ومعناه ، إنما حدث في العصر العباسي خاصة ، فإن العصر الأموي قد كان عصر تجديد أيضاً ، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر في اللفظ والمعنى .

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب ، بل فيهما وفي الموضوع أيضاً ، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تاماً ، لأن عصر الأمويين لم يطل ، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان ، وإنما كان عصر تحول وانتقال ، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسي ما بدأه العصر الأموي من تجديد موضوع الشعر ، ولكننا سنرى في غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربي ، لأن العصر العباسي سلك بالأمة العربية طريقاً جديدة ، مغايرة مغايرة شديدة للطريق التي سلكها العصر الأموي .

لم يكد يمعن المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة ، والروم من جهة أخرى ، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الأمة العربية ، وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادي ، وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين ، في هذا الفتح والتغلب ، من المال والغنائم الموفورة ، التي بدلت حياة هؤلاء الناس ، فجعلتها يسيرة بعد عسر ، سهلة بعد صعوبة ، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والآخر معنوي ؛ فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظاماً للحكم والسياسة لم يألّفوها ، وطرقاً للإدارة وتدير الأمور

(١) نشرت بالسياسة في ٢ جادى الأول سنة ١٣٤١ - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

العامة لم يعهدوها من قبل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً ، ونتج عن هذا التأثير المزدوج ، أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية في كل شيء ملكاً حضرياً في كل شيء ، وما لبثوا أن وفقوا إلى الأمرين جميعاً .

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية في حياة العقل والشعور ، فإن الحضري يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي في شعوره وتفكيره . وكذلك يشعر الرجل الغني المنعم الذي لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طمعه في اللذة والتعيم ، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذي أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة .

ثم إن الأمة العربية كانت أمة ذات عصبية شديدة ، فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم ، أو تدعن لسلطان ثابت الملك ، وإنما كانت قبائل وشعوباً ، ترى كل قبيلة من نفسها السيادة والسلطان ، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبية أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة .

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة ، فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمها والعناية بهما: الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو « الغزل » وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشبوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنّاً جديداً قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذي يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه ، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يفنيها في شعره ، لا أكثر ولا أقل .

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، أو بعبارة أصح : كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدئون قصائدهم — مهما يختلف موضوعها — بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل .

وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية ؛ فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفناً مختاراً ، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون ، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً في هذا العصر باختلاف الشعراء ، واختلاف ظروف الحياة التي كانوا يحيونها ، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنائهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء « عمر بن أبي ربيعة » ذلك الذي أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير ، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى شيء آخر ، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها ، والتي هو بها كلف وعليها حريص ، هي لذة الألم بأنه يحب ، ويجب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء « جميل » الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب « بشينة » ، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يحب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يرضيه ويعنيه ، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل

كان يطمع في شيء آخر ، وهو أن تحس صاحبتة ما يدخر لها من حب وما يلتقى في سبيلها من ألم .

كان « عمر بن أبي ربيعة » زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان « جميل » زعيم المتغزلين العذريين ، وكان بين هذين الرجلين المتناقضين ، شعراء يتوسطون في الأمر فيبيحون أحياناً ويعفون أحياناً أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه ، أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقاً مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده ، وإنما تناول مع الغزل فنوناً أخرى . ومن هؤلاء الشعراء « كثير » الذي تغزل فأكثر الغزل ، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامى وهي « عزة » ، ولكنه مدح وارتزق من شعره . ولست أشك - والرواة لا ينكرون ذلك - أن كثيراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه، وإنما كان يتخذ الغزل صنعة، ويقفو فيه أثر أستاذه جميل . ولقد راج هذا الفن الحديد في عصر بني أمية رواجاً ظاهراً جداً ، نشأ عنه أن كلف به الشعب ، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يكونوا قط ، وألف لهم فصولاً من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة « قيس بن الملوح » « وليلاه » ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المسرفة التي تضاف إلى « قيس بن ذريح » و « لبناه » .

ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن ، واخترع المواقف الحرجة المعضلة التي ليس لها حل وليس منها مخلص ، ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلي الأخيلية :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْحُ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مِمَّا حَبِيتَ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَحَلِيلُ

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير ، موقف عاشقين كلفين ، ليس إلى وصالهما سبيل ، لأن كليهما متزوج ، ولأن كليهما وفي عفيف . لا أشك في أنك ستقول ليس في هذا الموقف شيء من الغرابة ، فقد كانت ليلي متزوجة وكان « توبة » متزوجاً ، وليس غريباً أن يكون كلاهما وفيّاً عفيفاً ، لا أشك في أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا أيضاً ، ولكني لا أدري لماذا أميل ميلاً قوياً جداً إلى اعتقاد أن هذا الموقف موقف في اخترعته الشاعرة لتجيد في الفن ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة .

ومهما يكن من شيء ، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند العرب في هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة ، وذهب الآخرون فيه مذهب العفة .

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار ، الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسي لأمر ما . ومن هنا كانت مكة والمدينة — في هذا العصر — أقرب إلى اللهو والمجون والافتتان في اللذة ، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل ، من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة ؛ وإن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا في هذا المذهب كانوا من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا — ولم يعرفهم التاريخ — كانوا أيضاً يتخربون في البادية ، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضاً ، ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة والإباحة ، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية .

وإذن فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ في هذا العصر يستأثر بالنفوس العربية ، وأن هذه النفوس قد خضعت في هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هي الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولكن هذا افتراض لم أوفق إلى تحقيقه بعد .

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنّة الموروثة ، ويذهبون مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون ، قد تأثروا بهذا الفن الجديد ، فمع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل ، فإن هذا الغزل نفسه قد رق ولطف في شعر الفرزدق وجريير والأخطل حتى أصبح الفرق بينه وبين غزل الجاهليين ظاهراً بيناً ، فقليلاً ما تجد في شعر الجاهليين غزلاً يقارب في عذوبة اللفظ وسحره ، وفي لطف المعنى ودقته . وقول جرير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبَيْتِكَ غَادَرُوا وَشَلَا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضَنَ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » . انظر إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع ، وحسن موقعه من النفس ، وانظر إلى دقة معناه ولطفه ، وإلى سعة هذا المعنى التي لا حدها ، والتي عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز ، فعمد إلى الاستفهام « ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ » شيء ليس إلى وصفه ولا إلى تحديده من سبيل ، فهذا هو الفن الأول الذي استحدث في الشعر العربي أيام بني أمية ولنختصر

نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل ، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين « مذهب اللذة » ورافع لوائه « عمر بن أبي ربيعة » ومذهب العفة ، ورافع لوائه « جميل بن معمر » . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون ، فمنهم من اتخذ الغزل صنعة وفناً فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرق لفظه وسهل . ودق معناه ولطف .

أما الفن الآخر الذي استحدث أيام بني أمية فهو « الشعر السياسي » ، وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك ، وعما كان من حرب بين العصبية من جهة ، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى ، ولعل من الخير أن نرجع بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتي

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي - أسبابه
العامة - نموذج من نماذج هذا التطور .

رأينا أن تطور الشعر في عصر بني أمية كان قوياً منتجاً من بعض الوجوه ؛
فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسي
وقلنا في آخر الفصل الماضي : إن تغير الحياة العربية أيام بني العباس
أثر في حياة الشعر تأثيراً ظاهراً ، فحذا الفن السياسي محواً ، وحول الغزل عن
طريقته الأموية .

وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقاً تكاد تخالف كل
المخالفة طريقة أيام بني أمية . فنشأت معان جديدة . وذهب الشعراء مذاهب
مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة
ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن
الحياة في عصر بني العباس كانت جديدة من كل وجه ، فانقطعت الصلة شيئاً
فشيئاً أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد
وضواحي بغداد ، وبين هذه البداوة القاسية الحشنة التي كانت تبسط سلطانها
على بلاد العرب ، فبينما كانت دمشق ، على حضارتها أيام الأمويين ، ملتقى للجديد
والقديم ، وبينما كان الحضري الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية
مطمئنة ، وكان البدوي المغرق في البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة
وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء . وبينما كان
الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم ، وعلى كثرة ثروتهم
وغناهم ، وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة ، بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة ،
بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال ، كانت بغداد على حال تخالفها كل
المخالفة ، فهي مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها في أرض قد بعد عهدها

(١) نشرت بالسياسة في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ .

بالبداءة ، واختلقت عليها الحضارات الكثيرة ، وأتاحت لها الطبيعة من خصب الأرض وراثتها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ، ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو في وقت سريع ؛ فليس عجباً أن يأنس إليها أهل الحضرة وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ، ولم يبعدهم عهدهم بالنعيم .

كان الحضري يأنس إلى بغداد ، وكان البدوي ينفر منها وينكر نفسه فيها ، ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون إليها ولا يتكلفون في قصورهم عيشة أهلها ، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة ، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مثلاً يحتذونها في ضروب الحياة ، ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بني أمية ، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة ؛ فليس غريباً أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام ، وليس غريباً أن ينشد في بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد في دمشق والشام .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت في هذا العصر تغيراً شديداً مختلفاً ؛ فكان السلطان الفعلي للفرس كما قدمنا ، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممتدته في الأمصار والأقاليم ، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة ، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فأنمى هذا الفن الذي أزهى أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد .

وهناك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية ، فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقتها إلى الحضارة ، فلم يقف هذا الاختلاط عند المحاورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثراً في الحياة المادية والمعنوية : تجاوزه إلى الإصهار والتوالد من جهة ، وإلى الاختلاط العقلي الخالص من جهة أخرى ؛ فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير

الفارسي ، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة ، وفي الفلك والنجوم ، وفي السياسة والأخلاق وفي العلم والفلسفة. فلا جرم ، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد في حياة النفس العربية ، أنتج أدباً لم تنتج تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية ومصدر الإسلام ، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بني أمية أنتج أدباً حضرياً خالصاً يعبر عن شعور حضري خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الأمم ، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى - نقول : لولا هذان الشيطان لاستحال الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها في هذه الفصول : ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة ، تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل .

ادرس هذا العصر درساً جيداً ، واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث ، تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم ، ديناً كان هذا القديم أم خلقاً أم سياسة أم أدباً .

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً ، اضطرت الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب ، لأنهم اتهموا بهذه الزندقة ، وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة ، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله .

وليس يعنينا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية ، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذي يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً ، فيكفي أن كان تقرأ شعر أبي نواس ، وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه

من معارضة ومناقضة ، لتعرف مقدار هذا التغير ، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية ، فنهض القديم للدفاع عن نفسه ، واشتد الجهاد بينه وبين الحديد ، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى . . . بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسى للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة .

ولعل من ألد ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدثين ، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس . . . لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث ، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة في الحياة العربية ، فقد كان أبو نواس محدثاً روى عنه الشافعى ، وكان مع ذلك فاجراً ماجناً يذيق المحدثين ألواناً من الأذى ؛ كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ، ويشهرون به في دروسهم مرة ثالثة ، فكان أبو نواس يجد لكل شيء من هذا جواباً ، فيرد الواعظ رداً حسناً فيسه شيء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير ، ويكذب على من يشهر به ، حتى لقد نظم مرة شعراً اختلق فيه حديثاً رفعه إلى النبي ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين ، ثم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقياً ورعاً . وروى ابن عساكر أن صاحباً من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكى ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية : هات الرقعة ، ودفع الرقعة إلى صاحبه ، وهو يقول : انظر إلى الفاسق ! لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، والله ما حدثته بهذا قط .

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون وقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . . . ولعلمهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوماً ، وأمهم أحد الندماء ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة من خشوع لله ، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس :

أَكْثَرَ يَخْبِي غَلْطًا فِي قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

وقال العباس بن الأحنف :

قَامَ طَوِيلًا سَاهِيًا حَتَّى إِذَا أَعْيَا سَجَدَ
وقال الحسين الخليل :

يَزْحَرُ فِي مِخْرَابِهِ زَجِيرَ حُبْلَى بَوَلَدَ
وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدَّ بِحَبْلِ مِنْ مَسَدَ

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ : أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير
يبتغون الشراب واللهم ، وإنهم لفي ذلك إذ قام أحدهم يصلي ، وأقبلت دلالة
فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، فقالت : كم أنتم ؟ قالوا : أربعة ؛ وأهملوا صاحبهم
لأنه يصلي ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله !
وعرفت الدلالة أنهم خمسة . . .

كان هذا العصر إذن عصر شك في كل شيء ، وعصر مجون وإباحة
وتهتك في الحياة العملية وفي القول أيضاً ؛ ومن هنا نجد في هذا العصر شعراً
كثيراً نستطيع أن نقرأه في الكتب ، دون أن نستطيع ترديده في الصف ،
بل في دار الكتب المصرية كتاب في أخبار أبي نواس ليس إلى نشره من
سبيل ، لأن قوانيننا لا تبيحه ، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الإصلاح
يذهب بخير ما فيه .

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر ،
دون أن نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا رويانا لك قصيدة من شعر أبي نواس ،
ولم نحذف منها إلا بيتاً واحداً ليس إلى روايته من سبيل ، ولكننا نحب أن
نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى البيت في غير إثم ولا فحش ،
لولا أنه تعمد الإثم ، لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد في ذلك العصر :
دَعُ عَنْكَ لَوْنِي فَإِنَّ الدَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ

... ..

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَا حَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَارَسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخْذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءِ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجْفاً عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءِ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْسَوَارٌ وَأَضْوَاءُ
دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
لِتِلْكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا (لِدُرَّة) أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تَرْوَحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوُ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلاً صادقاً ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفة تجري على ألسنة الناس جميعاً في أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بدوى ، وإنما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشأوا في المدن وامتلاّت رؤوسهم بما يملأ رؤوس أهل المدن من جد ولعب ، بل في هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية ، فهو يريد أن يبكي على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لِتِلْكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درساً مفصلاً ، رأيت هذه الإباحة في البيت الذي لم نروه ، ورأيت في آخر القصيدة بيتاً يعتر بالدين نفسه في نصر هذه الإباحة وتأبيدها ، فهو يريد أن يكون ماجناً فاسقاً ، وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه « النظام » وأصحابه من المعتزلة تشدهم في أمر العفو والخطيئة والتوبة ، ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين ، ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة ، وأن يلهوا في مستقبل الشباب حتى

إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلقون على الناس هذا الباب ، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون .
ويقال أن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه ، فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره في طاعة الشيطان . وغلا بعضهم حتى أياسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ؛ وتكلف النهوض ، وروى حديثاً يضمن له عفو الله .

وقد تحدثت الرواة بعد موته أنه دخل الجنة ، لأن أحدهم رآه في المنام فسأله عما فعل الله به ، فقال : غفر لي بأبيات قلتها ، وهذه الأبيات في الزهد والند قالها في مرض موته ، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته ، وسنعرض لها حين نعرض لزهد أبي نواس .

إلى جانب هذا كله في هذه القصيدة معاني لا يمكن أن توجد ، إلا في نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين ، فانظر إلى قوله :

رَقْتُ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فهذا أسلوب « النظام » وغير النظام حين كانوا يتكلمون في الجزء الذي لا يتجزأ ، وفي كثافة الأجسام ولطافتها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة ، وكذلك قوله « حتى تولد أنوار وأضواء » فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص ، والبيت الأخير من هذه القصيدة :
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوُ إِن كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ
ليس إلا وضعاً لمذهبين كلاميين أحدهما يلزأ صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة .

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس ، ولكنها تمثلها تمثيلاً مجملًا ، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة ، وجب أن تدرس حياة الجماعات الأدبية في بغداد والبصرة وهي شيء يشبه « الصالونات الأدبية » (Les Salon Littéraires) في فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، وسنحدثك عن هذا في الأسبوع الآتي . . .

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندية
الأدبية - الشك والمجون .

كان أمر العرب مع الفرس ، كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة؛ فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ، وأخذوا منهما بنصيب موفور ، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية ، فلما جاء الإسلام ، وكان الفتح ، ومكّن الله للعرب في بلاد الفرس ، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداءة العربية ، بين اللين والحشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة ، والحياة الساذجة الهينة .

لم يكن هذا الجهاد عنيفاً حين كانت الحياة المادية موضوعة ؛ فكل الناس يؤثر اللين على الحشونة ، ويفضل النعمة على البؤس ، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم ، وإنما كان الجهاد عنيفاً بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعاً له ، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة ، والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية . وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضي ، حتى ظهر انتصار الحديد ، وأخذ القديم ينهزم أمامه ، وينحصر في البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع ، في العراق والشام وغيرها من البلاد التي خضعت للعرب ، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها . وكذلك كانت الرومان بعد أن أخضعوا اليونان ، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحاً سياسياً ، ولكن اليونان فتحوا روما فتحاً أدبياً ، كما قال الشاعر الروماني هوراس .

انتصرت الحضارة ، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف

(١) نشرت بالسياسة في يوم الأربعاء ٢٣ جادى الأول سنة ١٣٤١ - ١٠ ينا ير ١٩٢٣ .

طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وكان هذا الانتصار عاماً ، تناول الحياة المادية والعقلية ، وتناول معهما حياة الشعور . ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ، وعاشوا كذلك في دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم ، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور ، وهو الأدب ، نثراً كان أو شعراً .

وقد أشرنا في الفصل الماضي إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار ، أنكر العقل العربي فيه قديمه ، ولم يشتد اطمئنانه إلى الجديد ، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في الحياة ، وإنما عاش من يوم إلى يوم ، فاحتمل الآلام كارهاً ، واستمتع بالذات ، راغباً فيها ، مستريداً منها ، وكانت هذه الذات كثيرة مختلفة ، وكانت هذه الذات ميسرة له ، موفورة عليه ، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، ولم تكن هذه المرأة عربية ، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية ، ولم يكن الوصول إليها عسيراً ، وإنما كان شيئاً سهلاً ميسوراً ، فقد كانت المرأة تباع وتشتري ، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء .

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية ، وإنما كانت أعجمية متحضرة ، قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة ، فرقاً طبعها وصفا مزاجها ، واقتنت في تلطيف الحياة وترفيها ، وفي اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة ، وإنما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعليماً متقناً ، فقد وجدت في ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم أحسن تعليم ، ويدرب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة ، محتفظة بكرامتها الشخصية ، حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وإنما كانت مبدلة ممتهنة ، تباع وتشتري ، كما يباع المتاع ويشترى .

وكان العرب مندفعين في هذا النوع من اللذة ، يستمتعون به في غير قصد ولا احتياط ؛ وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى ،

لذات الطعام ، ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ، ولذات اللباس ؛ ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرءون ويفهمون ، ويتأثرون في حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة ، أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها ، وتنفر منها ، وتملاً قلوب الناس لها بغضاً ، وعليها سخطاً ، فلا جرم أثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم ، على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووجد هؤلاء الشعراء والكتّاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ، ويحتفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حيناً ويسرون حيناً آخر ، يأمنون معه دهرًا ، ويلقون في سبيله الموت من وقت إلى وقت . وُجد « مطيع بن إياس » الذي كان لا يبالي أكان عفيفاً أم غير عفيف ، ولا يبالي أكان حرّاً كريماً نقي العرض ، أم ممتناً مبتذلاً مرذول السيرة ، وُوجد « حماد عجرد » الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا ، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها ، وينوعها ما استطاع إلى تنويعها سبيلاً ، والذي أسرف في المجون والتهتك ، حتى لامه أبو حنيفة وشهرّ به ، فلم يجد حماد ردّاً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التي يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك ، وأنه كثيراً ما شاركه في الإثم والمعصية :

إِنْ كَانَ نُسُكُكَ لَا يَنْبَغُ	مُ بَغَيْرِ شَتْمِي وَأَنْتِقَاصِي
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِي حَيْثُ شُدُّ	تَ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَّالَمَا زَكَّيْتَنِي	وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ نَأْخُذُهَا وَنُعَفُّ	طِي فِي أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ

وُجد رفيقهما « يحيى بن زياد » الذي كان يقاسمهما حظهما من كل إثم في القول والعمل ، ثم أدركه الكِبَرُ ، فتاب وأناب . وظهر « بشار » الذي كان يؤثر النار على الطين ، أي كان يميل إلى دين الفرس القديم ، ويزدري الإسلام ، والذي مهر في وصف الفسق والمجون ، حتى حبسه المهدي ، وحتى شكاه منه ، إلى الخليفة ، أشرف الناس ، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . وُجد

« والبة بن الحُبَاب الأسدي » الذي عرضت منادمته على الرشيد ، فأبى وأشفق ، وأعلن إباءه وإشفاقه في ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق ، ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة ، أعلن فيه بغيه وفجوره ، إعلانا خاف الرشيد عاقبته على نفسه ، فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحاً من غير شك ، ولكنه كان يجلسه عن مثل هذا الشاعر ، الذي لا يستر فسقه . وكان أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي ، بل قل : إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها .

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجوناً ، وأكثر منها فجوراً ، وأقل منها حرصاً على الاستتار ؛ وكان « أبو نواس » من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه « الرقاشي » « والعباس ابن الأحنف » و« مسلم بن الوليد » و« الحسين الخليل » وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية ، ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقّة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تركهم ، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقاً ولا ديناً ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة ، فاستتروا حيناً ، أو اضطروا إلى السجن ، حتى ينالهم العفو ، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى . ومن هذا قصة متحلة - فيما أعتقد - ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة في الخلفاء .

روى عن أبي نواس أنه قال : لما حبسني الأمين رأيت بشاراً في المنام ، فقال لي : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ (يعني الأمين) ، قلت : بقولي :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ . وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمُكِّنَ الْجَهْرُ

فقال : أو يحظر عليك شيئاً وهو يجاهر به ؟ هلا بدأ بنفسه ، لعن الله من

نقل إليهم الملك ، فقلت : فماذا حبسك جده المهدي ؟ قال بقولي :

قَاسِ الْهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجْحًا وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبْحًا
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ وَالصَّغْبُ يَسْلُسُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

قلت : فيم أفرج عنك ؟ قال بقولي :

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ قَدِيتُهُ
وَمُخَضَّبٍ رَخِصِ الْبَنَاتِ نِ بَكِيٍّ عَلَى وَمَا بَكَيْتُهُ
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوِمُنِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهُ رَبُّ سَرِيرَتِي مَا إِنْ صَبَوْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَعْرَضْتُ عَنْكَ وَرُبَّمَا عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا أَتَيْتُهُ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَا مُ عَنِ النِّسَاءِ فَمَا عَصَيْتُهُ
لَا بَلْ وَفَيْتُ وَلَمْ أَضِغْ عَهْدًا وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ

وبقولي أيضاً :

وَاللَّهُ لَوْلَا رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا أَحْبَبْتُ
قَدْ عِشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالرَّاحِ وَالْمِزْ
ثُمَّ نَهَانِي الْمَهْدِيُّ فَانْصَرَفْتُ تَمَلَّتُ ضَيْمًا عَلَى فِي شَجْنِي
هَرٍ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ حَسَنٍ نَفْسِي صَنِيعَ الْمُوَفَّقِ اللَّقِينِ

فانتبهت وقد حفظت الأبيات ، وبشار أمانى فقلت :

أَعَاذِلَ أَغْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَيْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِبِيهَا أَجْزَهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
وقلت أيضاً :

أَطِيعِ الْخَلِيفَةَ وَأَعِصِ ذَا عَرَفٍ وَتَشَحَّ عَنْ طَرَبٍ وَعَنْ قَصَفٍ

فصارت هذه الأبيات إحدى منجياتي ، وكان الشيخ بشار سببها .
ولا تنس أن الأمين الذي حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس
به كلفاً . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين ، وكان
أبو نواس صديقاً للكسائي ، فقال له أبو نواس يوماً : أحب أن أقبل الأمين .

فجزع الكسائي لذلك ، وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف
بالإلحاح ، بل أندر وصنع هذين البيتين ، وأظهر أنه سيرفعهما إلى
الرشيد ، وهما :

قُلْ لِلْإِمَامِ جَزَاؤُهُ اللَّهُ صَالِحَةٌ لَا يَجْمَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ السَّخْلِ وَالذُّيْبِ
السَّخْلُ غَيْرُهُمْ وَالذُّيْبُ غَفْلَتُهُ وَالذُّيْبُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

فاشتد جزع الكسائي ، واحتال لأبي نواس ، فقال له : أطل الغيبة ، ثم أقبل
كأنك قادم من سفر ، فأعانقك ، ويعانقك الأمين فتقبله ! ففعل أبو نواس ،
ثم خرج ، فقال في ذلك شعراً .

فهذا القليل الذي رويته لك ، والذي ليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى
ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة ، يبين لك إلى أى حد وصل
هؤلاء الناس في هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع في الحرية ، والاستمتاع
باللذة ، ولا يزجرهم عن ذلك حياء ولا دين .

خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وربح الأدب ، فلم يعرف العرب
عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعر التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا
العصر . . . ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق
في ذلك العصر والعصور التي تلت ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن
معروفاً في الجاهلية ، ولا في صدر الإسلام ، ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر
من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما
خالطت العرب ، أو عند ما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم في
بغداد ، وهذا الفن الجديد هو « الغزل بالغلمان » الذي سنحدثك عن خصائصه
في غير هذا الفصل .

وإنما الذي يعنينا الآن أن نلاحظه ، أن هؤلاء الناس ، الذين وصفنا
لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء ، وعبت بكل شيء ، وإسراف في
المجون واللهو ، كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ،
وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة ، فيها اللهو ، وفيها الترف ، كانوا لا يجتمعون

إلا على لذة ، إلا على كأس تدار ، أو لثم يقترب ، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الطريقات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديار ، وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة . فيلدون ويتحدثون .

فأنت تستطيع أن تتكهن بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ، ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً ، فتمثل عقولهم وشعورهم ، وقوة حرصهم على الذات ، وشدة شغفهم بالجلد أحسن تمثيل ، ولكننا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها ، فلتنتظر اليوم ، لنستمع إليهم في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندية
الأدبية - الألفاظ والمعاني .

انتهى بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الأندية الأدبية ، التي كان لها أيام بني العباس أثر في الأدب لا يمحي ، ويد على الشعر لن ينالها النسيان . لم تكن هذه الأندية تجتمع في أماكن معينة ، أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتأخر لها الاجتماع ، كانت تنتقل بأديها وعلمها ، ويجدها وهزها بين مدن العراق المختلفة ، وبين ما كان في هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم ، وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة ، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم في الأحاديث الماضية ، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء ، والعبث بكل شيء ، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين ، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة ، فكانت أحاديثهم في هذه المجالس متأثرة بجده هؤلاء العلماء ، وبمهارة الأمراء والوزراء ؛ فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله ، وقلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه إذا خلوا إلى أنفسهم من الفحش الذي لا حد له ، والمجون الذي لا يعدله مجون . كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب ، وفي اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف ، وحسن الوفاء للتاريخ يضطرنا إلى أن

(١) نشرت بالسياسة في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ١٧ يناير سنة ١٩٢٣ .

نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكّون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين ، يؤثرون الجلد ويغلون فيه .

ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة ، تحكم بها عليه حكماً صادقاً ، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب ، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً ، ويعبرون عن أهوائها وميولها ؛ ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة ، أفتنظن أن شاعراً كأبي نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس في بغداد ، وغيرها من مدن العراق ، بل في الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر ، فيحفظون شعره ويتناشدونه ، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل يروون عنه الروايات ، ويتحلون له القصص ، ويتحدثون عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفتنظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثلاً للذة ونعيم الحياة ، فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ، ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء ، وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين ، لما ينظر لهذه الطبقات من خواطر ، وما يضطرب في نفوسها من عواطف ، في حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد ، ولا يمثلون إلا العلم الذي يعنون به ، ويعكفون عليه .

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ، ونحتاط بعض الاحتياط ، حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى ؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً ، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحبون الحياة ويتذوقون

لذاتها ، ويظهرون للناس برّاً وديناً من ورائهما شيء كثير !
ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « يحيى بن أكثم » الذى كان قاضى
المأمون ونديمه ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « أبى عبيدة معمر بن المثنى » ،
وما كان بينه وبين الشعراء ، بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء
أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لُهو ولعب ، دون أن يمنعه ذلك من أن
يظهروا مظهر الأئمة الاتقياء . ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع
به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد
كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة . وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ،
فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان
يلهو ويسكر وكذلك ذكروا عن المأمون خلافاً لثقة ، وخصالاً طاهرة ، ربما
صحت كلها ، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر .

كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان
لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر
الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون ، الذى
يخلع فيه العذار ، وترك فيه للشهوات حريتها المطلقة .

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلمون
المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلاً للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء
والخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وليس هذا مقصوداً على العرب ، ولا على
العباسيين ، ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوربيون ، وعرفته أثينا
وروما وباريس ، وما لنا نطيل فى هذا ! ويكفى أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس
ولويس الرابع عشر . لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون .

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلاً صحيحاً ، فلنا أن نتخذهم
مقياساً للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث
الشك والمجون وحدهما ، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث
أيضاً شيئاً آخر ، وغير الشعر من ناحية أخرى : أحدث سهولة فى التعبير عما فى
النفس ؛ لأنه أطلق العواطف والأهواء حريتها ، فانطلقت الألسنة بوصف

هذه العواطف والأهواء .. ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة ، وضعف رقيب السلطان السياسى أيضاً ، ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ، تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركهم السياسة أحراراً ، واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون ، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون في الهزل ، كانت السياسة تقوى سلطانها ، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية . أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ، ونشأ من حرية العواطف تنافس في اللذة ، واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس في اللذة العملية ، تنافس في وصفها ، واستباق إلى إجادة هذا الوصف ، وكان هؤلاء الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه في الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه في وصف الشرب وغير الشرب ، ومن هنا كثر الافتنان في اللذات ، وكثر معه الافتنان في القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التي أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب ، أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقييد بالقديم . وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفى من الشرطة ، فماله لا يصف الخمر كما يحب دون أن يخشى سطوة الأصمعي أو أبي عبيدة !

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول الشعر أبسر وأسهل في هذا العصر منه في العصور الأخرى ، وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثاني من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوفقون إلى القول البديع ، والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يسقطون إلى سخيף اللفظ ومتكلفه ، وإلى ردىء المعنى وفاتره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون في هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى .

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء ، وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث ،

حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها : أين نحن العشيّة ؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً ، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاماً ، فقال داود بن رزين الواسطي :

قُومُوا لِمَنْزِلٍ لَهْوٍ	وَوَظِلُّ بَيْتٍ كَنِينٍ
فِيهِ مِنْ الْوَرْدِ وَالنَّارِ	جِسِّ وَالْيَاسَمِينِ
وَرِيحٍ مِنْكَ ذَكِيٌّ	وَفَائِصِ الْمَرْزُجُونِ
وَقَنِيَّةٍ ذَاتِ غُنْجٍ	وَذَاتِ عَقْلِ رَصِينِ
تَشْدُوا بِكُلِّ طَرِيفٍ	مِنْ مُحْكَمِ «ابْنِ رَزِينِ»

وقال أبو نواس :

لَا ، بَلْ إِلَى ثِقَاتِي	قُومُوا بِنَا لِحَيَاتِي
قُومُوا نَلْذَّ جَمِيعاً	بِقَوْلِ هَاكَ وَهَاتِ
.....
.....
فَشَاوِرُوهُ	مُجُوناً
فِي وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ

وقال الخليل :

إِلَى «الْخَلِيلِ» فَقُومُوا	إِلَى شَرَابِ الْخَلِيلِ
إِلَى شَرَابِ لَذِيذِ	وَأَكْلِ جَدِي رَضِيعِ
وَنَيْلِ أَخَوِي رَنِيمِ	بِالْخَنْدَرِيسِ صَرِيعِ
فِي رَوْضَةٍ جَادَهَا صَوٌّ	بُ غَادِيَاتِ الرَّبِيعِ
قُومُوا تَنَالُوا وَشِيكاً	مَنَالَ كُلِّ رَفِيعِ

وقال الرقاشي :

لِلَّهِ دَرٌّ عَقَارٍ	حَلَّتْ بِبَيْتِ «الرَّقَاشِي»
عَذْرَاءَ ذَاتِ اخِيرَارٍ	إِنِّي بِهَا لَا أَحَاشِي
قُومُوا نَدَامَايَ رَوُّوا	مُشَاشَكُمْ وَمُشَاشِي
وَنَاطِحُونِي بِكَأْسٍ	نِطَاحِ سُودِ الْكِبَاشِ
فَإِنْ نَكَلْتُ فَجِلُّ	لَكُمْ دِي وَمُشَاشِي

وقال عمرو الوراق :

عُوجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرِ»	إِلَى سَمَاعٍ وَخَمْرِ
وَنَاشِجَاتٍ عَلَيْنَا	تُطَاعُ فِي كُلِّ أَمْرِ
فَهَاكَ أَجَلِي وَأَشْهَى	مِنْ صَيْدٍ بَازٍ وَصَفْرِ
هَذَا ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ	أُولَى وَلَا وَقْتُ عَصْرِ

وقال الحسين الحياط :

قَضَتْ عِنَانٌ عَلَيْنَا	بِأَنْ نَزُورَ «حُسَيْنَا»
وَأَنْ نَقَرَّ لَدَيْهِ	بِاللَّهِوِ وَالْقَصْفِ عَيْنَنَا
فَمَا رَأَيْنَا كَظَرْفِ «الْ»	حُسَيْنِ « فِيمَا رَأَيْنَا
قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ زَيْنًا	مِنْهُ وَبَاعَدَ شَيْنًا

وقال عنان :

مَهْلًا أَفْدِيكَ مَهْلًا	«عِنَانُ» أَحْرَى وَأُولَى
بِأَنْ تَنَالَ لَدَيْهَا	أَشْهَى النَّعِيمِ وَأَحْلَى
فَإِنْ عِنْدِي حَرَامًا	مِنْ الشَّرَابِ وَحِلًّا
لَا تَطْمَعُوا فِي سَرَائِي	مِنْ الْبَرِيَّةِ كَلًّا
يَا إِخْوَتِي خَبِّرُونِي	أَجَازَ حُكْمِي أَمْ لَا

ومضى كل واحد يقول كلاماً كهذا ، فيه ترغيب ، وفيه حث على اللذة ، وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه في لفظ سهل رشيق غير متكلف ، بل غير معنى به ، حتى يسقط في الخطأ اللفظي ، أو في الضرورة ، فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا ، فلم يسبق أحد صاحبه ، فاقترح ألا يذهبوا إلى بيت أحد ، بل إلى حانة ، فقال :

أَلَا قُومُوا إِلَى الْكَرْخِ إِلَى مَنْزِلِ خَمَّارٍ
إِلَى صَهْبَاءٍ كَالْمِسْكِ إِلَى جُسُونَةِ عَطَّارٍ
وَبُسْتَانٍ بِهِ نَخْلٌ لَهُ زَهْرٌ بِأَشْجَارِ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ لَهُوًّا أَتَيْنَاكُمْ بِمِزْمَارِ

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر في حياته المعنوية والمادية ، بل في تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور والشعور ! عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث عنها صاحبها ، ولم يطل البحث ، وإنما وجدها في نفسه ، فأظهرها في لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز في حياته الأدبية بخلال أربع : الشك ، والمجون وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .

وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس ، الذي سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون^(١)

أبو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء ، وألحوا في الإنكار ، وكتبوا في الصحف يعلنون إنكارهم ، ويطلبون إلينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ، ونعدل به عن الشر إلى الخير ، وعن الهزل إلى الجلد ، وزعموا أن ما نرويه في هذا الحديث من شك الشعراء حيناً ، ومجونهم حيناً آخر ، مفسد لأخلاق الشباب ، مدينس لقلوبهم الطاهرة ، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه ، فزعموا أنا متكلفون مخطئون ، حين نصف القرن الثاني للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون ، وأن الناس كانوا فيه أحراراً ، لا يكادون يأخذون أنفسهم في اللهو بخلق أو دين ، زعموا أننا مخطئون ، وأنا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الما جنين ليس لهم وزن ، فجعلناهم مقياساً للعصر الذي عاشوا فيه ، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجلد وأصحاب الحديث ، قالوا وليس هذا من الإنصاف في شيء .

كتبوا هذا كله ، وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه ، ونشكره لكاتبه ، ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين ، من بعض الوجوه ، فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد له تمثيلاً ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية ، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة ، لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء ، واستمتع بلدات الحياة في سره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم .

فلسنا إذن في حاجة إلى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وإنما نلقت

(١) نشرت بالسياسة في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ - ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ .

سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته ، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقاً على هذا الشباب ، أن يسوء خلقه ، أو يفسد قلبه ، ولكننا لسنا نرى رأيهم في هذا التخرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتاً من الشعر ، ليس حظه من المحجون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظاً ، وأنزله من الفجور نصيباً ، ولسنا نروى لك ما يسمع وما لا يسمع ، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال ، وإنما ننظر في هذا كله إلى الذوق والمنفعة جميعاً ، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم ، وفي ملاعبهم وملاهيهم !

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد ، الذي نخشاه على أخلاق الشبان ، لكننا أسرع الناس إلى إجماله ، ولتحدثنا إلى قرائنا في الزهد والتقوى ، وفي الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البريء ، الذي ننشره كل أسبوع . وهل يحب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأباً نواس والرشيد والأمين ؟ أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جد ، حين كان حظ هذا العصر من الهزل عظيماً ؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتخرجون ويعتصمون بالدين ، يضيّقون على الناس ما وسع الدين ، ويعسّرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا .

ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين ، كان أشد منهم بالله إيماناً ، وأكثر منهم لله طاعة ، وكان في الوقت نفسه أرحب منهم صدرأ ، وأشد احتمالاً ، فكان يسمع للجد ، وكان يسمع للهزل ، بل كان يجده وكان يهزل وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس في المسجد الحرام ، وقد سئل عن الشعر « أينقض الوضوء » ؟ وإن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس ما أنشده عبد الله بن الزبير حين لقي الفرزدق بالمسجد الحرام أيضاً ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت زوجها ، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس

بيتاً قاله حسان ، يهجو به هنداً زوج أبي سفيان ، فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به ، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : « قل وروح القدس معك » .

نعم ! تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن ، لأن العصر قد تبدل ، وقد تطورت نظم الحياة ، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجنى على الأخلاق ، أو نعرضها للخطر ، ونحن نستأذن السادة في أن نرغب في ألا تكون حياتنا خلاً ، وإنما نريد ألا نخلو من الفكاهة واللذة ، ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيهاً من فقهاء هذا العصر الأول :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ ذَا الْعِلْمِ مَا الَّذِي يَحِلُّ مِنَ التَّقْبِيلِ فِي رَمَضَانَ ؟
فَقَالَ لِي الْمَكِّيُّ : أَمَّا لِزَوْجَةٍ فَسَبْعُ ، وَأَمَّا خُلَّةٌ فَثَمَانِ !

وقال شاعر آخر في مثل هذا المعنى :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَعَانُقٍ وَضْمَةٌ مُشْتَاكِ الْقَوَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهِبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ ؟

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به . ويرتاحون له ، وكان سفيان الثوري يقول ؛ إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِي مَائَتِمِ يَنْدُبُ شَجَوًا بَيْنَ أَثْرَابِ
يَبْكِي فَيُذِرِي الدَّرَّ مِنْ نَرْجِسِ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْنَابِ

* * *

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس . وأنا أريد أن أحدثك عن أبي نواس ، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ، ومات سنة ١٩٩ هـ ؛ فأنت تعلم ذلك ، وتستطيع أن تجده في أي كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الأولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب ، وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبي نواس ،

ففيه شيء من الإثم كثير ، قد يغضب سادتنا المتخرجين ، وهو في الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام .

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك في هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته ؛ فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ، ولكني قلت : إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذي عاش فيه ، وإن العصر كان يمتاز بالشك والمجون وإيثار اللذة ، وقلت في حديث آخر ، إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعدا ، هي أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا ، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ، ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة والتوبة.

قلت هذا كله ، وأريد في هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جدا ، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجنا ، مجاهرا بالمجون ، مستمتعا باللذة ، لا يخشى في ذلك سخط الأمراء ، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء واحد ، هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعا ، فلما مرض وعلم أنه ميت ، أنفق مرضه يتوب وينيب ، ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة في المنام أن الله قد غفر له ، وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد في حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه ، وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر إلى الذين روى عنهم أبو نواس ، وانظر إلى الذين روى عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم — فيما ذكر ابن عساكر — فهم : حماد بن حماد ، وحماد ابن يزيد ، وعبد الواحد بن زياد ، ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر ابن سعد السمان ، وأما الذين روى عنه فهم — فيما ذكر ابن عساكر أيضا — محمد بن إبراهيم ، وابن كثير الصيرفي ، وعبيد الله بن محمد العبسي ، ومحمد ابن جعفر غندر ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريني ، وعمرو بن بحر الجاحظ ،

ويعقوب بن زيد الفارسي ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وجماعة سواهم .
 فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، فارجع إلى طبقات
 الفقهاء والمحدثين ، وستشوق بأن شاعرنا لم يكن رجلاً ما ، وإنما كان رجلاً
 يقدره أهل عصره ، ويكبرونه في كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل
 اللغة يقولون : إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون : إنه أرق
 الناس أدباً وأحسنهم شعراً ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه ،
 وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء
 والمحدثون لا يأنفون أن يتحدثوا عنه ، وأن يتحدثوا عنه ، ولو روي لنا لك الأدلة على
 هذا كله لأسرفنا في الإطالة .

ولكننا ننتقل من هذا إلى ذكر شيء من دعاية أبي نواس ومجونه ، مع
 الفقهاء والمحدثين والخلفاء .

تحدث ابن عائشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ، ومعنا
 أبو نواس ، فقال : ليسأل كل واحد منكم . ثم قال : سل يا فتى ؛ فأنشأ أبو نواس
 يقول :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ
 عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
 قَالَ : مَنْ مَاتَ مُجِبًّا فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد ، فقال اعزب عني يا خبيث ! والله
 لا حدثتك بشيء وأنا أعرفك ، فقام أبو نواس ، وقال : والله لا أتيت مجلسك
 وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث !
 وتحدث محمد بن جعفر قال : لقي شيبه أبا نواس ، فقال له : يا حسن ،
 حدثنا عن ظرفك فقال :

حَدَّثَنَا الْخَفَّافُ عَنْ وَائِلٍ وَخَالِدُ الْحَذَاءِ عَنْ جَابِرِ
 عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرٍ
 قَالُوا جَمِيعاً : أَيُّهَا طِفْلَةُ عَلَّقَهَا ذُو خُلُقٍ طَاهِرٍ

فَوَاصِلَتُهُ ثُمَّ دَامَتْ لَهُ عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الذَّاكِرِ
كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةً تَرْتَعُ فِي مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ
وَأَيُّ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقًا بَعْدَ وَصَالٍ دَائِمٍ نَاضِرِ
فَفِي عَذَابِ اللَّهِ بُعْدًا لَهُ نَعَمْ وَنُحْقٍ دَائِمٍ دَاحِرِ
فَقَالَ لَهُ شَيْبَةُ : إِنَّكَ لِحَمِيلِ الْأَخْلَاقِ !

فَمَا رَأَى سَادَتَنَا الْمُتَحَرِّجِينَ ؟

وتحدثت سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي - وكان
واعظاً - يبكي بكاء شديداً ، فقلت : إني لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا
البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لَمْ أَبْكُ فِي مَجْلِسِ مَنْصُورٍ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
وَلَا مِنْ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ وَلَا مِنَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ
لَكِنْ بُكَائِي لِبُكَاءِ شَادِنٍ تَقْيِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورٍ
ثُمَّ قَالَ : أَمَا تَرَى الْأَمْرَدَ الَّذِي عَنْ يَمِينِ أَيْبِكَ ! إِنَّمَا بَكَيْتَ رَحْمَةً
لِبُكَائِهِ !

وتحدث ابن الزيات ، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدهميس ،
قال : كان أبو نواس يزورني في الكوفة ، فيأتي بيت خمار بالحيرة ، يقال له جابر ،
وكان نظيف الثوب ، يعتق الشراب ، فيكون عنده ما يأتي عليه سنون ،
قال فرأى في يده يوماً شيئاً عجيباً ، في نهاية الحسن ، وطيب الرائحة ، فقال لي :
يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهم في صدر . قال : وكان معجباً بضرب
الطنبور ، فكان إذا جاءني جمعت له ضراباً الطنابير ، ومعدنهم الكوفة ،
فكان يسكر في الليلة سكرات ، قال : فجاءني مرة من داره ، فقال : قد
حدث أمر ، قلت ما هو ؟ قال : نهاني أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ،
وأنشدني :

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيمًا
القصيدة . . .

فقلت ما تريد أن تفعل؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها ،
فأتيناها بنبيذ ، وجلسنا في منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول ،
وأذكر قوله لى :

خَفِيتُ عَلَيْكَ مَحَاسِنُ الْخَمْرِ أَمْ غَيَّرْتَكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
فَصَرَفْتَ وَجْهَكَ عَنْ مُعْتَقَةٍ تَفْتَرُ عَنْ خُلُقٍ مِنَ الْبَشْرِ
وَنَسِيتَ قَوْلَكَ حِينَ تَعْرِجُهَا فَتُرِيكَ مِثْلَ كَوَاكِبِ النَّسْرِ
لَا تَحْسِبَنَّ عُقَارَ خَابِيَةٍ وَالْهَمَّ يَجْتَمِعَانِ فِي صَدْرِ

فأخذ يسبّ الأمين في كلام لا نرويه . وشرب الخمر ، ثم شخص إلى
محمد ؛ فقال له : أين كنت ؟ قال : عند صديقي الكوفي ، وحدثه الحديث ،
قال فقال لى : ما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال : شربتها يا أمير المؤمنين ،
قال : أحسنت وأجملت ! ثم قال : اشخص حتى تحمل إلى صديقك هذا ،
قال : فشخص فحملني إليه فلم أزل مع محمد حتى قتل .

ولكننا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ، ونخشى أن نكون قد أثقلنا على
المتحرجين ، فلنرو لهم شعراً لأبي نواس ملؤه البر والتقوى ، فيه والزهد
والموعظة .

نقل عن عبدوس رواية أبي نواس أنه قال : دخلت على أبي نواس
الحسن بن هاني ، في علقته التي مات فيها ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس؟
فقال أجدنى قائلاً :

مُبِحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْدَ قَ مِنْ ضَعِيفٍ مِهِينٍ
يَسُوقُهُ مِنْ قَرَارٍ إِلَى قَرَارٍ مَكِينٍ
يَحُولُ شَيْئاً فَشَيْئاً فِي الْحُجْبِ دُونَ الْعُيُونِ
حَتَّى اسْتَوَتْ حَرَكَاتُ مَخْلُوقَةٍ مِنْ سُكُونِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان من غد دخلت عليه ،
فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلاً :

وَعَظَّمْتَ أَجْدَاثُ صُمْتُ وَنَعْتِكَ أَزْمِنَةُ خُفْتُ
وَتَكَلَّمْتَ عَنْ أَوْجُهُ تَبَلَّى وَعَنْ صُورٍ سُتْتُ
وَأَرْتِكَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
وَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشَّهَاتُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمْتُ

ثم أطرق فتركته ، فلما كان في اليوم الثالث دخلت عليه ، فقلت له :
كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

يَا نُوَاسِيُ تَفَكَّرْ وَتَعَزَّزْ وَتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ وَبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفِ وَاللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
أَكْثَرُ الْعِصْيَانِ فِي أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَضَعُ

فلما كان في اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك
يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

كُنْ مَعَ اللَّهِ يَكُنْ لَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ لَعَلَّكَ
لَا تَكُنْ إِلَّا مُعِدًّا لِلْمَنَابِإِ فَكَأَنَّكَ
إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْمًا وَاقِمْ دُونَكَ أَوْ بِكَ
فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ وَبِتَقْوَاهِ تَمَسِّكَ
نَحْنُ نُمِسِي بَيْنَ أَسْبَابِ سُكُونٍ وَتَحَرُّكٍ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الخامس دخلت
عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

يَا نَاطِرًا يَرْنُو بِعَيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْسِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ
مَنْتَكَ نَفْسُكَ ضَلَّةً فَأَبْخَثَهَا طُرُقَ الْجِمَامِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُرَاصِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجَنَانِ بِهَا وَفَوْزَا الْعَابِدِ

وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم السادس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

دَبُّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعَلَوًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوًا
لَيْسَ تَأْتِي مِنِّي سَاعَةٌ بِي إِلَّا تَقْتَضِينِي بِمِرْهَا بِي جُزْوًَا
ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نَضْوًا
قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ يَا رَبُّ فَصَفَحْنَا عَنَّا إِلَهِي وَعَفْوًا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدني قائلاً :

إِنِّي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ صَفَدٍ وَحَوَيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمِنْ لَبَدٍ
هِمَمٌ نَصَرَفَتْ الْخُطُوبُ بِهَا فَغَدَوْتُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ مُتَّهِمًا لَمْ تُمْسِ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ

ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل ، فلقيني الغلام في الطريق ومعه رقعة مختومة ، فسألته عنه ، فقال : أعظم الله أجرك في أبي نواس ، فقد تُوفِّي ، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته ، فقرأتها فإذا فيها :

شِعْرٌ حَيٌّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
لَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَأَبْصَرْتَ وَجْهِي لَمْ تَجِدْ مِنْ مِثَالِ رَسْمِي حَرْفًا
نَفْسٌ خَافَتْ وَجِسْمٌ نَحِيلٌ أَرْمَضَتْهُ الْأَسْقَامُ حَتَّى نَعَفَى

فجئت معه إلى منزل أبي نواس ، فإذا به قد مات ، ونظرت فيما خلف ، فإذا مقدار ثلثمائة درهم ، وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر :

يَا رَبِّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

أَدْعُوكَ رَبُّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
 إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَمَنْ أَلَدِي يَرْجُو وَيَخْشَى الْمُجْرِمُ
 مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا . وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنَّى مُسْلِمٌ

قال : فوقفت حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت .

* * *

أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك ، ولكن هذه القصة التي روينها متكلفة من غير شك أيضاً ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت . ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله ، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي ، وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا . فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك ، فلنترك هذا كله ، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

أبو نواس - النقد في عصره - نقد
الفقهاء - نقد الأدباء - أشعر الشعراء .

زعمت لك في الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالا لعصره ، وأن
الذين عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله ، ويقدمونه على شعراء عصره
جميعاً لإبشار بن بُرْد ، وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم ، وأن أستوفي هذا الموضوع
حقه من البحث ، ويخيل إليّ أن بحثاً كهذا - على ما فيه من الرواية والنقد -
لن يخلو من فائدة ، وإن خلا من لذة ، أو بعبارة أصح ، وإن لم يحدث في
نفسك هذه اللذة التي يحدثها الشعر الماجن الظريف .

لن يخلو هذا البحث من فائدة ، لأنه سيظهر على ما كان للأدباء
والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى في هذا الشاعر ، الذي
اخترت شعره موضوعاً لهذه الأحاديث ، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس
جميعاً في نقد الشعر ، وفي فهمه ، وفي تصوره والحكم عليه .

وليس هذا بالشيء القليل ، ولقد أضطر إلى أن أستاذن رجال الأدب
القديم ، من المعاصرين ، في أن أكون جريئاً وحرّاً في هذا البحث ، وأرجو
ألا تغضبهم هذه الجرأة ، ولا تسوهم هذه الحرية ، وأؤكد لهم أنني لم أعمد
إليهما عمداً ، وإنما اضطررت إليهما اضطراراً ، اضطررتني إليهما بحث أعتقد
أنه صحيح ، وصدق في التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين .

إذن فأنا أستاذن أئمة الأدب ، وشيوخه المعاصرين في أن أكون حرّاً ،
وفي أن أكون جريئاً ، وفي أن أزعّم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده
من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة ، لم يكن لهم في النقد مذهب معروف ،
أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل : إنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب

(١) نشرت بالسياسة في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ - ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ م .

لا ترضينا ، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى في النقد خاصة ، وفي الأدب عامة .

ولست أدري أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء العصر العباسي أم لا . ولست أدري أكانت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد ، لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ، ولم تتغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي . ولكنني أستطيع أن أقول إن هذه المذاهب التي نجدتها منبثة في كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علماً ذا قواعد وأصول ، ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو تقنع أديباً ، وإنما نستطيع أن نقول إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلو من النقد الصحيح خلواً تاماً .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء :

الأول : أن تصل إلى شخصية الشاعر ، فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ، ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره ؟

الثاني : أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء ، وسيلة إلى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التي خضع لها هذا الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر ، فأنت لا تقصد إلى فهم الشاعر لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها .

ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعاً ، فأنت سواء شعرت بذلك أم لم تشعر به ، لا تقنع بالأشخاص ، وإنما تطمع في الجماعات ، لا ترضى بالجزئي ، وإنما تسمو إلى الكلي ، كما يقول أهل المنطق ، فأبو نواس وحده لا يعنك ، وإنما يعنك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش ، لا أقول مع فلان وفلان ، وقل مثل ذلك في شوقي ، وقل مثله في حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وإنما هو شاعر لأن قوله الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه ، يرضيهم ويقنع من نفوسهم موقع الإعجاب ، ولم يرضك البيت من الشعر إلا لأنه يوافق

هوى في نفسك، ويلا ثم عاطفة من عواطفك، ويرضى حاجة من حاجاتك إلى الجمال. إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولاً ، ثم جماعته أو عصره أو بيئته ، أو هذا كله ثانياً ، وهناك شيء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة : اللذة الفنية ، اللذة التي تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة ، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ؛ لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن في هذا شيئاً من التخرج ، أو إن فيه تضيقاً ومحاولة من هذه المحاولات ، التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ، ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هذا ، فإن لا أنتخرج ، ولا أضيق ، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولاً معينة ، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد ، وما يرى إليه الناقد ، ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكتهم ، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Sainte Beuve) ينبئك بأنه يعنى قبل كل شيء إذا قرأ قصيدة من الشعر ، أو فصلاً من النثر ، بأن يجد شخص الشاعر أو الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ، ويصل إلى دقائقه ودخائله ، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعي في معاملهم ، ولكن الشخص وحده لا يكفي ولا يعنيه ؛ وإنما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة إلى النوع ، يتخذ هذا الجزئي وسيلة إلى الكلي .

ثم سل « تين » (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر ، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه ، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي خضع لها ، والأمة التي نجم منها ، فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة .

ثم سل « جول لمتير » (Jules Lemaitre) ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذي يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر في النفس ، فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والإعجاب .

وفي الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين »

أو « جول لمر » أو غيرهم من النقاد ، وإنما يود لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله ، ويستخلص منه غرضاً شاملاً يطلبه ويسمو إليه حين ينقد ، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب ، وعصره ، وفنه .

ولست أريد أن أتعلم في تفصيل هذا كله ، فإن فصلاً من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وإنما أردت أن أنتهي بك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد ، لأنقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبي نواس إلى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جداً . . . نطلب نحن كثيراً ، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئاً قليلاً .

* * *

قلت في أول هذا الفصل ، إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة في النقد ، أو إن مذاهبيهم لم يكن من شأنها أن ترضينا ، وكلا القولين صحيح ، فلما لانعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهباً في النقد معروفاً ، أو خطة فيه واضحة . ومع ذلك فقد نقدوا ، وحكموا على الشعر والنثر ، فاستحسنوها وازدروها ، ولم تكن أحكامهم متفقة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وإنما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافاً كثيراً ، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذي غلب عليه مقياساً لنقده ، وميزاناً لرأيه ، في جودة الأثر الأدبي أو رداءته .

فالجيد عند أبي عبيدة ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي : ما اشتمل على الألفاظ الجزلة المتينة ، والأساليب الفخمة الرصينة ، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضر .

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو ، وعنوا بالمعاني عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، وربما تفوقها : ما اشتمل على المعنى الطريف في اللفظ المستعذب ، الذي لم يمعن في الغرابة ، ولم يسفل إلى لغة السوق .

والجيد عند الفقهاء والمحدثين : ما لاءم أصلاً من أصول الدين ، أو غرضاً

من أغراضه ، أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريراً على الفرزدق . ولما كُتِبَ بشار في ذلك قال : ليس ذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله إلخ . . . وروى مثل هذا في أمر أبي نواس ومسلم ، فقد كان الأدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلماً . وسئل البحتري عن ذلك ففضل أبا نواس ، فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاماً كالذي قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هذا المعنى تمثيلاً حسناً ما كان بين المأمون وابن الأعرابي . فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوي عن أجود ما قيل في الخمر ، فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ
فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك ، بل آثر قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُرِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصُّبْحِ فِي الظُّلَمِ
فَاهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

فانظر إلى هذين الذوقين المختلفين ، فأما المأمون فحضرى يؤثر المعنى الجيد في اللفظ السهل ، وأما ابن الأعرابي فمحب للغريب ، مؤثر للفظ الجزل .

وكان أبو عمرو الشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره . وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس ، ولا يكرهون منه إلا هذا الرفث والخجون ؛ ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ .

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجاباً لا حد له ، لا يصرفهم عنه أنه آثر السهل على الغريب ، أو الهزل على الجد ، وربما رغّبهم ذلك في شعره ، وحبب إليهم سيرته .

ولو أنى ذهبت أروى لك آراء هؤلاء العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، فى
أبي نواس ، لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة ، ولكنك تستطيع أن تصدقنى ،
وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين ،
لا يستثنون منهم إلا بشار بن بُرد .

ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين استحسنوا شعر
أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وإنما كان يعجب أحدهم
البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة ، فلا يأبى أن يقول إن أبا نواس
أشعر الناس ، فانظر إلى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لأنه قال :
يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِي مَا تَمُّرُ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَثْرَابِ
القصيدة . . .

وانظر إلى الأصمعى يفضل أبا نواس لأنه قال :

أَمَّا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الْحَمَلَا وَقَامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَا
وانظر إلى ابن الأعرابي ، الذى كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لقوله :
تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْشِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ بِرَانِي
فَلَوْ تُسْأَلُ الْأَيَّامُ مَا أَسْمَى لَمَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي
وانظر إلى أبي العتاهية والعتابي ، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على
الشعراء جميعاً لقوله :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي
وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعاً لقوله :

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَةِ تَطْحَنُ
ومضئ المبرد أبا نواس على المحدثين جميعاً ، لأنه شبّه ومدح فى أربعة
أبيات ، فقال :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ لِي الْكَبِيدُ الْحَرَّى فَيَسِرُ وَلَكَ الصَّبْرُ
وَقَدْ خَضَبَتْهَا عِبْرَةٌ فَلِدَمْعِهَا عَلَى خَدِّهَا خَدٌّ وَفِي نَحْرِهَا نَخْسِرُ

وَقَالَتْ إِلَى الْعَبَّاسِ؟ قُلْتُ فَمَنْ إِذَنْ وَمَالِي مِنَ الْعَبَّاسِ مَعْدَى وَلَا قَصْرُ
فَهَلْ يَكْلَفُنْ إِلَّا بِرَاحَتِهِ النَّدَى وَهَلْ يَزْهُونَ إِلَّا بِأَوْصَافِهِ الشُّعْرُ
وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس في هذه
اللحظة ، كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن
تعرف من شعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء ، لكان الناس جميعاً
أشعر الناس !

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضاً من أشعر الناس ؟ فيجب المشول
أشعرهم من قال ، ثم يروى بيتاً أعجبه ، ولا يمنعه ذلك أن يروى غداً بيتاً
آخر لشاعر آخر ، على أن هذا البيت أجمل الشعر ، وعلى أن هذا الشاعر أشعر الناس ،
وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة ، لأن لكل شاعر بيتاً جيداً
على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد في نفسها ،
ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها ، فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا
يجيبون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل .

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصري أنى نواس كانوا يقدمونه
ويدينون له بالزعامة ، وليس هذا الاقتناع عندي أثراً من آثار هذه الأحكام
التي رويت لك طرفاً منها ، وإنما هو أثر القراءة الطويلة في الكتب الكثيرة ،
وأثر الموازنة بين الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا في ذلك محقين ،
ولكنهم لم يقولوا ، ولعلهم لم يعلموا ، لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس ؟ فن الحق
أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار ، أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس
فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون في البيت
أو البيتين أو القصيدة ، وإنما في الديوان كله ، ومن الحق ألا يكون سبيلنا
في هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما ، إنما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى ،
وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره
من صلة أيضاً ، وهذا هو الذي سنبدأ به في الأسبوع الآتي .

إلى الأستاذ طه حسين^(١)

سيدي الأستاذ !

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية على أدب القدماء والمحدثين ،
أو «حديث الأربعة» ، وما يلفت النظر ، ويستدعي التمحيص والحذر في
ذلك الحديث ، حكمكم أن أبا نواس ومن في طبقة أو على شاكلته من الشعراء
كانوا مثالا صادقاً للعصر الذي عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك
والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر ، مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء
المجون ، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم ، واستنتجتم منها
ذلك الحكم الذي يحتاج إلى تمحيص كثير .

نعم ! إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة
لأول وهلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها
وقائلها ، وهم معروفون مشهورون في التاريخ ، لكن هذا وحده لا يكفي لمثل
ذلك الاستنتاج ، ولا تبنى عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع ، كتاريخ
الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء ، وأرى أن الأستاذ تعجل
في الحكم ، لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من شعره ، كأخبار صحيحة
لا غبار على نسبتها إليه ، وصدورها عنه ، وهذا لا يصح للمؤرخ الممحص
التسليم به ، والسكوت عليه .

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما في تاريخ الإسلام ، تشبه الدر الملقى بين
أشواك ، يحتاج مريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر
في وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً في مذاهب
الشك التي ذهب إليها الأستاذ ، وإنما يكفي أن ننبهه بما نقول — وهو العليم —
إلى ما عاناه رواة الحديث ، ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ - ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ .

وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، كانت تعمل للسياسة باسم الدين ، وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية ، وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، وانتساب إلى صاحب الشرع ، فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس !

نقرأ شيئاً في التاريخ وشيئاً في كتب القصاصين ، عما أنتجه النزاع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح ، في عصور الحقبة التي مرت على المسلمين ، نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية ، وأخباراً نسبها شيع آل عليّ إلى خلفاء بني العباس ، هي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت ، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أنزلهم إليها الوضعاء ، ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص ، واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق ، لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى ، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التي ينبغي أن يقال ، إن النزاع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة ، لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعها ،

شأن كل مؤرخ بحاث لا يلتقي الكلام على عواهنه ، ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المجونين ، هذا إذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء .

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر ، لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية ، أو سياسية ، أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية ، فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام ، والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ؛ إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم ، تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة . الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه ، بلا علم ينفع ، أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات ، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد ، فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات ، كفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح اليمن ، المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له . وكتاب قصة عترة العباسي وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكتابتها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك .

ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من

ضرورات الحياة ، لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس ، تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك . . . فكان منها الغث والسمين ومنها المملق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس في الشهوات ، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق ، لما فيها من العبث بالأخلاق ، والتجرد عن معنى الأدب ، الذي أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ، ينافي ما ينسب إليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظني مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ، ويتخذة دليلاً على حكمه على أهل ذلك العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهमत العامة إلى أمثال تلك القصص الخزية والروايات المملقة . على أنه لو صح شيء منه ، لما كان لنا أن نتخذة دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ؛ لأنه مجنون لا يجوز أن يتعدى الماजन مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون .

على أني أعتقد كما قلت إن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبي نواس وبشار ومن في طبقتهم محل للشك ، ولا سيما إذا صح أن شعر أبي نواس لم يجمع في كتاب (ديوان) على حدة في حياته ، وإنما جمعه رواية القصص وأخبار شعراء المجون ، وتناولوه بعد وفاته بزمان قريب أو بعيد ، ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها ، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذي قدمناه ، وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد في قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التي قال إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته في أيام متتابعة في التوبة والاستغفار ، تردد الأستاذ في صحتها: وقال إنها قصة متكلفة من غير شك ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته .

فالذي يجوز للأستاذ الشك في صحة هذه القصة يجوز الشك في صحة

أكثر القصص ، والروايات التي نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء
المجون ، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن
تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر ، وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً
لنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جدّ لا هزل ،
وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات
من السنين .

ولقد أحسن الأستاذ في مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك في قوله « إنه
لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً ، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة
واللذة » . فإن في قوله هذا دليلاً على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبء
الحمل الذي ألقاه على عاتقه ، وأن يستدرجنا ، ونعم ما فعل ، إلى الشك في
صحة تلك القصص المخزية ، وأنه إنما أوردتها للفكاهة ، ولا سيما بعد أن عزز ذلك
بقوله « إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلاً لا يؤبه له ، وإنما كان
ذا مكانة عالية ، وعالية جداً » ثم سرد عن تاريخ الحافظ بن عساكر أسماء من
رووا عن أبي نواس ، وروى عنهم أبو نواس .

ولا جرم أن المجاهرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ،
نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس
وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة ،
وأنه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر ،
وفوق كل ذي علم عليم .

رفيق العظم

رد على نقد^(١)

كيف تفهم التاريخ ؟ - المؤرخون في عصور
المجد - المؤرخون في عصور الانحطاط .

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذى نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه ، ثم حالت حوائل بينى وبين هذا الرد إلى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ؛ فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصلة فحسب ، وإنما يتناول مبدأ عاماً قبل كل شيء .

وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل فى هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأى فيه ، ولست أدرى أأطمع فى إقناع هذا العالم الجليل أم أياس منه ؟ لأن الخلاف بينه وبينى جوهرى جداً ، وشديد جداً ، يذهب مذهباً فى التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهباً آخر فى التاريخ وفهمه ، ويخيل إلى أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين فى الشرق ، يسبقون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى . تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينوهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلال الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما هى المكانة

(١) نشرت بالسياسة فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ - ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ .

التي خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ولست أغض من هؤلاء العلماء ، وإنما أجلبهم وأكرمهم ؛ وحسبك أن إمامهم في هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أني أجل ابن خلدون وأكبره ، ولكني أخالفهم في الرأي ، وأرى أن مذهبهم في التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير ، وأنه سيتغير بدون شك ، بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب — مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ — طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس ، لا بد من أن يمروا به ، وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب ، فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق بك العظم ، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب .

ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها صروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها ، وتنحط عن مكانتها العسالية ، فتخضع لحطوب الدهر حيناً ، وتنأم عن العزة والسلطان ، ثم استفاقت من هذا النوم ، وتنبت بعد الغفلة ، وطمحت إلى أن تسترد المجد القديم ، وتسنأنف سيرها في سبيل العلياء ، فأول شعور تجده في نفسها إنما هو الشعور بهذا المجد القديم ، والحاجة إلى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثلاً علياً .

فأنت لا تنظر إلى هؤلاء الناس نظراً علمياً مجرداً بريئاً ، وإنما تنظر إليهم نظراً متهماً ، ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنك تتأثرهم ، وتحتذى على مثالهم . وإذن فرأيك فيهم غير صحيح ، وحكمك لهم أو عليهم متهم ، وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذي لا حد له ، وبين النقد العلمي الذي

لا يعرف الهوى ، ولا يتأثر بالميل والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب ، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك إلى أن تبرئ موضع إعجابك من كل عيب ، وتدفع عنه كل مكروه ، وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد ، لتوجد فناً من النقد التاريخي له قيمته وخطره .

ولكن الغاية التي يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح . لأنه يسمو إلى التنزيه والتمجيد ، لا إلى التحقيق الذي لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم . والذي لا يحفل بحمد أو هجاء .

انظر إلى مقدمة ابن خلدون ، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة ، انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي ، وإلى هذا النقد الذي بسطه ليبين أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من أخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ، ويحبب إليك ، أو يحتم عليك ، تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين قيمة في النقد التاريخي ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون ، حتى يتورط في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل ، لأنه متأثر بمجد القدماء ، وصلاح القدماء ، وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين ، وفساد أخلاقهم وأحوالهم .

فهو إذا أراد مثلاً أن يصحح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى لم يعتمد إلى بحث تاريخي ، وإنما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف ، فيه أن الولد للفراش وللعاشر الحجر . وهو إذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والمجون ، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك ، وإنما تحدث إليك بأن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث ، ولا أن يلهو .

ولم يفكر ابن خلدون في أن من حق مؤرخ آخر ، أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين

الصلاة وبين العبث ، ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره ، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها إلى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة في العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبي التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ، لأنه اتهم قسما من اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالفساد ، وبعضهم بالجن ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب . وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطراً ، من أن يقعوا في مثل هذه الآثام .

وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص ، فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس وليس هذا بغريب ، فقد عاش « أبو التاريخ » في أيام مجده اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذي اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب ، وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان ، وانحطاطهم السياسي ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغة في مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا . . . ليس لنا مجد ولا مآثرة ؛ فنحن نتحل مجد الآباء . والأسلاف زينة لنا وافتخاراً . ونحيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يفض من الأسلاف وحدهم ، وإنما يفض منهم ومنا . أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة ؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور ، نخفي به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم ، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم ، بما يتصف به الناس من نقص لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ، ولا يؤذي العرب في أيامهم ، وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتاباً بعينه ، وإنما أقول في أى كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوى المكانة فيهم ، يوصفون بالخير والشر ، وبالرفعة والضعفة ، بما هو مشرف وبما هو مزر ، ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناساً لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الأخبار مختلفة متحلة ، وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلف منحول ، ولكنى لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منحول ، وأن كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح .

هذا إسراف ، وإسراف كثير ، وإنما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتحصيل ، فتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقاً ، وما كان منحولاً ، وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهاها الدين . لقد كان «أغسطس» و «نيبيروس» و «نيرون» كبار الكهنة في روما ، ولكنهم كانوا قياصرة أيضاً ، فكانوا يؤدون للدين حقه ، وكانوا يؤدون للدنيا حقها .

ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهراً لقوة المسيح في فرنسا ، ولكنهما كانا في الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين ، وثروة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان ، وكانا يعبثان ، وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها ، وكان هذا الوعظ يوجه إليهما عنيماً خيفاً كأنه الصواعق ، فيعجبان ويفزعان من سخط الله ، ثم ينصرفان إلى القصر فما هى إلا أن يتورطا في الموبقات .

ولا تقل كان هذان مسيحيان ، وكان قياصرة الرومان وثنيين ، وكان

خلفاؤنا مسلمين . فقد تختلف الديانات في جوهرها . ولكن الأثر الديني في نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف . فمن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون . كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين ، ولا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان ، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث ، فأنا أؤكد لك أن « أغسطس » لم يكن خاملاً ولا عاجزاً . وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلاً ولا مغرقاً في النوم .

وما رأيك في أن عصر الثورة الفرنسية ، وهو عصر هذا الجلد المفرزع الخفيف ، كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجوناً ، وكانت تجري فيه أنهار الدماء وأنهار الخمر !

وما رأيك في هذا العصر الذي نعيش فيه ؟ وما رأيك في الحرب الكبرى ، وما جرّت على أوروبا من هول ؟ أتظن أن الأوربيين انصرفوا إلى جد هذه الحرب وأخطارها ، عما في الحياة من عبث وهلو ؟ كلا ! لقد ازداد سلطان اللهو في أوروبا ، ولقد كان الجندى يقتل ويتعرض لألوان الهول ، حتى إذا ظفر باليوم أو الأيام بعيداً عن ساحة القتال ، اندفع في لذاته وشهواته اندفاعاً لم يكن يعرفه قبل الحرب . . . ماذا أقول ؟ لقد كانت تحمل إليهم اللذات في ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لاتمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجند ، وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجند فتروّعهم ، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت الراحة ، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب .

فلم يكن إذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات ، ولم يكن العسلم ليحول بينهم وبين ذلك ، فما كان حظهم من العلم ، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا ، ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ، ونحاول فهمه وتفسيره . خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون ، ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون . وهما : أن الناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنهم ، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

يجب أن نفهم هذين القانونين ، وأن نحسن الملاءمة بينهما . وأن نعرف فيم يختلف الناس ، وفيم يتشابهون ، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؟ ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة ، فيه جد وهزل ، وفيه شك ويقين .

وأنا أزعم — وأعتقد أني قادر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثاني للهجرة قد كان عصر لهُو ولعب ، وقد كان عصر شك ومجون ، وكل شيء يثبت صحة هذا الرأي ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بداءة إلى حضارة ، ومن سذاجة إلى تعقيد ، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة ، وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأهم مختلفة ، وشعوب متباينة ، منها البدوي والحضري ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغنى والفقير .

أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ إنك لا تستطيع أن تخرج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان ، أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي ، وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الأوربيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة ، فانظر إلى أثرها القوى العميق في حياتنا العامة والخاصة ، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوربيين كان من القوة والعمق مثل الاتصال بين العرب والفرس والروم ، لست أدري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت ، المتفقة وإن افرقت .

يجب أن تفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعاً متشابهون مهما تختلف
أزمنتهم وأمكنتهم . مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم إذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون ، وأزعم
أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأي . وحسبي أن ألفت الأستاذ
رفيق بك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد ، وختم بخلافة الأمين
ابن الرشيد ، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفين ، ثم ألفت الأستاذ إلى
بشار ، ومطيع ، وأبي نواس ، والرقاشي ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم
ابن الوليد ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ،
وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب
الكلام مخافة أن يغضب المتخرجون .

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعاً ، وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على
هذه القاعدة وهي أنهم ناس لا ملائكة . ولكني أخشى ألا يفعل الأستاذ
لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقديس القدماء ، وإنما
أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يحدّون ،
ويمزحون ، يحسنون ويسيثون ، وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما
مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الأسبوع الآتي عن الخمر
عند أبي نواس .

الحرمر قبل أبي نواس^(١)

الأعشى - عدى بن زيد العبادى -
المنخل الشكرى - عصر الخلفاء -
عصر الأمويين - الأخطل - الوليد بن يزيد.

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء ، ولا بالفخر ، ولا بالوصف ، ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه ، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محبة إليك وإلى في هذه الفنون نفسها ، كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره فى الحرمر ، وبافتنانه فى المحجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والغلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ، ولم يسبق إليها ، بل هو لم ينفرد بها فى عصره ، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء فى الجاهلية وفى الإسلام ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه إليها كثيرون ، ونافسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين فى الحرمر والغزل والمحجون .

ولو أننا نعنى فى هذه الأحاديث بالتعميق فى البحث العلمى ، لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمرىات أبي نواس أن ندرس مع شىء من التفصيل خمرىات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس ، وأن نجتهد فى أن نثبت المقدار الذى سبق إليه أبو نواس ، لنعرف ما اخترع وما استحدث ، وليكون حكمنا له أو عليه صحيحاً من كل وجه ، ولكنك تذكر أننا لا نزعم لهذه الأحاديث صفة البحث العلمى المستقصى ، لأن هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة ، ولا بالأحاديث التى تقرأ ، أو تسمع فى أى مكان وعلى أى حال ، دون أن يختصها القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر فى هذه الصحف من ضروب الكلام .

(١) نشرت بالسياسة فى ١٢ رجب سنة ١٣٤١ - ٢٨ فبراير ١٩٢٣ .

قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر في شعره ، فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلاً ، ومنهم من كان يلم بها إلاماً ، وكانوا يصفون الخمر وأقداحها وآنياتها المختلفة ، ولهم في ذلك الكلام الجيد الكثير ، لا سيما « الأعشى » الذي أكثر في الخمر وأطال ، واشتهر بأنه من وصافها المجيدين ، واستطاع ابن الأعرابي أن يزعم للمأمون أنه أشعر من وصف الخمر لقوله :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ
بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئاً ليس بالقليل ، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :
دَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ الدُّومَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِي بَالْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « ودأوني بالتي كانت هي الداء » وبين قول الأعشى :

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فليس من شك في أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف ، فإن قوله « دع عنك لومي فإن اللوم إغراء » ليس في شعر الأعشى ، وهو يكتفى لأن يحتفظ لأبي نواس بالبيت كله ، وقوله « ودأوني بالتي كانت هي الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ، لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ، فعناه ضيق محدود ، في حين قد مدّ أبو نواس هذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح لا حد له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازماً لمن يشربها ، وأصبحت هي لهذا الداء ، فهو يتداوى طول حياته من الخمر بالخمر . أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لا يذكر الداء والدواء إلا إذا شرب ، بينما أبو نواس لا يتفك يذكرهما ، لأنه لا يتفك في داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولكننا لا نعرض له ، لما قدمنا ،
وهناك شاعر آخر جاهلي ، يظهر أنه قد غنى بالخمير وأجاد فيها إجازة لا بأس
بها . وكان مسيحياً عاش قبل الإسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما
كان حاضراً أو كالحاضر ، وكان يعيش في هذا الإقليم الذي عاش فيه أبو نواس ،
وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التي ربما اختلف إليها أبو نواس بعده
بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد في معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان
يجيد في الخمر ، وكان يجيد في الزهد ، والنسك ، وضرب الأمثال ، وإطلاق
الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن
أبو العتاهية ، ويروى له غزل لا بأس به ، وهو « على بن زيد العبادي »
الذي عاش في الحيرة في أواخر العصر الجاهلي . لم يرو الرواة له كثيراً في الخمر ،
ولكن ما يروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفي وصفها مجيداً ، وانظر إلى
هذه الأبيات القليلة ، التي يختلف فيها الرواة اختلافاً كثيراً ، والتي كانت
تغنى للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّبِّ .	حِ بِقَوْلُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ	وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَذْرِي إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فِيهَا	أَعْدُو يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ
ثُمَّ ثَارُوا إِلَى الصُّبُوحِ فَقَامَتْ	قَيْنَةُ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
قَدَمَتُهُ عَلَى عُقَارِ كَعِينِ	لَدَيْكَ صَفَى سُلَافَهَا الرَّأْوُوقُ
مُرَّةٌ قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا	مُرَجَّتْ لَدَّ طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَاقِيْعُ كَالدُّ	رَّ صِغَارُ يُشِيرُهَا التَّصْفِيقُ

ففي هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة ، دون أن تخلو من رصانة
البدائة ، ولا بأس بهذا البيت الأخير الذي يوصف ما يبدو على الخمر حين
تمزج ، فيذكر على بعد بقول أبي نواس :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله :

ثُمَّ ثَارُوا إِلَى الصُّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر في الخمر وغير الخمر .
لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق في العصر
العباسي . وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقي . والبيئة العراقية
في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية . ولكن ما يروى
عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه ، وأحسب أن الحظ الموفور
منه - ولا سيما الزهد والحكم - قد نحل في العصر الإسلامي وأضيف إلى
هذا الشاعر ؛ لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلاً من الزهد ، فأضاف
المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيراً ، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف
مشهور .

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر ، وأجادوا فيها بعض الإجازة ، ولكن
وصفهم لم يكن عميقاً ، ولم يصطنع فيه التدقيق ، وإنما كانوا يقنعون بالظواهر
فيصفون لون الخمر ومظهرها ، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفاً مجملاً ،
ويصفون طعمها ، ويصفون ما تحدث من نشوة ، غير مبالغين في هذا الوصف
ولا مسرفين في البحث عن الدقائق ، بل إنما كانوا يقصدون ، حين يصفون
الخمر ، إلى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال ، فكثير جداً في ذلك العصر
ما يشبه قول عنترة :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وكثيراً جداً ما يشبه هذه الأبيات التي قالها « المنخل اليشكري » في
وجهتها ، وهي الفخر ، لا في معانيها . وهي من أبدع ما يروى عن الشعراء
الجاهليين ، ولكن لا تنس أن المنخل اليشكري شاعر من شعراء العراق أيضاً .
كان يعيش في الحيرة ، وينادم النعمان ، ويعاصر النابغة ، وهذه هي الأبيات :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخِدْرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
الْكَأْغِبِ الْحَسَنَاءِ تَرُّ قُلُوفُ الدَّمَقِ فِي الْحَرِيرِ

فَدَفَعْتُهَا فَتَبَدَّافَعَتْ مَشَى الْقَطَاةُ إِلَى الْغَدِيرِ
 فَلَشِمْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَّسَ الظُّبْيُ الْبَهِيرِ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَا مِ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيرِ
 فَإِذَا سَكِرْتُ فَلَانِنِي رَبُّ الْخَوَزْنَقِ وَالسَّيْرِ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَلَانِنِي رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَالْبَعِيرِ
 يَا هِنْدُ مَنْ لِيُتِمِّمَ يَا هِنْدُ لِلْعَانِي الْأَسِيرِ

فانظر إلى أول هذا الشعر ، كيف أحسن تصوير هذه الفتاة . وكيف ذكر يوم لهوه . ثم انظر إلى هذين البيتين ، أحدهما يشبه تدافع الفتاة بمشي القطاة إلى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها ، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها ، ثم انظر إليه كيف عرض للخمر ، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس ، وشرب منها بالقدح ، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر . وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها ، إلا إذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير .

وانظر إلى قول الآخر . من شعراء الجاهلية :

وَمُعْرِيسُ عَرَضِ الرَّدَى عَرَّسْتُهُ وَالصُّبْحُ سَاطِعٌ لَوْنِهِ لَمْ يَنْجَلِ
 فَأَتَيْتُ حَانُوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ مِنْ عَاتِقِ بِمِزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلِ
 صَهْبَاءُ صَافِيَةِ الْقَدَى أَغْلَى بِهَا يَسَرُّ كَرِيمُ الْخَيْمِ غَيْرُ مُبْخَلِ

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر ، ولكنهم لم يكونوا يمعنون في هذا الوصف إمعانهم في وصف الخيل والإبل ، وما إلى الخيل والإبل ، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعكفوا عليها ، ويعاشرها معاشرة متصلة . كما كانوا يعاشرن الإبل والشاة . وإنما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة ، يشرب فيها ويلهو . فإذا فرغ من شربه ولهوه تحدث بذلك مفاخرأ ، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفن ؛ فقد دخل وصف

الحمير والإلام بها في فن الفخر ، والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ، ومن العفة حين يدعو كل شيء إلى اطراح العفة إلى غير ذلك من هذه المعاني الشائقة ، التي تجدها عند الجاهليين جميعاً .

فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه . وجدت صفتين اثنتين : الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالحمير إلاماً ، ولا يلحون في وصفها ولا يكثر من منه ولا يدققون فيه ، وإنما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط . الثانية أنهم لم يتخذوا وصف الحمير فناً مستقلاً من فنون الشعر ، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون .

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الحمير في هذا العصر . ويصبح فناً قائماً بنفسه يقصد من حيث هو ، لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو إليه ، ولهذا اشتهر الأعشى ، وعدي بن زيد بإكثارهما في وصف الحمير ؛ لأن ذلك لم يكن شيئاً مألوفاً ، فلما جاء الإسلام سكنت الناس عن الحمير حيناً ، صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده ، هو الذي سكنت عن الحمير خوفاً وإشفاقاً ، وأن كثيراً من العرب ، البادين والمتحضرين ، كانوا لا يضمنون على أنفسهم باللهو ، يختلسونه اختلاساً ويسترقونه استراقاً ، وللرواة في ذلك أحاديث منها الصحيح ، ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرنى ولست أدري لمن هو ، ولكني أعلم أنه قيل أيام عمر رضي الله عنه ، وأنه موجه إليه وهو :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادُّمُنَا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

وقصة الوليد بن عقبة — عامل عثمان رضي الله عنه على الكوفة — شائعة معروفة ، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب . وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران ، فركع ثلاثاً ثم التفت إلى المصلين وقال « إن شتم زدناكم ! » ويروى الرواة أن عثمان أمر بجدته ؛ وأن علياً رضي الله عنه هو الذي ضربه ، والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فيزعمون أنه كان يحب الحمير ، ويعكف عليها ، وكأنه كلم في ذلك ، وذكر بآيات الله فقال كلاماً لا نرويه ! . .

وما كاد ينتهى عصر الخلفاء ، ويثبت سلطان بنى أمية ، حتى ضعف سلطان الدين ، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع ، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات ، وكثرت الغنائم ، وعظمت الثروة ، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشراف قريش ، إلى أن يقيموا فى الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير ، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسى خوفاً منهم أو عقاباً لهم ، فانصرفوا إلى اللهو ، وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيها وتغيرت الآية . . . فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت هؤلاء الناس جميعاً مجالس معروفة مشهورة ، كثر ذكرها فى كتب الأدب والتاريخ ، وكثرت حولها الأخبار والشائعات ، واضطر الخلفاء من بنى أمية إلى أن يظهروا فى بعض الأحيان ضررباً من القسوة ، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس ، وعذبوا بعضهم ثم نفوه ، وخبر الأحوص بن محمد الأنصارى معروف ، وخبر الخنثين فى المدينة معروف أيضاً ، وشعر عمر بن أبى ربيعة ، وأخبار الدلال ، أكثر وأشهر من أن نلح فى ذكرها .

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون . ولكمهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك فى الشعر إلا إماماً ، كانوا يحتشمون إشفاقاً ووقاراً ، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا ، ولا أن يخافوا ، بل كانوا يجهرون ببلداتهم ، وظهر فى ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بنى أمية ، ولسانهم الناطق بسياستهم ، المناضل عن حزبهم ، كان مسيحياً ، وكان كافماً بالخمير مشغوقاً بها ، حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال إنهم عذبوه وضربوه ، لأنه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين . أكثر الأخطل من الشرب ، وأكثر من وصف الخمر ، وأجاد فيه ، وجاهر بشربه ، ولهوه ، واستخدمه فى السياسة . فيروى أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنح ، فأنشده هذين البيتين .

إذا ما ندبى علنى ثم علنى ثلاث زجاجات لهن هدير

خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلِ نِيهَا كَانَنِي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ
 وكان زُفر بن الحارث جالساً مع عبد الملك على السرير ، وقد كان
 عادى بني أمية ، وكتفهم ضروباً من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم ، قربه
 عبد الملك وأخذ يحبه ، فاغتاظ لذلك الزعماء ، وأغروا به الأخطل ، فدخل على
 الخليفة في هذه الحال ، وأنشده البيتين ، ثم روى من شعر زفر هذين البيتين :
 أَرِنِي سِلَاحِي لَا أَبَالِكَ إِنِّي أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
 فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دَمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى خَزَايَاتُ الصُّدُورِ كَمَا هِيَا
 فيقال إن عبد الملك ضرب برجله في صدر زفر ، فألقاه على السرير ،
 وكاد يقتله .

ولسنا نريد أن نطيل في شعر الأخطل ووصفه للخمير ، فشعر الأخطل
 معروف ، وديوانه مطبوع ، ولكننا نستطيع أن نقول بالإجمال : إن الأخطل
 على إكثاره في وصف الخمر ، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من
 شعراء الجاهلية ؛ فهو أكثر في وصف الخمر ، ولكنه لم يخترع شيئاً كثيراً .
 ثم أخذ الزمن يتقدم ، وأخذ الناس يترفون ، وأخذ الاحتشام يقل ويضعف
 في الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة
 والمدينة إلى دمشق ، ولسنا نذكر يزيد بن معاوية ، فقد كان الإنكار عليه
 شديداً ، وكان يخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريباً ،
 وحرصهم عليه لم يزل قوياً ، بل لا نذكر أبناء عبد الملك ؛ فقد كانوا يحتاطون
 في اللهو ، ويتسترون .

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهي ، حتى كان الجيل قد تغير ،
 والعهد قد تبدل ، وحتى كان الاختلاط بين العرب ، والفرس ، وهذه الأمم
 الكثيرة المتباينة في الشأم ، قد عمل عمله ، وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ؛
 ومن أعظمها وأشدّها خطراً ، المجون ، وحب اللهو ، وحرية الفكر والسيرة ، ولقد أشرنا
 في الحديث الماضي إلى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا
 يكفى أن يكون هذا القرن قد بدئ بالوليد بن يزيد ، وختم بالأمين بن الرشيد .

ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد ، وعما سلك من طرق الهزل ، وما ابتدع من ألوان المجون ، حين كان ولياً للعهد ، وحين كان أميراً للمؤمنين ، ولسنا نود ذلك حباً فيه ، أو كلفاً به ، بل لأن الوليد بن يزيد أثراً قوياً جداً عرفه المتقدمون أنفسهم في شعر أبي نواس ، فإن صاحب الأغاني مثلاً يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيراً عن الوليد في الحمز ، ويختص منهم أبا نواس ؛ لأنه أكثر الانتفاع بشعر الوليد .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فقد كان الوليد سيئ الحظ في حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره ، فعدا عليه الشعراء ، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة ؛ كان الوليد سيئ الحظ ، فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ، ويضع ابنه مكانه ، فكان لذلك يضطهده ، ويضطهد أوليائه . فلما مات هشام واستخلف الوليد ، لم يطل عهده بالخلافة ، وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه ! .

وليس يعني أن يكون الوليد ظالماً أو مظلوماً ، وليس يعني أن نحكم في أمر الوليد من جهة الدين والسياسة ، وإنما الذي يعني الآن ، هو أن نقول : إن الوليد كان شاعراً مجيداً ، وماجناً ماهراً في المجون ، مفطوراً عليه ، وإنه هو الذي فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سيئ الحظ ؛ لأن شعره ضاع ولم يحفظ ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء ، فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تم به أخباره في الأغاني .

نقول : إن الوليد هو الذي فتح للشعراء باب المجون ، ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط ، حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه ، فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهداً في حياته أيام عمه هشام ، وأنه اضطهد بعد موته ، ولا سيما أيام بني العباس ، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسيين قد أضافوا إليه من الشعر والحوادث ما لم يقل ، ولم يعمل ، وإذن فيجب الاقتصاد ، والحذر ، عند قراءة ما يضاف إليه ، ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك في أن الوليد كان ماجناً خليعاً ، وكان مسرفاً في الخلاعة والمجون .

ولم يكن إسرافه في الخلاعة والمجون أثراً من آثار اللذة ، والكلف بها

فحسب . وإنما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين ، وفساد العقيدة في نفسه ، كان أثراً من آثار البدع الجديد ، الذي نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة ، فأحدث اليك والإلحاد في نفوس نفر منهم غير قليل ؛ فلم يكن مؤمناً بالبعث ، ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدي فرائضه الدينية ، فيصلي ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون ، ولأنه كان ولياً لعهد الناس ، أو خليفة على الناس ، وانظر إلى هذه الآيات :

أَدِرِ الْكَأْسَ يَمِيناً لَا تُدِرْهَا لِيَسَارِ
إِسْقِ هَذَا ثُمَّ هَذَا صَاحِبَ الْعُودِ النَّصَارِ
مِنْ كُمَيْتٍ عَتَقُوهَا مُنْذُ دَهْرٍ فِي جِرَارِ
خَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِي وَكَافُورٍ وَقَارِ
فَلَقَدْ أَتَقَنْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ

وَذَرُوا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى لِنَبَارِ

في هذا الشعر شيء من روح أبي نواس ، ولكنه لم يبلغ من الصقل ، وصفاء الأديم ، ما بلغه أبو نواس ، والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب ، وإذن فليستمتع باللذات ، وليدع الاتقياء يشقون بخيال الجنة الذي يسعون إليه ، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس ، وما يسعون إليه من نعيم ، حق أو باطل ، وإنما يريد أن يروضهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء ، والعبث بكل شيء ، سواء في ذلك الدين والحلق والعادة .

ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة ، فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء ، وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقيني ، فأقبلت جوار ، فقمن بينه وبين الراوى ، فسقينه ، وأخذ يقول : اسقيني ، وأخذ الجوارى يسقينه ، حتى أقبل الفجر ، قال الراوى : فأحصيت له سبعين قدحاً .

ومثل هذا كثير في أخبار الوليد ، والناس يرونه أنه سكر يوماً ، فأمر جارية له ، فصلت بالناس ، ولم يكن الوليد مغرقاً ، ولا مندفعاً في اللذات اندفاعاً غير منظم ، لم يكن سكيراً معربداً ، وإنما كان في قلبه مكان للحب ، وللحب القوى المتين ، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ، وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء ، فلما ولي الخلافة وصل إلى ما أراد ، ولكن سلمى لم تقم عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد ، ورثاها بالشئ الكثير ، وأكثر ما قال الوليد في سلمى غُنِّيَ فيه ، وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها ، فإذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية ، فاقراً هذا الشعر في الأغاني ، ولكني أروى لك أبياتاً له في الخمر لا تشك ، حين تقرأها في أنك تقرأ أبا نواس :

إِصْدَعْ نَجِيَّ الْهُمُومِ بِالطَّرَبِ .	وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ .
وَأَسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ	لَا تَقِفْ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةِ زَانِهَا تَقَادُمُهَا	فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحِقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلَوْنِهَا	مِنْ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقٌ جَوْهَرُهَا	حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بِغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرِّ	وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ	تَذْكُو ضِيَاءَ فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ
فِي فِتْنَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَهْ	لِ الْمَجْدِ وَالْمَأْثُرَاتِ وَالْحَسَبِ
مَا فِي الْوَرَى مِثْلُهُمْ وَلَا بِهِمْ	مِثْلِي وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبِي

فانظر إلى هذا الشعر الجيد السهل ، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بدیع

نیم عن حضارة وترف .

فَهِيَ بِغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرِّ وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ

ثم ألت تحس في هذا الشعر كله ، رقة أبي نواس ، وخفة روحه ! ومع هذا ، فالوليد محتفظ بالسنة القديمة ، يتخذ الحمر وسيلة إلى الفخر ...

لم يكد يبتدىء القرن الثاني إذن حتى ظهر المجون ، وانتشر ، ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فتم انتصار الفرس على العرب ، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، وأصبح الأدب عراقياً ، لا شامياً ولا بدوياً ، أى أصبح خاضعاً من كذب ، لتأثير الفرس ، وحضارة الفرس .

فتم انتصار العبث والمجون ، وتمت استحالة الطبع العربي ، وانقطع - أو كاد ينقطع - العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الأموي ، وأقبل أبو نواس وأصحاب أبي نواس ، فوجدوا سنة موروثة وطريقاً ممهدة ، فأحيوا السنة ، وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد ، فلم يضيعوا الميراث ، ولم يفسدوه . وإنما تَمَّوْهُ ورَقَّوْهُ ، وكان هذا الشعر العباسي الذي نزع من أن أبانواس يمثله ، والذي سنحدثك عنه في الأسبوع الآتي .

الخممر عىء أبى نواس^(١)

سحر الشعر - إءمان الخممر - وعبادتها - المذهب
السياسى - تفضيل الفرس على العرب .

رأيت فى الأسبوع الماضى أن الخممر قد وصفت قبل أبى نواس بنحو
قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها ، وأن الوليد
ابن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخممر وسيلة إلى إعلان المحبون فيما نعلم ،
وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره . فأحسنوا وأجادوا ، ولكن أبا نواس
هو زعيم هذا الفن كما قلنا .

والناس مجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبى نواس
فى وصف الخممر ، والافتنان فيها ، ولقد كان بعض الرواة يغفلون فى ذلك ،
فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخممر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجرا إليها ، ولعكفا
عليها (يريد الحسن البصرى وابن سيرين) ولسنا ندرى إلى أى حد
تصح هذه الرواية ، ولكننا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخممر إحساناً
لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه ، ونعلم أيضاً أن هذه الأوصاف التى نستحسنها
ونستعذبها ، ليست من الجودة أو الحسن بحيث نرغبنا فى الخممر ، أو تحملنا
على أن نهاجر إليها ، ونعكف عليها ، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ،
فتزعم أن كثيراً من هذا الإحسان ، وهذه الإجابة قد يمر بنا دون أن نلاحظه
أو نلتفت إليه ، إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذى عاش فيه أبو نواس ،
وتبيننا ذوق أهله ، وما كانوا يحبون ويكرهون ، ففى هذا الإحسان والإجابة
شئ كثير إضافى ، أى أنه إحسان وإجابة بالقياس إلى العصر الذى قيل فيه ،
وللى الناس الذين سمعوه ؛ فإذا تغير الزمان واستحال الذوق . فليس بالإحسان
ولا بالإجابة ، وربما كان أدنى إلى الثروة ولغو الكلام ، ولهذا الملاحظة خطرهما ؛
فهى تدل على شيئين قيمين .

(١) نشرت بالسياسة فى ١٩ رجب سنة ١٣٤١ - ٧ مارس سنة ١٩٢٣ .

أحدهما : أن الحكم على شعر القدماء — ولا سيما الشعر الغنائي — لا ينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغي أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذي عاش فيه الشاعر ؛ فإن الشعر الغنائي بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر قومه وما كانوا يشعرون به ، وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب ، ويكلفون بما لا نكلف به ، ويميلون إلى ما لا نميل إليه ، فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لا نستعذب ، وأن يُفْتَنُوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترئين .

والآخر : أن قليلاً جداً من هذا الشعر الغنائي ما يبقى على الدهر ، ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلاً جداً من الشعراء المغنين من يظفرون بإعجاب الجيل الذي يعيشون فيه ، والأجيال التي تليه ، فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه ، وقدرته على وصف العواطف ، التي تهز قلوب الناس من حيث هم ناس ، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثاني أو الرابع عشر للهجرة .

ولأبي نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سنرى فيما نعرض له من شعره ، ولكن لأبي نواس شعراً كثيراً عجب به الناس في عصره ولا نحفل به نحن الآن ، وهذا الشعر كثير في الخمر ، وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال ، التي قالها أبو نواس وغير أبي نواس في قدم الخمر وتعتيقها ، وأنها قد شهدت عصر نوح ، ثم عاد وثمود ، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين ، إلى آخر ما هناك ، مما هو كثير بمثل شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا إعجاباً إضافياً ، لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه ، ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذي يصف الشعراء فيه بحمهم عن الخمر ، وارتيادهم إياها ، ومغالاتهم في ثمنها ، فيشبهونها بالعدراء تخطب إلى أيها الدهقان ، ويغالي هذا الدهقان في مهرها ، ويتمنع في تزويجها من شاريها ؛ لأنه يريد أن يتخذ لها الأكفياء ، ومن ذلك أيضاً الإكثار في وصف طعم الخمر وريحها ، وأنها تقطب الحبين ، وتزيل

الزكام ، إلى آخر ما هنالك مما لا نحفل به الآن ، ثم هذا الكلام الكثير في أن الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وإنما عتقت وتخمرت في جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار ، وقد نقرأ الشعر الذي يتناول هذه المعاني فنعجب به لأن لفظه جيد ، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا ، وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئاً من الإحالة والبعد عن معقول الناس .

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ، ونلأثم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا ، لم نجد شيئاً . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يحتذون القدماء ، ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ، ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى إذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئاً ، أو وجدنا ما لا يروق ، فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به :

يَا غُلَامُ الْمُدَامَ وَالْكَاسَ وَالطَّا سَ وَهَيَّ لَنَا مَكَانًا - كَأُمِّسِ
واسقنا يا غلام حتى ترانا لا نطبق الكلام إلا بهمس
خَمْرَةً قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوَهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ
فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؟ وكيف لا تفتنك خدود الملاح في يوم عرس ؟ ولكن تكلف أن تتبين هذه الخمر التي تعصر من خدود الملاح ، وحدثني أتستطيع أن تشربها ، أو تستطيع أن تنظر إليها دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل ؟ إذن فينبغي أن نحاط ونقتصد في الإعجاب بالشعر عامة ، وبشعر القدماء خاصة ، فإن سحر الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التي لم يكن منها بد ، نستطيع أن نعرض لوصف الخمر في شعر أبي نواس ، وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التي نستطيع أن نعتبرها مقياساً لذوق الشعراء في ذلك العصر ، وللموضوعات التي كانوا يلمون بها ، ويقصدون إليها ، وهي :

يَا خَاطِبَ الْقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ يَمَهْرُهَا بِالرُّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلْدَهُ ذَهَبًا

قَصُرَتْ بِالرَّاحِ فَاحْذَرُ أَنْ تُسَمِّعَهَا .
 إِنِّي بَذَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
 فَاسْتَوْحَشْتُ وَبَكَتْ فِي الدُّنْ قَائِلَةً
 فَقُلْتُ لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا
 قَالَتْ فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا ؟ فَقُلْتُ أَنَا
 قَالَتْ لِقَاحِي ؟ فَقُلْتُ الدَّلِجُ أَبْرَدُهُ
 قُلْتُ الْقَنَانِي وَالْأَقْدَاحُ وَلَدَهَا
 لَا تُمَكِّنَنِي مِنَ الْعَرَبِيِّدِ يَشْرِبُنِي
 وَلَا الْمَجُوسِ فَإِنَّ النَّارَ رَبُّهُمْ
 وَلَا السُّفَالِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا
 وَلَا الْأَرَاذِلِ إِلَّا مَنْ يُوقِرُنِي
 يَا قَهْوَةً حُرِمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ

فَيَخْلِفُ الْكَرْمُ إِلَّا يَحْمِلُ الْعِنَبَا
 صَاعًا مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا تُقْبَا
 يَا أُمَّ وَيَحْكُ ! أَخَشَى النَّارَ وَاللَّهَبَا
 قَالَتْ وَلَا الشَّمْسُ ؟ قُلْتُ الْحَرُّ قَدْ ذَهَبَا
 قَالَتْ فَبِعَلِي ؟ قُلْتُ الْمَاءُ إِنْ عَذَبَا
 قَالَتْ فَبَيْتِي ؟ فَمَا أَسْتَحْسِنُ الْخَشَبَا
 فِرْعَوْنُ قَالَتْ لَقَدْ هَيَّجْتَ لِي طَرَبَا
 وَلَا اللَّيْمُ الَّذِي إِنْ شَمْنِي قَطَبَا
 وَلَا الْيَهُودِ وَلَا مَنْ يَعْْبُدُ الصُّلْبَا
 غِرَّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدْبَا
 مِنَ السُّقَاةِ وَلَكِنْ أَسْقِنِي الْعَرَبَا
 أَتَرَى فَاثْلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنَّشَبَا

فانظر إلى هذه القصيدة ، فلن نجد فيها معنى يخلبك ، أو شيئاً يستهويك ،
 ومع ذلك ، فأستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعاني ،
 ويستعذبون الشعر الذي ترد فيه ، وكانوا يحبون هذا التشبيه « تشبيه الخمر
 بالعروس تخطب ويغالي في مهرها » وكانوا يحبون هذا الحوار يجري بين
 الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التي تقص عن
 الخمر من ليس لشربها أهلاً ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت
 الأخير الذي يحل الخمر للغي يتلف ثروته فيها ، أما نحن فلعلنا لا نحب من
 هذا كله شيئاً . ولعلنا نقرأ هذه القصيدة ، فلا نجد فيها ما يستخف ، ولا
 ما يرغب في الخمر . . .

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حباً ربما كان أشبه بالدين ، كان
 يعبدها ويقدها تقديساً ، فانظر إلى هذه الأبيات ، ولست أشك في أنك

ستستحسنها ، وتعجب بها الإعجاب الكثير ، وتشعر بأنها ليست مدحاً للخمر ، وإنما هي صلاة إلى الخمر :

أَتْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِآلَائِهَا وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا
لَا تَجْعَلِ الْمَاءَ لَهَا قَاهِرًا وَلَا تُسَلِّطْهَا عَلَى مَائِهَا
كَرْخِيَّةٌ قَدْ عَتَّقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا
دَارَتْ فَأَخِيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نَفُوسَ حَرَاهَا وَأَنْصَائِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعَشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَائِهَا

فانظر إلى هذا البيت :

أَتْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِآلَائِهَا وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا

أليس الشطر الأول منه تسييحاً للخمر ؟ ! أليس الشطر الثاني منه تقديساً للخمر ؟ أليس في هذا البيت على سهولته وبراءته من ألفاظ المجون أشد ألوان المجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؟ أليس يذكرك القرآن ؟ أليس يذكرك قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ . ثم انظر ما جاء بعد هذا البيت ، انظر إلى سهولة اللفظ ، وخلوه من التكلف ، انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثراً ، وانظر إلى دقة هذا المعنى الذى قد لا يعجبك في نفسه ، ولكنه على هذا جميل دقيق ، يمثل عقل أبي نواس ، واصطبأه بالضبعة الفلسفية التي كانت عامة في عصره :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عَتَّقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا

فهذه الدقة لا تسهويك ولا ترغبيك في الخمر ، ولا تتزع بك إلى حب الشراب ، ولكنها في نفسها جميلة محببة . وانظر إلى استئناف الثناء على الخمر ، في لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع :

دَارَتْ فَأَخِيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نُفُوسَ حَرَاهَا وَأَنْصَانِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرُ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَانِهَا

فقد رأيت في هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت في الأولى معاني لا تعجبك ولا تروقك ، وكانت تعجب القدماء وتروقهم ، ورأيت في الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحت عليها ، وإنما هي جميلة لنفسها ؛ لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته ، وحسن غوصه على المعاني ، وهي تعجبك كما كانت تعجب المتقسين .

وانظر إلى هذه الأبيات التي تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء ؛ لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء في وصفه :

كَمْ مُتَرَفِّعَ عَقْلَ الْحَيَاءِ لِسَانُهُ فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيمَاءِ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرَى فِي عَيْنِهِ قَدْ عَقَلَ الْجَفْنَيْنِ بِالْإِغْفَاءِ
حَرَكَتُهُ بِيَدِي وَقُلْتُ لَهُ انْتَبِهْ يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ وَالنُّدَمَاءِ
حَتَّى أَزِيحَ الْهَمَّ عَنْكَ بِشَرْبَةِ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلِيَاءِ
فَأَجَابَنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظُّلَمَاءِ
إِنِّي لَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا رَدَّ التَّعَا فِي سُورَةِ الصَّهْبَاءِ

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب إذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء ، ولكن انظر إلى هذا البيت بنوع خاص :

فَأَجَابَنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظُّلَمَاءِ

كان أبو نواس إذا عجب الخمر ويدمن شربها ، فيشربها إذا أمسى ، ويشربها إذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه . وربما عكف عليها الأسبوع كله ، لا ينصرف عنها إلا حين يثقله النوم ، كما ترى ذلك في قصيدته التي مطلعها :

يَا طَيِّبَنَا بِقُصُورِ الْقَفْصِ مُشْرِقَةً فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطْرُدُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذي كان ينادمه ويساقيه ، واتخذ أنصار المأمون في خراسان هذا سلاحاً يحاربون به الأمين ، فكان ينشد مجون أبي نواس في المسجد الجامع عند الصلاة ، ويلعن من قاله ، ومن أحبه ، وكان هذا قد وصل إلى الأمين في بغداد فأشفق منه ، وأراد أن يحتاط ويصطنع الوقار ، فنهى أبا نواس عن شرب الخمر ، وأظهر أبو نواس الطاعة ، ولكن ذلك شق عليه ، فقال فيه شعراً كثيراً جداً ، منه هذه الأبيات :

أَعَاذِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجْزَاهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
فَجَوَزَهَا عَنِّي سُلَافاً تَرَى لَهَا إِلَى الْأَفُقِ الْأَعْلَى شُعَاعاً مُطَنَّبَا
إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلَتُهُ يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكَبَا

وقال هذه القصيدة الأخرى التي تبين مقدار ما يعاني من الألم والحزن لاطاعة الأمين :

أَيْهَا الرَّائِحَانِ بِاللُّؤْمِ لُؤْمَا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيمَا
نَالَنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمَا
فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمَا
كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيمَا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعْدِي يُزِينُ التَّحْكِيمَا
كُلُّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِرِ فَأَوْصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يُقِيمَا

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الأخيرين على أنهما لا يخلوان من جمال ، فهو يشبه نفسه في وصفه للخمر وحثه الناس على شربها ، دون أن يستطيع لها مذاقاً ، بالخارجي الذي عجز عن الحرب ، فقعد وأخذ يحث الناس عليها . على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب . ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت ، وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل

ما كان من أمر صديقه الكوفي الذي ما زال به حتى حمّله على خلاف الأمين ، فشرب الخمر ، وسب زبيدة ، وعاد إلى الأمين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الأمين ، بل حمده ورضى عنه ، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفي ، فاتخذته نديماً ! . .

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئاً غير هذا الفسق والإغراق في المجون ، وهو أنه كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ؛ لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، وما ألفوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى بالإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف .

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة ، وذم طريقة القدماء .

ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه ، لكان من الحق أن نشك في أنه من اللهو والمجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والإسراف ، أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد ؟

على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكنا من أن نفهم بغض الناس له ، ونعيمهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً .

يذم القديم - لا لأنه قديم - بل لأنه قديم ، ولأنه عربي ، ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث ، ولأنه فارسي ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور .

ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية ، على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب ، ومهما يكن من شيء ، فالحمريات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد ، ودم المذهب القديم ، هي أجود ما يروى عن أبي نواس ولا بد من أن نلم بكل هذه القصائد ، لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد ، كما كان يتصوره أبو نواس ، ولكننا نرجئ هذا إلى الأسبوع الآتي ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع :

لا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ وَأَشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ
كَأَسَاءَ إِذَا أَنْحَدَرْتَ مِنْ حَلْقِ شَارِبِهَا أَجْدَتْهُ حُمَرَتُهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
فَالْخَمْرُ يَا قُوَّةَ وَالْكَأْسُ لَوْلُوءُ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَدِي

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه ، فخروا له سجداً ، فقال : فعلتموها ! أعجمية ! والله لا كلمتكم ثلاثاً وثلاثاً ، وثلاثاً ! ! ثم ندم ، وقال : تسعة أيام في هجر الإخوان كثير ! وربما كان أصحاب أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجاباً به .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره وأجوده ، وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات ، ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك ، دون أن تستطيع له تحديداً ؛ جمال في اللفظ وجمال في المعنى ، فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمتدلة ، ولا التي لا يفهما عامة الناس ، وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل ، بل هي معان مألوفة ، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها ، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ، ما كنت لتحسهما ، لولا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض ، انظر إلى قوله « واشرب على الورد من حمراء كالورد » وانظر إلى قوله :

فَالْخَمْرُ يَا قُوَّةً وَالْكَأْسُ لُؤْلُؤَةٌ فِي كَفٍّ جَارِيَةٍ مَمَشُوقَةٍ الْقَدُّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ قَمِيهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ،
هي التي تحدث في نفسك اللذة ، وتبعثها على الإعجاب . وانظر إلى هذا البيت
الأخير ، وإلى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضرياً ، فانياً في الحضارة ،
ومتراً مغرقاً في الترف ، يعبر عن حضارته وترفه ، بلفظ يكاد يصل إلى قلبك ،
دون أن تسمعه :

لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَدِي
ولست أدري لماذا لم أسمع هذا البيت مرة ، إلا وددت لو سمعته من فم
مغن يجيد الغناء ! .

الخممر عند أبي نواس^(١)

الشعر لسان الحياة - تجديد في الأساليب
والمعاني - صعوبة الاعتراف بالتطور -
المجون من مظاهر الحياة - الحنين إلى الفرس

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ؛ فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال ، كتبناه عن وصف الخممر في شعره ، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال ، كما هو شأن القارئ لما يكتب في صحيفة سيارة ، مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدباً أو غير السياسة والأدب ، وما إخالك إلا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن إلا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس .

فقد رأينا أن أبا نواس كان - بعد الوليد بن يزيد - أشد الشعراء عناية بالخممر وأكثرهم افتناناً فيها ، وأن الناس جميعاً شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء ، الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس محقون في هذا ، ولكننا رأينا أن معاني أبي نواس في الخممر - على أنها كثيرة مختلفة - يكاد ينالها الإحصاء ، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين :

القسم الأول ، هذه المعاني الكثيرة ، التي كانت تعجب القدماء ، وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا ، أولاً تفتتنا على أقل تقدير ، كتشبيه الخممر بالعدراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، وكالإسراف في وصف قدم الخممر وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان في وصف طعم الخممر وريحها .

القسم الثاني ، هذه المعاني التي أعجبت القدماء وفتنتهم ، وما زالت تعجبنا وتفتتنا ، لأنها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم ، وما زالت تلائم ذوقنا وحياتنا ، ولأنها حببت إلى القدماء شرب الخممر ، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب الخممر . وهذه المعاني قليلة في شعر أبي نواس ، قليلة في شعر غيره من الشعراء ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٤١ - ١١ يونيو سنة ١٩٢٣ .

قليلة في الحمريات قلتها في غير الحمريات ، ذلك لأن المعاني التي تتفق على استحسانها العصور المتباعدة ، والأجيال المتباينة ، قليلة بطبيعتها في كل فن من فنون الشعر والأدب .

ثم مثلنا في ذلك المقال لهذه المعاني وتلك ، وأشرنا إلى أن شعر أبي نواس في الحمر لم يكن هزلاً كله ، ولم يكن الغرض منه المحجون وحده ، أو الإسراف في وصف اللذات ، وإنما كان أبو نواس يتخذ الحمر وسيلة إلى شيء من الجدد ، له خطره في الأدب ، ووسيلة إلى شيء آخر من الجدد ، له خطره في غير الأدب .

كان أبو نواس إذن حين يصف الحمر ، أو حين يتغزل ، يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء المحيدون من وصف الحس والشعور ، وتمثيل العاطفة تمثيلاً صحيحاً ولكنه كان يقصد — مع هذا الشيء المشترك بينه وبين الشعراء — إلى شيئين آخرين ، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً ، لم ينهجه المتقدمون ، أو قل إنهم نهجوه ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهباً في الأدب ؛ كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن نهجه بالكتابة ، كان يريد أن يتخذ الشعر لساناً للحياة الحاضرة ، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء ، والذين يسمعون للشعراء ، كان يريد — بعبارة مجملة — أن يعدل عن أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها ، وفي تغني الإبل والشاء ، إلى وصف الحياة التي يحياها الشعراء والمستمعون لهم ، لإثارة للصدق وبعداً عن الكذب .

كان أبو نواس إذن في هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة ، محبباً للأخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب ، ولكن يجب أن تفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق لم يكن واعظاً ولا ناسكاً ، لم يكن حكيماً يبشر بالحكمة ، أو فيلسوفاً يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعراً يصدق في شعره ، ويجب أن يتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة ، كان يحب الصدق حباً

عملياً ، أو قل كان يحب الصدق حباً فنياً ، ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين ، أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفنى .

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى المعانى فحسب وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء فى المعانى ، وفى الألفاظ جميعاً ، كان يريد ألا يستعير المحدثون معانى القدماء ، لأن لهم معانيهم ، ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون فى استعارة ألفاظ القدماء ، لأن لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت ، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة .

حدثت معان لم يكن يألفها القدماء ، فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثة ، وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة .

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين : الأول : أن هذا التطور فى اللغة واقع على كل حال ، سواء أراد الشعراء والكتاب أم لم يريدوه ، وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، ف شعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وإن كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قوياً ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين ، وقل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس ؛ التطور إذن واقع ، لأنه قانون لا منصرف عنه لأى جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور ، راضون عنه ، ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وإنما هى فى « اعترافهم » به ، واتخاذهم مذهباً وطريقاً .

وهذا هو الشيء الثانى الذى نريد أن نلاحظه : وهو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين ، يكاد يكون فى « الاعتراف » بالحديث لافى « قبول » الحديث ؛ فالحديث مقبول بطبعه ، لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق ، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة .

ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً في تغيير الأسلوب الشعري ، وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعري ولا مجدد اللفظ والمعنى ، وإنما كان الشعراء المعاصرون له — سواء منهم أنصاره وخصومه — يغيرون الأسلوب الشعري ، ويجددون اللفظ والمعنى أيضاً ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ، ويرى أنه مشروع ، فيمضى فيه ، ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ، ويتكلف الفرار منه .

وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا في القرن السابع عشر الفرنسي ، ووقع هذا في كل عصر من العصور التي تطورت فيها الأمم ، وتطورت فيها اللغات أيضاً .

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين ، غير منافقين مع أنفسهم ، وانظر إلى طريقته في الدفاع عن رأيه ، وأخذ الناس بهذا الرأي :

عَاجُ الشَّقِيِّ عَلَى رَسْمِ يُسَائِلُهُ	وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارِ الْبَلَدِ
يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ	لَا دَرَ دَرُكَ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفْهُمَا	لَيْسَ الْأَعَارِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
لَاجِفٌ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ	وَلَا صَفَا قَلْبُ مَنْ يَضْبُو إِلَى وَتِدٍ
كَمْ بَيْنَ نَاعَتِ خَمْرِ فِي دَسَاكِرِهَا	وَبَيْنَ بَاكِ عَلَى نُؤْيٍ وَمُنْتَضِدٍ
دَغْ ذَا عِدْمَتِكَ وَاشْرَبَهَا مُعْتَقَةً	صَفْرَاءُ تَفَرَّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
مِنْ كَفِّ مُضْطَمِرِ الزُّنَارِ مُعْتَدِلٍ	كَأَنَّهُ غُضْنُ بَنَانٍ غَيْرُ ذِي أَوْدٍ
أَمَا رَأَيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ قَدْ نَضَرَتْ	وَالْبَسَتْهَا الزَّرَائِبُ نَثْرَةَ الْأَسَدِ
حَاكَ الرَّبِيعُ بِهَا وَشَيْئاً وَجَلَّلَهَا	بِإِنَائِعِ الزَّهْرِ مِنْ مَشْنَى وَمِنْ وَحْدٍ

فانظر إليه ، كيف أثر العنف في خطاب خصمه ، فأسرف في ذم القديم ، والنعي على من يتكلفه ، وأسرف في مدح الجديد ، والحث عليه ، وانظر إلى تبرمه بأسد ، ومن يبكي على أسد ، وإلى ذمه لتيم وقيس والعرب كافة ، ثم

انظر إليه كيف يحقر هذا القديم ، ويرفع من شأن الحديد ، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم ، من جمال الطبيعة ، فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته ، بطلول الجزيرة العربية وصحاريها ؛ ومثل هذا الشعر كثير في خمرات أبي نواس ، كثير في غير الخمرات أيضاً ، يكفي أن ترجع إلى ديوانه ، لتقنع منه بما تريد .

هذا أحد الشيئين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس ، حين يَفْتَنُ في وصف الخمر واللذة .

والشيء الآخر . مذهبه في الحياة لا في الأدب ، وذكرناه كثيراً ، فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم في السخط والإشفاق ، حتى ظن بنا أنا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر إلا في شيء واحد ، هو التاريخ ، هذا الشيء الذي نريد اليوم أن نمر به مسرعين ، هو المجون ، فقد كان أبو نواس مجدداً في كل شيء ، مجدداً في الشعر ، ومجدداً في الحياة ، وبقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجدداً وحده ، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين أيضاً .

والفرق بين أبي نواس وغيره من معاصريه ، أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ، ولا يكذبوا على أنفسهم ، فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الأمر ، فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه ، فهو إذن في قضية المجون ، يسلك نفس الطريق التي يسلكها في قضية الأسلوب الأدبي ، يرى أن هناك تطوراً واقعاً ، وأنها خاضعون لهذا التطور ، وأنها ننكر هذا التطور ، ولا ننكر خضوعنا له ، وإنما نؤمن به إيماناً ، ونعترف به اعترافاً ، وحجته في ذلك أن هذا سبيل الصادقين ، وأنتك قد تستطيع أن تخفى ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفى على الله شيئاً والله وحده هو الذي يجب أن تصدقه في شرك وجهرك ، فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده ، فما يعينك أن يقول الناس فيك ! وانظر هذه الآيات :

لَا تَسْقِنِي إِنْ كُنْتَ بِي عَالِماً إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي

هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا وَأَكْنِ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ
يَا حَبْدَا الْجَهْرُ بِأَمْرِ الصَّبَا مَا كُنْتَ مِنْ رَبِّكَ فِي سِتْرِ

هو إذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم ، والاعتراف بالجديد ، وهو شديد الاقتناع ، قد يتكلف في سبيله ما يتكلفه المقتنعون ، من الإسراف والتعصب والخروج عن الطور ، وانظر إلى هذه الأبيات ، التي لم يحفل فيها أبو نواس بقاعدة دينية أو خلقية ، وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهباً وسبيلاً :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ
فَعَيْشُ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصَرَ الدَّهْرُ
وَمَا الْغَبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَائِي صَاحِبًا وَلَا الْغَنَمُ إِلَّا أَنْ يُتَغَنِّيَ السُّكْرُ
فَبُحْ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَغِيرِ مَجَانَةٍ وَلَا فِي مُجُونٍ لَيْسَ يَتَّبَعُهُ كُفْرُ

ولا تحسبن أبا نواس شاذاً في هذا أو متحلاً إياه انتحالا ، وإنما هو أثر

البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا ، فيقول :

وَقَائِلٍ هَلْ تُرِيدُ الْحَجَّ قُلْتُ لَهُ نَعَمْ إِذَا فَنِيَتْ لَذَاتُ بَغْدَادِ
أَمَّا وَقُطْرُبُلُ مِنْهَا بِحَيْثُ أَرَى فَكُنَّةُ الْفَرَكِ مِنْ أَكْنَافِ كَلَوَادِ
فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْكَرْخُ الَّتِي جَمَعَتْ شُدَّادَ بَغْدَادَ مَا هُمْ لِي بِشُدَّادِ
فَكَيْفَ بِالْحَجِّ لِي مَا دُمْتُ مُنْغَمِسًا

وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بَغْدَادِ تُخَلِّصُنِي كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِي مِنْ طَيْرِ نَابَادِ
ويقول بعد أن حج :

قَالُوا تَنْسُكَ بَعْدَ الْحَجِّ قُلْتُ لَهُمْ أَرَى وَأَرْجُو وَأَخْشَى طَيْرَ نَابَادَا
أَخْشَى قَضِيبَ كَرَمٍ أَنْ يُنَازِعَنِي رَأْسَ الْقِطَارِ وَإِنْ أَسْرَعْتُ إِغْدَادَا
مَا أَبْعَدَ النَّسْكَ مِنْ قَلْبٍ تَقْسَمُهُ قُطْرُ بُلٍّ فَقُرَى بُنَى فَكَلَوْدَا
فَإِنْ سَلِمْتُ ، وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ مِنَ السَّلَامَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَغْدَادَا

مَا شِئْتُ مِنْ بَلَدٍ دَانَ مَنَازَهُ
وَقَحاً تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبِرِّ بَيْنَهُمْ
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا حَازَيْتَ مَجْلِسَهُمْ
هُنَاكَ لَأَنْتَخِطَى الْأُذُنَ لَأَيْمَةً
.....
تَقُولُ ذَا شَرُّهُمْ بَلْ ذَاكَ بَلْ هَذَا
أَنْفِذْتَ بِالتَّوَكُّلِ وَالْأَرْكَانِ إِنْفَادًا
وَلَا تَرَى قَائِلًا مَنْ ذَا وَلَا مَاذَا

فقد رأيت مما روينا ، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ، ولا في
الحجون ابتداءً ، ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش في عصر وبيئة ، كانا يضطرانه
إلى أن يرى هذا الرأي ، وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق بينه وبين خصومه وأنصاره
— كما قلنا — أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التي يحياها ، على
التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ، ولسنا نقول إنه مخطئ ، فقد
يختلف الناس في أن الصراحة خير أو شر ، إذا كان موضوعها الإثم والحجون ،
وليس يعني أن تكون صراحة أبي نواس شراً أو خيراً ، وليس يعني أن
إثم أبي نواس أو مجونه ، أو بغضه للقديم وحبّه للحدث ، ليس يعني شيء
من هذا في نفسه ، فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماماً ، ولا نعتقد أن
أبا نواس يصلح قدوة أو إماماً في ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب
مذهب المؤرخ ، ونحيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه ، ينتج لنا أن شعر
أبي نواس في الخمر على ما فيه من جمال فني يعجب الأدباء والنقاد ، كان يرمي إلى
غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد في الأدب : والاعتراف بالجديد في الحياة ،
بل نستطيع أن نوجز فنقول ، كان شعر أبي نواس كله ، رفضاً للقديم في كل
شيء ، وكلفاً بالجديد في كل شيء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبي نواس في الخمر ، لا ينبغي أن ننصرف عن
هذا البيت من شعره ، دون أن نشير إلى ما له من المقطوعات ، والقصائد
التي تنظر إليها في نفسها النظر الفني الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب
بها وترضى عنها ، فتقرأها ، وتقرأها ، وتميل إلى حفظها ، وتميل إلى أن تسمعها
في الغناء .

كثير جداً هذا النوع من شعر أبي نواس في الخمر ، وكأنه كان يريد

حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين ، تمجيداً للخمر ، وتأيداً
لمذهبيه في الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزته المشهورة :

«دع عنك لوى فإن اللوم إغراء»

وتذكر أنى قد حللتها في غير هذا المكان ، وتذكر قصيدته الأخرى :

أَعَاذِلُ أَعْتَبْتُ الْإِمَامُ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا

وانظر إلى هذه القصيدة ، وقد كان فيها جدال بينه وبين مسلم بن الوليد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاخَا	وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَاخَا
أَوْ فِي عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدُفَةٍ	غَرِدًا يُصَفِّقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاحَا
بَادِرُ صَبَاحِكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ	كَمُسَوِّفِينَ غَدَا عَلَيكَ شِخَاخَا
وَحَلِيلِينَ لَذَاتٍ مُعَلَّلٍ صَاحِبِ	يَقْتَتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةٌ وَمُزَاخَا
نَبْهَتُهُ وَاللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ بِهِ	وَأَزَحْتُ عَنْهُ نِقَابَهُ فَانْزَاخَا
قَالَ ابْنِي الْمِصْبَاحَ قُلْتُ لَهُ اتَّيْتُ	حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا وَمِصْبَاحَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزُّجَاجَةِ شَرْبَةً	كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِرَاجِهَا	عُطْلًا فَأَلْبَسَهَا الْمِرَاجُ وَشَاخَا
شَكَّ الْبِزَالُ فَوَادَهَا فَكَأَنَّهَا	أَهْدَتْ إِلَيْكَ بِرِيحِهَا تُفَاحَا
صَهْبَاءُ تَفْتَرِسُ النُّفُوسَ فَمَا تَرَى	مِنْهَا بِهِنَّ سِوَى السُّبَاتِ جِرَاحَا
عِمِرَتْ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا	حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بَاحَا

وانظر إلى هذه المقطوعة ، التي تكلف أبو نواس فيها البديع ، فأحسن

التكلف :

عَاذِلِي فِي الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحِ	لَا تَلْمَنِي عَلَى شَقِيقَةٍ رُوحِي
لَا تَلْمَنِي عَلَى الَّتِي فَتَنَتْنِي	وَأَرَتْنِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ
قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سَقِيمًا	وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثَوْبَ الصَّحِيحِ

إِنَّ بَذْلَى لَهَا لَبْدُلُ جَسَوَادٍ واقتِنَائِي لَهَا اقْتِنَاءُ شَجِيحٍ
وانظر إلى هذه الأبيات ، التي لا يشك قارئها أنها قيلت أمس أو اليوم ،
لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر :

تَفْتِيرُ عَيْنَيْكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْكَ تَشْكُو سَهَرَ الْبَارِحَةِ
عَلَيْكَ وَجْهُ سَيِّئِ حَالُهُ مِنْ لَيْلَةٍ بَتَّ بِهَا صَالِحَةُ
وَنَفْحَةُ الْخَمْرِ وَأَنْفَاسُهَا وَالْخَمْرُ لَا تَخْفَى لَهَا رَائِحَةُ
وَعَادَةٌ هَارُوتُ فِي طَرْفِهَا وَالشَّمْسُ فِي مَفْرِقِهَا جَانِحَةُ
تَسْتَقْدِحُ الْعُودَ بِأَطْرَافِهَا وَنَعْمَةُ فِي كِبْدِي قَادِحَةُ
وانظر إلى هذه الأبيات أيضاً ، وحدثني ، أليست وضعت لتغني :

أَلَّهُ بِالْبَيْضِ الْمِلَاحِ وَبَقَيْنَاتٍ وَرَاحِ
لَا يَصُدُّكَ لَاحٍ هُوَ عَنْ سُكْرِكَ صَاحِ
لَيْسَ لِيْلَهُمْ دَوَاءٌ كَاغْتَبَاقٍ وَاضْطِبَاحِ
فَلَعَمْرِي مَا يُدَاوِي أَلَّ هَمُّ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ

ولو أني أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت ،
ولكني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد ، وقد أعجب بها العلماء
والنقاد في القرن الثالث ، لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده ، وأحسنه
إحساناً عظيماً ، وأعجب بها أنا ، لأن أبا نواس أراد أن يبكي الأطلال والديار
فبكاهما ، ولكنه لم يبكي أطلال البادية ، وإنما بكى أطلال الحاضرة . لم يبكي
أطلال حتى ارتحل ، وإنما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو ، بعد أن فرغوا
من لهوهم ، وانصرفوا عن ملهاتهم ، فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار ،
فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا الثوى ولا التود ، وإنما يذكر ما ستسمع :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذَلَجُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الشَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
وَلَمْ أَذَرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ بِشَرْقِي سَابَاطِ الدُّبَارِ الْبَسَابِسُ
أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارُتُهَا كِشْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا مَهْيٌ تَدْرِيبُهَا بِالْقَيْسِ الْفَوَارِسُ
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

أرأيت إلى هذه الآثار التي تركها جر الدنان ؟ أرأيت إلى هذا الريحان جنيه
ويابسه ؟ هذه هي أطلال أبي نواس ، ثم أتחס في هذه القصيدة شيئاً من
الميل إلى الفرس والإعجاب بهم ، والحنين إلى عهدهم القديم ! ثم أترى وصف
الكَأْس وما فيها من صورة ، وتقسيم هذه الصورة بين الحمر ومزاجها !
ثم انظر إلى هذا البيت الذي يبتدئ به أبو نواس إحدى قصائده ، وانظر
إلى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الأطلال والباكين عليها ،
بامرئ القيس وأصحابه :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ واقِفاً مَا ضَرَّ لَوْ حَبَانَ جَلَسُ
تَصِفُ الرُّبْعَ وَمَنْ كَانَ بِهِ مِثْلَ سَلَمَى وَلُبَيْنَى وَخَنَسُ
أَتْرُكُ الرُّبْعَ وَسَلَمَى جَانِباً وَاضْطَبِیحْ كَرُخِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسُ

هذه طائفة من شعر أبي نواس في الحمر ، لم نتكلف اختيارها ، ولا نشك
في أن لأبي نواس خيراً منها ، ولكننا أطلنا في هذا الباب ، فلنتقل منه إلى
الغزل في الأسبوع الآتي .

الغزل في شعر أبي نواس^(١)

غزله بالنساء - غزله بالفلان -
الإمام في بغداد - الحرائر في العصر
العباسي - حبه لحنان .

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتمجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثاً ، وإنما وصفها وسيلة ، إلى إعلان رأيه في تجديد الأدب ، وإعلان مذهبه في المحبون ، وإعلان ما يكن للخمر من حب ، وما يختصها به من كلف .

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل ، ولكني أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور ، لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وإنما سلك سبلاً أخرى ليس يباح لنا ، في صحيفة سيارة ، أن نسلکها معه ، أو نتبعه فيها .

لأبي نواس غزلان : غزله بالنساء ، وغزله بالفلان ، وهو مجيد في الثاني ، محسن الإحسان الفني كله ، صادق أيضاً أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب ، إلا في كتاب مخصص لأبي نواس ، يقرؤه الخاصة ، ولا تصل إليه يد العامة ، إلا مصادفة وبعد مشقة .

أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الرديء ، ولعلك إذا أردت أن تميز هذا الغزل ، أو تصفه بوصفه الصحيح ، لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم ، وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين كان يتغزل بالنساء ، وإنما كان مازحاً ، أو بعبارة أصح كان مخادعاً ، وكان كذاباً ، كان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً ، يريد أن يطرُق أبواب الشعر جميعها ، ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن ، حتى لا يفوته هذا الفن ، وفي الحق أنه لم يقصّر في هذا الفن ، فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ،

(١) نشرت بالسياسة في ١٨ من ذي الحجة سنة ١٣٤١ - أول أغسطس سنة ١٩٢٣ .

وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة ، فأجاد الوصف ، وأتقن التصوير . ولكنه لم يصف النساء جميعاً ، وإنما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف ، ولا إلى البر والصون ، وإنما كانت طائفة مبتدلة ممتنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكده يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للحرائر منهن ، وإنما عرض للإماء ، فأحسن وصفهن ، وترك لنا منهن صورة إن لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق ، فهي قريبة جداً من الحقيقة الواقعة ، عرض للإماء ولطائفة بعينها من الإماء ، لهذه الطائفة التي كانت تتألف من إماء مهابات ، قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ، ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به ، فكان يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكن يمتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل في هذا الحديث .

كان الإماء إذن مظهر المرأة في بغداد ، ولكنه كان مظهراً سيئاً جداً من جهة ، وحسناً جداً من جهة أخرى ، كان مظهراً سيئاً ، لأنهن كن مبتدلات خليعات ، يتهاكن على الخلاعة ، ويسرفن في المجون ، ويتخذن من تهاكن على الخلاعة ، وإسرافهن في المجون سلاحاً قوياً ، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن الحرائر المحصنات حرباً غير متكافئة . وكن مظهراً حسناً لأنهن كن أديبات عالمات ، يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها .

ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر ، بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس ، وبما نرى في الأغاني وغير الأغاني ، مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة ، وانحطاطهن الخلق من جهة أخرى ، يجب القصد والاحتياط ؛ لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة ، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة ، وإنما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين ، فيتخذ فيها تجارة

ولهوياً ، كما يتخذ تجارة ولهوياً فاخر الأثاث وحسن الرياش .

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة ، وإنما يمثلن الرجل الحر ، فقد كن له لذة ولهوياً ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة ، تمثلها أحسن تمثيل ، فلو أن هؤلاء الإمام اللاتى ذكرهن أبو نواس كن يحبين اللهو ، ويتهاككن على المجون ، ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر ، لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا ، أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كما فى جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بنى أمية شعراء يحبون الفتك ، ويتحدثون به ، فلامرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة فى ذلك شعر كثير ، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول ، حتى فى الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلاً جداً ، بالقياس إلى شعرهم العفيف ، وكان الشعراء الصادقون فى الحب ، المؤثرون للعفة والطهارة فى كل ما يقولون ، كثيرين جداً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين ، ذلك لأن سلطان الإمام كان ضعيفاً جداً ، أو لم يكن موجوداً فى هذه العصور ، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون . كرامتهم على لذاتهم ، فكانوا يؤثرون نساءهم على إمامهم . أما فى أيام بنى العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً ، كثر الإمام كثرة فاحشة ، وتفوق تفوقاً فاحشاً ، فى الأدب والشعر والغناء ، وفى ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال ، فهاكوا على اللذة ، واستبقوا إلى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات ، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة ، من الإشراف على حياة الأسرة فى عفة وكرامة ، ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا فى اتخاذ الرقيق ، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات ، فكان هذا الفساد العظيم ، الذى يمثله غزل أبى نواس بالنساء والغلمان . . . أتظن أن أبا نواس كان يستطيع أن يقول فى حرة محصنة مثل هذه القصيدة :

وَنَابِهٍ فى الهوى لَنَا نَاسِي قَطَعَ بِالهَجْرَانِ أَنْفَاسِي

لَسْتُ لَهَا وَاصِفاً مَخَافَةَ أَنْ أَكْثَرَ وَصْفِي لَهَا شِكَايَةً مَا يُطْمِعُنِي لَحْظُهَا وَيُوْنِسُنِي فَصُرْتُ بِاللَّحْظِ مِنْ مُعَذِّبَتِي أَسْعَدُ يَوْمٍ لَهَا حَظِيَّتُ بِهِ لِذَلِكَ الْيَوْمِ مَا حَيَّيْتُ وَمَا تَقُولُ لِي وَالْمُدَامُ مُرْسَلَةٌ هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النُّعَاسَ فَقَدْ قُلْتُ لَهَا فَابْتَدَى وَهَاتِي فَمَا وَغَايَتِي أَنْ أَنَالَ فَضْلَتَهَا ثُمَّ أَظُنُّ الْحِذَارَ نَبَهَهَا قَالَتْ فَدَعْ عَنْكَ الْاِحْتِيَالَ لِمَا أُغْرَضْتُ عَنْهَا وَقَدْ فَهِمْتُ لَكِي ثُمَّ دَعَتْهَا الْمُدَامُ مِنْ كَتَبٍ فَاخْتَلَبْتُ زِقْنًا فَمَجَّ بِهَا ثُمَّ تَحَسَّتُ حَتَّى إِذَا شَرِبْتُ نَازَعْتُهَا الْكَأْسُ فِيهِ فَضْلَتُهَا فَكَادَتِ النَّفْسُ لِلسُّرُورِ بِهَا يَعْرِفَ مَا بِي جَمَاعَةُ النَّاسِ فِيهَا قَضَى اللَّهُ لِي عَلَى رَأْسِي بِاللَّفْظِ ، مِنْهَا فُؤَادُهَا الْقَاسِي وَاللَّفْظُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَاسِ مَقَالُهَا لِي وَلَسْتُ بِالنَّاسِي تَرْجَمَ قَوْلِي سَوَادَ أَنْفَاسِي تَفِيضُ حَوْلِي نُفُوسُ جُلَاسِي طَابَ انْضِوَاعُ الْمُدَامِ وَالْأَيْسِ حَسَوْتُ مِنْهَا فَإِنِّي حَاسِي فِي الْكَأْسِ مِنْ شُرْبِهَا أَوْ الطَّاسِ وَمَا بِهَا قَدْ أَرَدْتُ مِنْ بَاسِ أَرَدْتُ سُكْرِي لَهُ وَإِنْعَاسِي تَحَسَّبَ أَنِّي لِقَوْلِهَا نَاسِي وَاللَّيْلُ ذُو سُدُفَةٍ وَإِذْمَاسِ فِي الْكَأْسِ رَاحاً كَضَوْءِ مِقْيَاسِ نِصْفاً كَمَا قِيسَ لِي بِمِقْيَاسِ فَفَزْتُ بِالْكَأْسِ بَعْدَ إِمْرَاسِ تَخَرُّجُ بَيْنَ الْمُدَامِ وَالْكَاسِ

أترى إلى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة الكأس ؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية في اجتذابه إليها ، وترغيبه فيها ، تطمعه حيناً ، وتؤيسه حيناً آخر ؟ بل أترى إلى امرأة حرة محصنة تبذل نفسها ، فتتزل إلى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وإنما هي أمة من

الإماء ، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتي بذلن أنفسهن ، فابتذلهن الرجال ، ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقاً ، ومتحدثاً عن عاطفة قوية متقدة في أكثر الأحيان ، حينما كان يذكر هؤلاء النساء ، أو يتغزل بهن ، وإنما كان يترضاهن ترضياً ، ويتملقهن تملقاً ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى .

أضف إلى هذا أن أبا نواس كان معتدلاً جداً في الميل إلى النساء ، وكان مسرفاً جداً في ميل آخر . . . فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء ، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل ، إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لا أريد التكلف اللفظي ، وإنما أريد تكلف المعنى ، وانتحال الحب .

وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره في « جنان » ، فقد يظهر أنه كلف بها حقاً ، وهام بها بعض الهيام ، وتجشم في سبيلها مالا يتجشمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصداً ولا عفيفاً في كل ما قال في « جنان » ، وإنما أسرف وورط نفسه في شيء من الإثم ، فانظر إلى هذه الأبيات :

وَعَاشِقَيْنِ التَّفَّ خَدَاهُمَا	عِنْدَ التِّثَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ
فَالْتَفَيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَا	كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوْلَا دِفَاعُ النَّاسِ إِيَّاهُمَا	لَمَّا اسْتَفَاقَا آخِرَ الْمُسْنَدِ
قُلْنَا كِلَانَا سَاتِرُ وَجْهِهِ	مِمَّا يَلِي جَانِبَهُ بِالْيَدِ
نَفَعَلُ فِي الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ	يَفْعَلُهُ الْأَبْرَارُ فِي الْمَسْجِدِ

وليس من شك في أنهما كانا على موعد ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي أَفْنَيْتُ عُمْرِي	بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهَا	يُقَرِّبُنِي وَأَعْيَتُنِي الْأُمُورُ
حَجَجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَجْتُ جِنَانَ	فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

وأنا أحسب أن حب أبي نواس لحنان لم يكن من الحب الصادق العفيف ، وإنما كان نوعاً من الأمل ، يتحرق الرجل لتحقيقه ، ويعسر عليه هذا التحقيق ، فأما إثارة بالخير ، وتقديم لذتها على لذته ، وأمنها على أمنه ، فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلاً ، وهذه الأبيات أصدق دليل على ذلك :

يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِي مَائَتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِي فَيُذِرِي الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَابِ
أَبْرَزَهُ الْمَائَتَمُ لِي كَارَهَا بِرَغْمِ بَوَابِ وَحُجَابِ
لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَحْبَابِهِ وَكَانَ أَنَّ أَبْصَرُهُ دَابِي

أنظن أنه يجبها حقاً حين يتمنى أن يموت أحبابها في كل يوم ، لتظهر معولة ، نادرة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ ألسنت ترى في هذا أن الرجل كان أثراً مسرفاً في حب نفسه ولذته ، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة ، مهما تكلف هذه المرأة في هذا من شر ، واحتملت من خطوب ! لم يكن أبو نواس إذن صادقاً في حب النساء ، وليس شعره صادقاً في تمثيل النساء كما هو صادق في تمثيل الرجال ، ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية في بغداد أيام بني العباس .

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر ، وإذن فمن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق ، وأن نعرض في شيء من التفصيل لمن عرف من هؤلاء الإماء اللاتي تعشقهن أبو نواس . ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر .

الغزل عند أبي نواس^(١)

صدق الغزل الأموى - تكلف الغزل
العباسى - الغزل بالفلمبان .

بعيداً جداً ما بين هذا الغزل النُواسى العباسى ، الذى أشرت فى الفصل
الماضى إلى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الأموى العربى ، الذى أشرت
فى فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته .

نعم ! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسى ، وبين ذلك الغزل الذى
كان ينشره جميل أو كُثَيِّر أو عمر بن أبى ربيعة . الفرق عظيم جداً ، وليس عظيم
هذا الفرق شيئاً غريباً فى نفسه ، فيكفى أن تنظر إلى العصر الأموى
والعصر العباسى من جهة ، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين ، ونفسية
أبي نواس من جهة أخرى ، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغى أن يكون غريباً ،
بل ينبغى أن يكون واجباً محتوماً . يجب أن تنظر إلى العصرين ، لترى فى
أولهما ، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة ، سداجة ظاهرة ، مصدرها
أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ، ولم ينته إلى نتائج المعقولة .
ولترى فى ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلاً قليلاً من عربيتها ،
وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس ، التى كانت تفد على العراق ، وعلى
بغداد بنوع خاص ، فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها ، وكل ما فيها من خير
وشر بعيد ما بينه وبين ما فى نفس الأجناس العربية من صلة .

يكفى أن تنظر إلى هذا كله . لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسى
عامة ، وبين الغزل الأموى عامة ، فإذا فهمت هذا ، وعرفت له أثره فى نفس
أبي نواس ، وجب عليك أن تنظر إلى أبي نواس نفسه ، وإلى ما قدمت من حياته
وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموى ،

(١) نشرت بالسياسة فى ٨ صفر سنة ١٣٤٢ - ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

وإلى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحاً .

كان « جميل » وأمثال « جميل » قوماً غزليين بطبيعتهم ، غزليين لأنهم يحبون النساء ، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها ، فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم ، حتى لا يعيشون إلا به وله ، وحتى لا يصدرون إلا عنه ، ولا يردون إلا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا إذا ذكروا النساء ، أو تغنوا بحبهن ، وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا في الوصف ، وكانوا فيه أقوياء .

ثم كان « كُشَيْر » وأمثال « كُشَيْر » يحبون النساء ، ويحبون ذكر النساء يتخذونه فناً ، ويحاولون الإجابة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم ، لأنهم كانوا يتأثرونهم ، ويسلكون سبيلهم ، ويريدون أن يخذعوا الناس عن أنفسهم ، وأن يمثلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقاً ، كان الأولون صادقين ، وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يحرموا الصدق حرماناً تاماً .

أما عمر بن أبي ربيعة ، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية ، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية ، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرية ، لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل الأعلى للجمال والحب ، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبي ربيعة رجلاً يحب الحياة ، ويحب المرأة ، لأنها زينة الحياة ، أو لأنها اللذة في الحياة ، وكان صادقاً في حب المرأة ، من حيث هي لذة الحياة ، فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية ، كما يقول المحدثون ، مؤثراً ، لأنه كان صادقاً ، ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة ، تؤثر في نفس الشاعر ، وتؤثر في حياته العملية أيضاً . . . كذلك كان شعراء بني أمية ، سواء منهم العذريون حقاً ، ومن تكلفوا العذرية ، ومن

أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلى إلا اللذات ، وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً ، وما كان يستطيع أن يكون عذرياً ، وهو الرجل الذى شك فى كل شيء ، أو قل أنكر كل شيء ، ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة ، يلتمسهما حيث يجدهما ، لا يتقيد فى ذلك بخرج أو جناح ، لم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً ، وإنما كان يسخر من العرب ، وما كان العرب يتكلفون ، لم يكن يتكلف العذرية ، وإنما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر بن أبى ربيعة ، لم يكن أبو نواس يحب النساء ، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً ، حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج ، على رغم إلحاحهم عليه ، وتوسلهم إليه . لم يفلحوا ، لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ، ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة .

لم يكن إذن يحب النساء ، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن ، أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل ، فالغزل فن من فنون الشعر . يجب على الشعراء المحيدين أن يطرقوه ، ويأخذوا منه بنصيب ، وقد طرقه أبو نواس ، وأخذ منه بنصيب ولكننا نعلم أبا نواس إن قلنا : إنه لم يكن قط صادقاً فى غزله ، نعلمه لأنه كان صادقاً فى غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبى ربيعة فى صدق العاطفة ، وإجادة الوصف ، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : أحدهما الفرق بين العصر العباسى والعصر الأموى ، والآخر أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء ، وإنما كان يجيد الغزل بالغلمان . . . فلا بى نواس فى هذا الباب ما لابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس فى هذا الباب أشعر من ابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، ولست أستدل على هذا إلا بشيء واحد ، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل ، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبى ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شىء يحملك على أن تعجب بغزله ، فطبيعتك تحب إليك ذكر النساء والتغزل بهن ، وإذا

أسرف ابن أبي ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين ، فليس في هذا الإسراف خروج عن الطبيعة ، أو تجاوز لها ، وإنما هو جزء من الطبيعة ، أو قل إنه الطبيعة بنفسها ، جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها .

أبو نواس إذن مجيد حين يتغزل بالغلمان ، ولكنه فاطر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء ، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية في نفسه ، أو حباً صحيحاً ، وإنما يصف ضروراً من اللهو ، وفنوناً من المجون ، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف ، لا لأنه يشعر به ، بل لأنه شاعر مجيد ، يتكلف الشيء فيحسنه أحياناً .

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسرته في الفصل الماضي ، وهو أنه لم يتغزل بحرة ، وإنما وقف غزله كله على الإماء ، وذلك واضح ؛ فقد عرفنا أنه يكره الزواج ، وعرفنا أنه كان مابجناً مسرفاً في المجون ؛ فلم يكن من السهل عليه ، ولا من الميسور له ، أن يخالط الحرائر ، أو يتحدث إليهن ، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء ، ويسرف في مداعبتهن ، ولا سيما بعد ما قدمت لك في الفصل الماضي من رقي الأمة في هذا العصر ، وتفوقها على الحرة ، وتهالكها على اللهو والمجون . فإذا عرفنا هذا كله ، وأنزلنا غزل أبي نواس منزلته الصحيحة ، كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فإذا أردنا أن نبحث عن مقياس لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فليس أمامنا إلا وصفه للخمر ، وغزله بالغلمان ، وإنما نبحث عن غزله بالنساء ، لنعرف شيئاً من أخلاق العصر ، ومن أخلاق الإماء فيه ، ولنعرف أيضاً شيئاً من ظرف النساء في بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء في بغداد ، ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ .

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية ، حياة المجون والدعابة تمثيلاً صحيحاً :

أَرْسَلَ مَنْ أَهْوَى رَسُولًا لَهُ
فَقُلْتُ أَهْلًا بِكَ مِنْ مُرْسَلٍ
جَمَشْتُهُ فِي كَلِمَةٍ فَاثْنَيْنِ
مِثْلِكَ لَا يَعْشَقُ مِثْلِي وَقَدْ
وَجَاءَتْ الرُّسُلُ بِأَنْ آتِنَا
قَالَتْ : تَعَشَّقْتَ رَسُولِي لَقَدْ
ذَاكَ وَهَذَا لَكَ يَا غَادِرًا
مَنْ يَأْمَنُ الذُّبَّ عَلَى مَعْرَةٍ
فَقُلْتُ فِي رَفْقٍ وَفِي تَوَدَّةٍ
الذُّبُ لَا يُؤْمَنُ لِكِنَّهُ
هُمْ طَرَحُوا يُوسُفَ فِي جُبِّهِ

أُتْرَى إِلَيْهِ كَيْفَ كَانَ يَحِبُّ صَاحِبَتَهُ حُبًّا قَوِيًّا صَادِقًا ، حَتَّى خَانَهَا فِي
رَسُولِهَا ، فِدَاعِبَ هَذَا الرُّسُولِ ، وَهُوَ يَعْتَرِفُ بِهَذِهِ الْمَدَاعِبَةِ فَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ ،
وَلَكِنَّهُ حِينَ يَلْقَى حَبِيبَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ ، يَضَعُ نَفْسَهُ مَوْضِعَ
الذُّبِّ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ ، وَلَكِنْ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَنْ تَكْتَنِي صَاحِبَتَهُ مِنْهُ بِهَذَا
الدِّفَاعِ ، بَلْ أَنْ تَلُومَهُ فِي هَذَا الرِّفْقِ وَاللِّينِ ، وَلَكِنَّا فِي بَغْدَادَ ، وَبَيْنَ قَوْمِ
يَلْهُونُ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ .

وَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي يَسْخَرُ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَيَحْسِنُ
السَّخِرِيَّةَ :

وَقَصْرِيَّةً أَبْصَرْتُهَا فَهَوِيَّتُهَا
فَلَمَّا تَمَادَى هَجْرُهَا قُلْتُ وَاصِلِي
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ كَانَ فِي السُّوقِ أَوْجُهُ
لَخَيْرْتُ وَجْهِي وَاشْتَرَيْتُ مَكَانَهُ
وَلِنْ كُنْتُ ذَا قُبْحٍ فَإِنِّي شَاعِرٌ
هَوَى عُرْوَةَ الْعُذْرَى وَالْعَاشِقِ النَّهْدِي
فَقَالَتْ بِهَذَا الْوَجْهِ تَرْجُو الْهَوَى عِنْدِي
تُبَاعُ بِنَقْدٍ حَاضِرٍ وَسَوَى نَقْدٍ
لَعَلَّكَ أَنْ تَهْوَى وَصَالِي مِنْ بَعْدٍ
فَقَالَتْ وَلَوْ أَصْبَحْتَ نَابِغَةَ الْجَعْدِي

ثم انظر إلى هذا الظرف :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً فَفُزْتُ بِهَا بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
فَقُلْتُ بِاللهِ يَا مُعَذِّبَتِي جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي
فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا يَعْرِفُهُ الْعُجَمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تُعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَغْنَفِ الطَّلَبِ

وانظر إلى هذه القصيدة ، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ، لأنها تمثل رقة بغداد ، وتمثل هذه النزعة الدينية التي تجدها في العامة ، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن ، وسور القرآن ، وبالْحَج ، ومناسك الحج ، حين ينبغي أن يقسموا بشيء آخر :

مَالِي وَلِلْعَازِلَاتِ زَوْقَنَ لِي ثُرَهَاتِ
سَعَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ يَلْمَنَ فِي مَسْوَلاتِي
يَأْمُرْنِي أَنْ أُخْلِيَ مِنْ رَاحَتِي حَيَاتِي
وَذَاكَ مَالًا وَلَا يَكُونُ حَتَّى الْمَمَاتِ
و «الله» مُنْزِلِ «طه» و «الطور» و «الذاريات»
و «الر» و «صاد» و «قاف» و «الحشر» و «المرسلات»^(١)
وَرَبُّ «هُودٍ» و «نُونٍ» و «النور» و «النازعات»
لَا رُمْتُ هَجْرَكَ حَبِي حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُوَاتِي
تَجَمُّعُوا عَلَّامُونِي يَا إِخْوَتِي كَيْفَ آتِي
يَا وَيْلَنَا أَيُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْحَشَى وَاللَّهَاءِ
مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ تُطْفِئُ تَطِيرُ فِي جَانِحَاتِي
أَنَا الْمُعْنَى وَمَنْ لِي يَرْتِي لِطُولِ شَكَاتِي

(١) يريد ألف لام را ، وهو مفتاح سور من القرآن .

الظَّاهِرُ	العِبَرَاتِ	البَاطِنُ	الزَّفَرَاتِ
مُنِيْتُ	بِالْمُتَحَرِّي	فِي كُلِّ أَمْرٍ مَسَاتِي ^(١)	
يَا سَائِلِي	عَنْ بَلَائِي	أَنْظُرْ إِلَى لَحْظَاتِي	
يَخْفَى الْهَوَى فِي سُكُونِ الْمَجْدِ		سَبُّ وَالْحَرَكَاتِ	
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ أَعْمَى		عُرِفْتُ فِي سَحَنَاتِي	
حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَاتِ		فِي لُجَّةِ الْفُلُوتِ	
وَمُنَّشِنِ	بِالْهَدَايَا	يُطْعَنُ فِي اللَّبَاتِ	
وَمَا تَوَافَى بِجَمْعٍ		و«الشُّعْبِ» فِي «عَرَفَاتِ»	
لَوْ جَاءَ مِنْكَ رَسُولٌ		يَقُولُ نَفْسَكَ هَاتِ	
لَقُلْتُ هَاكَ خُذْنَهَا		مُسَلِّمًا لِيُوفَاتِي	
وَيَلَاهُ نَارُ التَّصَابِي		رَقْتُ إِلَى اللَّهَوَاتِ	
فَأَبَكَّتِ الْعَيْنَ مِنِّي		بِمِثْلِ مَاءِ الْفُورَاتِ	
وَصَاحِبِ كَانَ لِي فِي		هَوَايَ ذَا تُهْمَاتِ	
لَمْ يَطْلُعْ طَلَعَ شَأْنِي		إِلَّا اتُّهَمَ هَنَاتِي	
فَبَيْنَمَا نَحْنُ نُنْسِي		نَسِيحُ فِي الطُّرُقَاتِ	
إِذْ قِيلَ شَمْسُ ضُحَاهَا		فِي أَرْبَعِ عَطِرَاتِ	
فَقُلْتُ شَمْسُ وَرَبِّي		قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَاتِ	
وَقَدْ نَسِيتُ الَّذِي بِي		مِنْهَا مِنَ الْكُرْبَاتِ	
لِرِيحِ حُبٍّ جَرَتْ لِي		فَأَنْشَأَتْ عِبْرَاتِي	
وَأَنْزَفَتْ مَاءَ عَيْنِي		وَأَضَعَدَتْ زَفَرَاتِي	

وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنِي كَمِثْلِ نِقَاسِ الدَّوَاةِ
فَالْحُبُّ فِيهِ هِنَاةٌ مَوْصُولُهُ بِهِنَاةِ
يُعْقِبُنَ طَوْرًا سُورًا وَتَارَةً حَسْرَاتِ

ألمست ترى أنه قد أحسن التحدث إلى النساء ، بلغة النساء ، ولهجة النساء !
ولقد أراد أن يسلك سبيل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، فما كانا
يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما ، فقال في ذلك شعراً لا بأس به ، ولكن لا
أروى لك منه إلا هذين البيتين ، لأن في أولهما إيجازاً ظريفاً ، وفي الآخر تمثيلاً
لأمر بغداد :

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيَّرَ أَنْ شِفَاهَنَا تَعَاطَتْ خَلِيطِي سُكَّرٍ وَعُقَارِ
وَوَدَّعْتُهَا صُبْحاً وَلَمْ أَنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتِماً بِسِوَارِ

وانظر إليه كيف يمازح صاحبتة ، ويتمنى عليها الوصل ، وينكر عليها
الهجر ، ويعدّها بأن لا يكون ثقيلاً ، ولا مطيلاً إن وصلته . كل ذلك في بيت
واحد ظريف ، وهو :

فَرَا جِئِي الْوَصْلَ فَإِنْ زُرْتُكُمْ قَدَرُ فُوقِ فَاحْلِقِي رَاسِي

وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت
منها بيتاً واحداً ، لأن لفظ « الأنفاس » فيه غريب قد نستثقله :

إِنِّي عَشِيقْتُ وَمَا بِالْعَشْقِ مِنْ بَاسٍ مَا مَرَّ مِثْلَ الْهَوَى شَيْءٌ عَلَى رَاسِي
مَالِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحَوْنِي سَفْهًا دِينِي لِنَفْسِي ، وَدَيْنُ النَّاسِ لِلنَّاسِ
مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَا زُرْتُ مَا لِكُنِّي كَانَ أَوْجَهُهُمْ تُطْلَى بِأَنْفَاسِ !
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرْكِي زِيَارَتِكُمْ إِلَّا مَخَافَةَ أَعْدَائِي وَحُرَاسِي
وَلَوْ قَدَرْنَا عَلَى الْإِثْيَانِ جِئْتُكُمْ سَعْيًا عَلَى الْوَجْهِ أَوْ مَشْيًا عَلَى الرَّاسِ
وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا فِي صَحَائِفِكُمْ « لَا يَرْحَمُ اللَّهُ إِلَّا رَاحِمَ النَّاسِ »

ولأبي نواس من هذا شيء كثير ، لا أستطيع أن أرويّه ، وتستطيع أنت أن تقرأه في ديوانه ، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب ، والغرور ، والدعابة ، والمجون ، والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص ما يلذ وما يضحك ، ولكنني قلت لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب . وأريد أن أنخم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله ، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية ، أو ليخدع النساء عن أنفسهن ، على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة ، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس :

يَا مَنْ يُوجِّهُ أَلْفَاطِي لِأَقْبَحِهَا لِأَنَّهُ سَاحِرُ الْعَيْنَيْنِ مَعْشُوقُ
لَوْ كَانَ مَنْ قَالَ نَارٌ أَخْرَقَتْ فَمَهُ لَمَّا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ

* * *

سأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرْد .

جد أبي نواس^(١) المدح

وما رأيك في أن نترك القديم والجديد ، وكلاماً لن يفيد ، ونعود إلى أبي نواس ، فنستأنف البحث عن شعره ، بعد أن انصرفنا عنه حيناً طويلاً ، على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس ، لن نترك القديم والجديد ، وإنما نوغل فيهما إيغالاً ؛ فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصلاً طويلاً ، أثبتت — فيما نعتقد — أنه صاحب الجديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد أعدائه ، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل ، وبين الأدب العربي القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ويبنى على أنقاضه شيئاً آخر ، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنها صادفت في نفسه هوى ، وفي قلبه ميلاً ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنه من أنصار القديم المشغوفين به ، الملحين في البكاء عليه .

ولكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معاً ، لأنه على محبه للجديد ، وإلحاحه في الدعوة إليه ، كان محبباً للقديم ، ملحاً في الحرص عليه ، كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين ، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب ، وما لنا نتحدث بشيء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة : إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم ، فطرة في الناس ، تلزمهم في كل زمان ومكان ، إن كان لهم حظ من حياة ! وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الجديد ، وكان منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء في حبهم ، وكان من المعقول أن يتحدث إليهم جميعاً شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون . بل ما لنا نذكر شيئاً كهذا ، ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع ، مهما

(١) نشرت بالسياسة في ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ - ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٤ .

يسرفا في حب الحديد والتهالك عليه ، فهما لم ينشأ من لا شيء ، وهما لن يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم ، الذي غداهما وأنشأهما ، فهما بطبيعة الحال يمثلان الحديد الذي يصبوان إليه ، ويمثلان القديم الذي نشأ منه .

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له ، قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ! ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم ، وليس من اليسير ولا من الممكن ، أن يخلص أبو نواس من هذا كله ، فيكون جديداً صرفاً في كل ما يقول .

فإذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والحديد ، ولن نستطيع أن نتحدث عن شاعر مجيد حقاً ، أو عن كاتب بارع حقاً ، إلا إذا تحدثنا عن القديم والحديد ، لأن إجادة الشعر ، والبراعة في الكتابة ، تستلزمان شيئين لا بد منهما : الأول : الاحتفاظ بالخير من القديم ، والثاني : استغلال الحديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففي الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان : أحدهما قديم ، والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة ، هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالحديد ، ونشوء أحدهما عن الآخر .

. على أن الحياة في عصر أبي نواس ، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهروا مظهرين ، يكادان يختلفان اختلافاً تاماً . أحدهما مظهر المجدد المسرف في التجديد ، والآخر مظهر الحريص على القديم ، المسرف في الاستمسك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة ، يعكفون فيها على لذاتهم ، ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة ، فيتصلون فيها بعامّة الناس وأوساطهم ، وأصحاب الحرف والصناعات منهم ، ويتصلون فيها أيضاً بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبحونها للناس ، ويمهدون لهم أسبابها ووسائلها ، من الخمارين والمغنين ، والحسان ، من الذكور والإناث ، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعاً

بلغة يفهمونها ويدوقونها ، وتعبر حقاً عما يجدون ويشعرون . وأما عيشتهم الأخرى ، فهي تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس في حياتهم الظاهرة الرسمية ، إن صح هذا التعبير ، وهم في هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ، ترضاهما الأخلاق ، وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة مختارة ، ترتفع عن الابتذال ، وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف ، وعظم حظها من التصنع .

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا في حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق في حياتهم الثانية ، وهذا دأب الأجيال المختلفة ؛ فلك في بيتك وبين أصدقائك وخلاتك عيشة ولغة ، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة ، فليس عجيباً إذن أن تقرأ لأبي نواس في الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب ، الذي هو مرآة النفس حقاً ، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هذا الشعر الذي رق لفظه ، ودق معناه ، وبرئ من التكلف ، وانحط في بعض الأحيان ، حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة ، وليس عجيباً أن تقرأ لأبي نواس شعراً آخر قد قوى متنه ، واشتد أسره ، وتخبرت فيه الألفاظ تخيراً دقيقاً ، وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ، ما كان ليتقيد بها في شعره الآخر .

وفي الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الخمر والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر ، لا يكتفى بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته ، وإيثار اللفظ السهل العذب ، للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ؛ فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها ، وأيسرها على الأذن ، وأقربها من النثر ، وألينها قياداً للمعنى . فإذا تحدث إلى الأمراء والأشراف عمد إلى اللفظ الضخم الفخم ، وإلى الأسلوب المتين الرصين . وإلى الأوزان الطوال ، التي لا تخلو من فخامة وجلال ، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث

به إلى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم إلى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها ؛ وفى هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حرّاً ، يرسل نفسه على سجيته فلا يكاد يتقيد بشيء من ذلك الغزل ، والمجون ، ووصف الخمر ، والهجاء ، والآخر هذا النحو الذى يقصد به إلى الجلد وفنونه ، من مدح ورثاء ، ووصف ، وفخر ؛ وفى هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة ، وتكسبه شيئاً من الأرستقراطية ، يلائم الموضوع الذى يقول فيه . وقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجّن ، ويتغزل ، ويصف الخمر ، ويهجو ، وحين يمدح ، أو يرثى ، أو يفخر ، فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وإنما يظهر الفرق عظيماً بين الرجلين . وأنت مضطر إلى أن تكون ناقدًا بصيراً ، لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا ، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحي أو تكاد تنمحي فى هذا الشعر الجلدى ، بحيث تلبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جليلة كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب ، بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبي نواس أو فخره إلى غير أبي نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف إلى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره ، دون أن يكون خطؤك عظيماً من الوجهة الفنية ، لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجابة والإلتقان قد وضعه الشعراء أمامهم ، فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، فإذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده ، فهم راضون .

ومالى لا أقم الدليل على ما أقول ! فانظر إلى هذه الأبيات من شعر أبي نواس الجلدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والمجون :

لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصُّبَا وَخَدْتُ بِي الشَّدَنِیَّةُ الْمِذْعَانُ
سَبَطُ مَشَافِرُهَا دَقِيقُ نَخْطُمُهَا وَكَأَنَّ سَابِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
وَاحْتَازَهَا لَوْنُ جَرَى فِي جِلْدِهَا يَقْقُ كَقِرْطَاسِ الْوَلِيدِ هِجَانُ

هو يصف ناقته التي حملته إلى ممدوحه الرشيد ، فيحب أن يسلك في وصف
الناقة التي تحمله إلى ممدوحه طريق غيره من الشعراء ، الذين حملتهم النوق إلى
الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وإنما يعنيه أن يتحدث
إلى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب
إلى الرشيد ناقة ، ولم تحمله إلى الرشيد إلا قدماءه ، ولكنه مضطر أن يسلك
مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء ، الذين كانوا
يتكلفون الأسفار الطوال ، ليبلغوا من يمدحون . ثم وزن بين الشعر الذي لا تكاد
تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله :

دَمْعَةٌ كَاللُّوْلُؤِ الرُّطِّ بِ مِنْ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ
ذَرَفَتْ فِي سَاعَةِ الْبَيْتِ نِ عَلَى الْخَدِّ الْأَسِيلِ
إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعُشْدُ اقُّ فِي وَقْتِ الرَّحِيلِ

أتجد في هذا الشعر لفظاً غريباً ، أو معنى عويصاً ؟ أتشعر بأن بينك وبين
قائل هذا الشعر من بعد الأمد ، ما بينك وبين قائل تلك الأبيات الثلاثة في
وصف الناقة ؟

ثم أريد أن أرى لك من جلد أبي نواس هذه القصيدة التي سيعسر عليك
فهمها عُسْرًا ، شديداً ، كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة
وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور
أمير المؤمنين :

أَيُّهَا الْمُنتَابُ عَنْ عُفْرَةٍ لَسْتُ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمَرَةٍ
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرَةٍ

فَاتَّصِلْ إِنْ كُنْتَ مُتَّصِلًا
خِفتَ ماثورَ الحديثِ غداً
خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى بَلَدٍ
وَسَدَّتْهُ ثِنْيَ سَاعِلِهِ
فَامْضِ لَا تَمْنُنْ عَلَى يَدَا
رُبِّ فِتْيَانِ رَبَائِهِمْ
فَاتَّقُوا بِي مَا يَرِيبُهُمْ
وَابْنِ نَعْمٍ لَا يُكَاشِفُنَا
كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
وَرُضَابِ بَيْتٍ أَرْشَفُهُ
عَلَيْنِهِ خُوطُ إِسْجَلَةٍ
ذَا وَمُغْبِرٌ مَخَارِمُهُ
لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ

ثم يقول في وصف الفرس :

يَكْتَسِي عُشُونُهُ زَبَدًا
ثُمَّ يَغْتَمُ الْحِجَاجُ بِهِ
ثُمَّ تَذُرُّهُ الرِّيحُ كَمَا
كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا

ثم يتخلص إلى صاحبه فيقول :

ثُمَّ أَذْنَانِي إِلَى مَلِكٍ
تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَظَالِمَهَا
يَأْمَنُ الْجَانِي إِلَى حُجْرَةٍ
ثُمَّ تَسْتَذِرِي إِلَى عَصْرَةٍ

بِقُوَى مَنْ أَنْتَ مِنْ وَطَرِهِ
وَعَدُّ أَذْنِي لِمُنْتَظَرِهِ
غَيْرِ مَعْلُومِ مَدَى سَفَرِهِ
سِنَّةٌ حَلَّتْ إِلَى شُفْرِهِ
مَنْكَ الْمَعْرُوفِ مِنْ كَدَرِهِ
مَسْقَطِ الْعَيُوقِ مِنْ سَحَرِهِ
إِنَّ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حَذَرِهِ
قَدْ لَبِسْنَاهُ عَلَى غَمَرِهِ
كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجَرِهِ
يَنْقَعُ الظُّمَأُنُ مِنْ خَصَرِهِ
لَاَنْ مَتْنَاهُ لِمُهْتَصِرِهِ
تَحْسِرُ الْأَبْصَارُ عَنْ قُطْرِهِ
مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقَرِهِ

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرَةٍ !
فَاسْأَلْ عَنْ نَوَى تَوَمُّلِهِ حَسْبُكَ الْعَبَّاسُ مِنْ مَطَرَةٍ

ثم يقول :

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقًا وَتَرَاعَى الْمَوْتُ فِي صُورِهِ
رَاحَ فِي ثِنْيَيْ مُفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَدْمَى شَبَا ظُفْرِهِ
تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَدَوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف في إثارة الغريب ، حتى كأنه أراد أن يبهز أبا عبيدة والأصمعي وأمثالهما ، وأن يحير أصحاب النحو والعروض ، بما تكلف من غموض ، وبما ركب من ضرورة شعرية ؟ وفي الحق أن اللغويين تعبوا في تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله :

كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجَرِهِ

فإن مرجع هذا الضمير المذكور ليس بالواضح ولا الجلي ، وإن كان المعنى في نفسه واضحاً جلياً :

أليس معقولاً أن يقول بعض أئمة اللغة في أبي نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ! ففي هذا الشعر وأمثاله ما يرضى أنصار الغريب والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب الشاعر فيها ، من خير ما قال أبو نواس ، إذ فيها من دقيق المعنى وشريفه ما لا تكاد تجده في مدائحه الأخر ، ثم في لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به ، وتميل إليه ، دون أن تستطيع تفسيره في سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد في إثارة الغريب أحياناً ، حتى تكاد لاتفرق بينه وبين رؤية والعجاج ، فانظر إلى شيء من هذه الأرجوزة ، التي مدح فيها الفضل بن الربيع :

وبلدة فيها زور	صغراء تخطي في صعر
مرت إذا الذئب اقتفر	بها من القوم الأثر
كان له من الجزر	كل جنين ما اشكر
ولا تَعْلَاهُ شَعْر	ميت النساء حتى الشفر
عسفتها على خطر	وغرر من الغرر
ببارل حين فطر	يهزه حين الأشر
لا متشك من سدر	ولا قريب من خور
كأنه بعد الضمر	وبعد ما جال الصفر
وانمج في فحسر	جأب رباعي المشفر
يخدو بحقب كالأكر	تري بأثباج القصر
منهن توشيم الجدر	رعين أبكار الخضر

ثم يصل إلى المدح فيقول :

.....	إليك كلّفنا السفر
خوصاً يجاذبن النحر	قد انطوت منها السرر
طى القراري الحبر	لم تتقدها الطير
ولا السنيح المزدجر	يا فضل للقوم البطر
إذ ليس في الناس عصر	ولا من الخوف وزر

ثم يمضي في ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف ، شأن الذين ينحدرون من
الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هذه الطلسمات ، ولكني أرى أن
الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب ، الذي إنما تتسع له المدارس والجامعات .
على أني لا أريد أن تيأس من أبي نواس ، فتعتقد أنه لا يؤثر إلا الغريب ،

فالحق أنه قد آثر الغريب أحياناً ، وآثر السهل اللين أحياناً أخرى . ولقد نجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لا حيطة فيهما ، ولقد نجد من مدحه ما فيه مجون مع احتياط ، وأحسب أن أفهم ذلك وتعليقه ميسوران إذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس ، فقد مدح أشخاصاً لم يكن من السهل أن يتدئ مدحهم بالمجون ، أو أن ينزل في مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه ، ومدح أشخاصاً آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ، ويتجاوز الفكاهة إلى الدعابة ، فهو جاد حريص إذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجلد والهزل إذا مدح الأمين . ولعله اجتراً على الهزل في مدح الأمين بعد أن اتصل به ، وكثر اختلافه إلى مجالس لهوه وشربه ، وهو يتردد كذلك بين الهزل والجد حين يمدح هذا الأمين السمع ، الذي كان يطمع فيه الشعراء ، ويدلون عليه ، وهو العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر . وكثيراً ما داعب هذا الوزير الخطير ، الذي كان يهابه أيام الرشيد ، ثم طمع فيه أيام الأمين ، حين لان الخليفة له ، ويسر عليه في أمور كان يعسر فيها الرشيد ، وهو الفضل بن الربيع .

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق ، حين كان يعرض لمدح شاين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا ، لم يكن يرى مكاناً للكلفة بينه وبين ابني صديقه ونديمه ، الذي كثيراً ما خلصه من غضب الأمين ، وشفع له في مواقف حرجة ، اضطره إليها المجنون .

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعاً ، لأنه كان يحبهم ، ويدل عليهم ، ويطمع في الخير منهم ؛ ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ؛ لأن ميله إليهم لم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم ؛ وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك ، فيحتملونه احتمالاً ، ولا يضمرون له حباً صحيحاً . أما الصلة بينه وبين الخصب فستعرض لها بشيء من التفصيل . في غير هذا الفصل .

ولكننا لا نريد أن نتركك على ما رويناه لك من هذا الشعر الغريب ، فتم
مقال اليوم بهذه الأبيات التي مدح بها أبو نواس العباس بن عبيد الله ابن
أبي جعفر .

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ	فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ
وَاسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي	حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ
قَهْوَةً تَذْكُرُ نُوحًا	حِينَ شَادَ الْفُلُكَ نُوحُ
نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى	طِيبُ رِيحٍ فَتَفُوحُ
فَكَانَ الْقَوْمَ نُهَى	بَيْنَهُمْ مِسْكٌ ذَبِيحُ
أَنَا فِي دُنْيَا مِنْ آلِهِ	بِاسٍ أَغْدُو وَأَرْوَحُ
هَاشِمِيٌّ عَبْدِي	عِنْدَهُ يَغْلُو الْمَدِيحُ
عَلَّمَ الْجُودِ كِتَابُ	بَيْنَ عَيْنَيْهِ يُلُوحُ
كُلُّ جُودٍ يَا أَمِيرِي	مَا خَلَا جُودَكَ رِيحُ
إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا	أَبَدًا لَا تَسْتَرِيحُ
بُحُّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا	مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
مَالِ هَذَا آخِذٌ فَوْ	قَ يَدَيْهِ أَوْ نَصِيحُ
جَدْتَ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى	قِيلَ مَا هَذَا صَحِيحُ
صُورَ الْجُودِ مِثَالًا	وَلَهُ الْعَبَّاسُ زُوحُ
فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادُ	وَهُوَ بِالْعِرْضِ شَجِيحُ

خاتمة القول في أبي نواس^(١)

المدح - الرثاء - الهجاء - الزهد

فصلنا القول في هزل أبي نواس ومجونه تفصيلاً ، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول في جدّه إجمالاً ، لا لأننا نؤثر هزل أبي نواس على جدّه ، ولا لأننا نريد أن نتملق هذا الميل العام ، الذي يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجلد ، ويفضل ما يسر ويلهى ، على ما ليس له حظ من السرور واللّهو ، بل لأننا نعتقد أن شخصية أبي نواس ، في حقيقة الأمر ، إنما هي شخصية شاعر هازل ماجن ، تظهر الظهور كله ، إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات ، والتغنى بآثار هذه اللذات ، فترى فيها خفة ونشاطاً ، وشيئاً يشبه الترق ، أو هو الترق ، وترى فيها جرأة غريبة ، وحرصاً قليلاً جداً على الاحتياط ، وصراحة لا تعدلها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره في الخمر والمجون والنساء ، ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم ، ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذي رويناك لك تخيراً دقيقاً ، وراعينا فيه أخلاق الناس في هذا العصر وميولهم ، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البريء ، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين في الدين ، والمستمسكين بالأدب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين ، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبي نواس في اللّهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقلين ، وإنكار المنكرين ، وغلو قوم اتهمونا بألوان من التهم ، وأضافوا إلينا ضروباً من الخروج على الدين والأخلاق ، والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد .

ولو أننا روينا لك من شعر أبي نواس في العبث والدعابة ، وفي اللّهو والمجون ، دون تحفظ ولا احتياط ، لمثلنا لك شخصية على وجهها ، ولكننا

(١) نشرت بالسياسة في ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ - ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤ .

مؤرخين حقاً ، ولكننا كنا نتعرض لما لا نحب ، من إفساد الذوق ، والإساءة إلى الأخلاق ، فأبو نواس شاعر خطر ، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة من الناس ، يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا ، دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصيته شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ونحسب أن هذا الرجل لو خُلِّي وطبعه ، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية — إن صح هذا التعبير — إلى أن يصطنع الجلد من حين إلى حين ، لكان شعره كله هزلاً ومجوناً . وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هي سبيل من سبل اللذة ، ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجد إلا ليستعين بجده على الهزل ! أفنظنه مدح ، لأنه كان يحب ممدوحيه أو يكبِّرُهُمْ ؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل إليه ! كلا ! إنما مدح الخلفاء والوزراء والأمراء ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الحمر ، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة إلى شرب الحمر ، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات ، مدحهم لأنه كان في حاجة إلى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان في حاجة إلى أن يتملقهم ، ويتقى شرهم ، مدحهم مستجدياً ، ومدحهم متقياً . ولعله لم يخلص في مدح واحد من هؤلاء ، إلا نفراً نستطيع أن نتعرفهم ، إذا نظرنا في تاريخهم من جهة ، وفي سيرة أبي نواس معهم من جهة أخرى . لم يُخلص أبو نواس في مدح الرشيد ، وإنما مدحه مستجدياً أو متقياً . ولم يخلص أبو نواس في مدح البرامكة ، وأخلص أبو نواس في مدح الأمين ؛ لا لأنه كان يكبر الأمين ويُجلُّه ، بل لأنه كان ينادم الأمين ، ويرى فيه خليلاً على الشراب ، وصديقاً على اللذة . وكثيراً ما كان يسخر من الأمين إذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الأمين غير مرة . وقل مثل ذلك في مدحه للفضل بن الربيع وزير الأمين ، وقل مثل ذلك في مدحه لأبناء الفضل بن الربيع ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً أصدقاءه وندماؤه ، كما أنهم كانوا حماه ورازقيه . وقل مثل ذلك في مدحه للخصيب ؛ فقد بلغ الخصيب من الإنعام على أبي نواس والانبساط له حدّاً عظيماً . ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن في السكر ، ويفقد الرشد ، ويأتي من المنكرات ما يأتيه السكران إذا انتهوا من سكرهم إلى

الحد الأقصى ، ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة في الخمر التي مطلعها :

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ نِعْمَتْ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنْمِ

وهو في شر حال .

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص في مدح أبي نواس ، وإنما هو شيء متكلف ، تظهر فيه الصنعة ، ويستخفي فيه الطبع . وقد تحسُن هذه الصنعة حيناً ، وقد تسوء حيناً آخر ، وهي على كل حال ميالة إلى الإسراف والمبالغة ، وقليل فيها التجديد ، وكثير فيها الاعتماد على القدماء ، ومشاركة الشعراء في هذه الصفات الشائعة ، التي كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء ، يستجدون بها المال . فانظر إلى هذه الأبيات التي يقولها أبو نواس في مدح الرشيد :

وإلى أبي الأمناء هَارُونَ الَّذِي يَحْيَا بِصُوبِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانُ

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

فأما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى ، ولكن جماله لفظي . وأما الثاني

فلا يخلو من دقة ولا من جمال ، ولكن انظر إلى ما يقول بعد ذلك .

هَارُونُ أَلْفَنَا اثْتِلَافَ مَوَدَّةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ

فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ تَنْبَتَ بَيْنَ نَوَاهُمَا الْأَقْرَانُ

حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكَرَى بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَحْدَانُ

يَرْمِي بِهِنَّ نِيَّاطَ كُلِّ تَنُوقَةٍ فِي اللَّهِ رَحَالٌ بِهَا طَعَانُ

حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبَالَ الصُّفَا حَنَّ الْحَطِيمُ وَأَطَّتِ الْأَرْكَانُ

لَاغَرٍ يَنْفَرُجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ عَدْلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيْمَانُ

يَضَلِّي الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَةٍ لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الْأَكْنَانُ

لَكِنَّهُ فِي اللَّهِ مُبْتَذِلٌ لَهَا إِنَّ التَّقَى مُسَدَّدٌ وَمُعَانُ

أفترى في هذا الكلام كله شيئاً قيماً ، أو معنى طريفاً ؟ أفترى له بأكثر من

الجمال اللفظي ، يلقاك من حين إلى حين ؟ ثم ألسنت تضع يدك على الصنعة ؟

ألست تتبين التكلف واضحاً جلياً ؟ ثم انظر إلى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ، ولكن التكلف فيهما ملموس :

أَلِفَتْ مُنَادِمَةَ الدِّمَاءِ سُيُوفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ حَفَقَانُ

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى ، وأعجب به ، فأعاده في قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجادة ، وأبعد عن التكلف ، وذلك حيث يقول :

مَلِكٌ تَطِيبُ طِبَاعُهُ وَمِزَاجُهُ عَذْبُ الْمَذَاقِ عَلَى فَمِ الْمُتَذَوِّقِ
يَلْقَى جَمِيعَ الْأَمْرِ وَهُوَ مُقَسَّمٌ بَيْنَ الْمَنَاسِكِ وَالْعَدُوِّ الْمُوثِقِ
يَحْمِيكَ مِمَّا تَسْتَفْهِرُ بِفِعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهِ لَا يَرِيْبُكَ مُشْرِقِ
حَتَّى إِذَا أَمْضَى عَزِيمَةً رَأَيْهِ أَخَذَتْ بِسَمْعِ عَدُوِّهِ وَالْمَنْطِقِ

فهذا كله كلام عذب سهل ، ولكنه عاديٌّ مألوف . أما المعنى الذي أشرنا إليه في القصيدة الماضية ، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَيْكَ جُهْدَ أَلِيَّةٍ قَسَمًا بِكُلِّ مَقْصَرٍ وَمُحَلَّقٍ
لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ الْمُتَّقِي
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

فانظر إلى هذا البيت ، وقارن بينه وبين قوله :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ألست ترى أنه أقل تكلفاً في اللفظ ، وأكثر صفاء في الأسلوب ، ومع ذلك فالمعنى في نفسه سخيّف ، لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك ، واختلفوا فيه ، فمنهم من أنكر على أبي نواس هذه الإحالة ، ومنهم من أعجب بها .

وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم ، وأثر على هذا المعنى عند أبي نواس قول
أشجع السُّلَمَى في مدح الرشيد :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيْفُوكَ الْأَخْلَامِ

فهذا الشعر متين رصين ، وهو في الوقت نفسه صحيح مستقيم ، لا ينكره
العقل ، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته
أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ،
فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل ،
وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب ، راض عن حياته في مصر ، سعد بهذه
الحياة ، فشعره يصف هذا كله ، ويمثله تمثيلاً صادقاً ، ولست أروى لك
القصيدة المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ

ولكن اقرأ شيئاً من قصيدة أخرى ، لم يكثر الناس تناقلها ، وانظر ألا ترى
الشاعر فيها سعيداً مغتبطاً بحاضره ، عظيم الأمل في مستقبله :

ذَكَرَ الْكَرَّخَ نَارِخُ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبُوءٌ وَلَاتَ أَوَانِ
لَيْسَ لِي مُسْعِدٌ بِمِضْرَ عَلَى الشُّوْ قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانِ
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي وَرَوَّاحِي إِلَى بُيُوتِ الْقِيَانِ
وَاعْتِفَالِي الْمَوْلَى لِاخْتِلَاسِ الْغَمِّ زَةَ مِمَّنْ أُحِبُّهُ بِالْبَنَانِ
وَاعْتِمَالِي الْكُؤُوسَ فِي الشُّرْبِ تَسْعَى مُتْرَعَاتٍ كَخَالِصِ الزَّعْفَرَانِ
يَا بَنْتِي أَبْشِرِي بِمِيرَةِ مِضْرٍ وَتَمْنِي وَأَسْرَفِي فِي الْأَمَانِ
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفَ الزَّمَانِ
كَيْفَ أَخْشَى عَلَى غَوْلِ اللَّيَالِي وَمَكَانِي مِنْ الْخَصِيبِ مَكَانِي

ثم يقول :

قَادَنِي نَحْوُكَ الرَّجَاءُ فَصَدَّقْتُ رَجَائِي وَاخْتَرْتُ حَمْدَ لِسَانِي
إِنَّمَا يَشْتَرِي الْمَحَامِدَ حُرٌّ طَابَ نَفْسًا لَهْنٌ بِالْأَثْمَانِ

ولم لا يكون سعيداً ! ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق ، وهو
يقضى نهاره وليله بين الأمير ودور اللّهو !

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز ،
فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء
أضعف شعر أبي نواس . وهذا واضح ؛ فلم يكن أبو نواس رجلاً محزوناً ،
ولا ميالاً إلى الحزن ، وإنما كان رجلاً مبتهجاً بطبعه ، أو كان هو الابتهاج .
فليس غريباً أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريباً أن يتكلفه إذا اضطر إليه ، ثم
لا تنس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية ، وعجز الذين
أرادوا أن يحملوه على الزواج ، فلم تكن له أسرة ، ولم يعيش بين أبنائه وبناته ،
فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة ، التي تنشأ الحياة المنزلية الصالحة .
وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاج .

أما صلوات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس ، فلم يكن أكثرها
يقوم على الجلد ، وإنما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مديناً
لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين
تقرأ مراثيه القليلة ، وأنا أزعج أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة ،
وذلك حين رثى الأمين في هذه الأبيات :

طَوَى الْمَوْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي الْمَنِيَّةُ نَاشِرُ
فَلَا وَضَلَ إِلَّا عِبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَالَهَا الدَّهْرُ ذَاكِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرُ
لَئِنْ عَمِرْتُ دُورَ بَيْتٍ لَا أَوْدُهُ لَقَدْ عَمَرْتُ مِمَّنْ أَحِبَّ الْمَقَابِرُ
فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك في أن
أبا نواس كان يشعر بضعفه في هذا الفن ، وكان مع ذلك يحاول أن يخفي هذا

الضعف ، فكان يسلك إلى إخفائه سبلا مختلفة ، أظهرها الإكثار من الوصف .
على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما إلى ذلك .

ليس لثراء أبي نواس قيمة ، فخير ألا نطيل فيه ، وأن نتقل إلى فن آخر ،
أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ليست أقل من إجادته في الخمر ، ولا في
المجون ؛ لأنه ياب من المجون ، وهو الهجاء . على أننا نسرف إذا قلنا إن هجاء
أبي نواس مجون كله ؛ ففي هجاء أبي نواس جد كثير ، وفيه هزل كثير .
ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلا مطولا ، ولكننا
مضطرون إلى أن نعدل عن ذلك ، لأن أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش
القول ومقدعه ، فليس إلى روايته من سبيل . فلنكتف بأن نعطيك منه
صورة موجزة جداً ، ولنلاحظ قبل كل شئ أن هجاء أبي نواس ينقسم أقساماً ،
فهناك الهجاء السياسي ، وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين : أحدهما هجاء
أبي نواس للعرب عامة ، وللترايين خاصة ؛ فقد كان أبو نواس شديد
الميل إلى الفرس ، وكان لا يحب من العرب إلا اليمانية ، فأما التزارية فقد كان
يزدرهم ، ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاً حتى يروى
أن الرشيد حبسه في ذلك الوقت ، وكان لا يكاد يستثنى قريشاً ، فإذا فعل
فخافة السيف ، لأن النبوة والخلافة كانتا في قريش . القسم الآخر من هجائه
السياسي هجاؤه للذين عاشروه من الأمراء والوزراء ؛ فقد كان أبو نواس يكره
البرامكة ، وكان يكره الأمويين ، وكان ينال أولئك وهؤلاء بفاحش القول .
ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحماً إذا هجا أعداءه السياسيين ، وإنما
يظهر أنه كان شديد الضغن ، منكر الحق . فانظر إلى هذه الأبيات التي
هجا بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الأمين :

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ	بِكَأْسِ بَنِي مَاهَانَ ضَرْبَةً لَازِمَ-
أَتُسَمِّنُ أَوْلَادَ الطَّرِيدِ وَرَهْطَهُ	بِإِهْزَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمَ-
وَإِنْ ذَكَرَ الْجَعْلِيَّ أَذْرَيْتَ عَبْرَةً	وَقُلْتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمَ-

وَتُخْبِرُ مَنْ لَأَقَيْتَ أَنَّكَ صَائِمٌ وَتَغْدُو بِحَجَرٍ مُفْطِرًا غَيْرَ صَائِمٍ
فَإِنْ يَسِرَّ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمٍ
فانظر إلى هذه الوقعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فليست
أقل نكراً مما رويها لك :

أَلَسْتَ أَمِينَ اللَّهِ سَيْفُكَ نِقْمَةٌ إِذَا مَاقَ يَوْمًا فِي خِلَافِكَ مَائِقُ
فَكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ يَسْلُمُ مِثْلُهُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْكَ مُنَافِقُ
أُعِيدُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ شَرِّ كَاتِبٍ لَهُ قَلَمٌ زَانٍ وَآخِرُ سَارِقُ
أُحْيِمِرَ عَادَ إِنَّ لِلسَّيْفِ وَقْعَةً بِرَأْسِكَ فَانْظُرْ بَعْدَهَا مَا تُوَافِقُ
تَجْهَزُ جَهَازَ الْبَرْمَكِيِّينَ وَانْتَظِرْ بَقِيَّةَ لَيْلٍ صُبْحُهُ بِكَ لَاحِقُ
وقسم آخر من هجاء أبي نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب
النحو والكلام ؛ فقد هجا الهيثم بن عدي ، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين
المنكرين ، ويروى أنه كتبهما على الحائط ، حيث كان يدرس أبو عبيدة :

صَلَّى إِلَاهَ عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ أبا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِنَا
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلا شَكٍّ بَقِيَّتُهُ مُنْذُ احْتَلَمْتَ وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَ

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الأبيات :

قُولَا لِإِبْرَاهِيمَ قَوْلَا هُتْرَا غَلَبْتَنِي زَنْدَقَةٌ وَكُفْرَا
إِنْ قُلْتَ مَا تَشْرَبُ قَالَ خَمْرَا
إِنْ قُلْتَ مَا نَتْرُكُ قَالَ بَرَا أَوْ قُلْتَ مَا تَرْهَبُ قَالَ بَحْرَا
أَوْ قُلْتَ مَا تَقُولُ قَالَ شَرَا أَصْلَاهُ رَبِّي لَهَبًا وَجَمْرَا
ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النظام بقصيدته التي أولها :

* دَعْ عَنْكَ لَوْيَ فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ *

والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ، ويعجبون
بشعره ، ولعل شيئاً من هذا الإعجاب مصدره الخوف ؛ فقد كان أبو نواس ينذر

العلماء إذا احتاج إلى ذلك، ولما لم يجد له الكلبي نسباً في أنساب العرب قال فيه :

أَبَا مُنْدِرٍ مَا بَالُ أَبْوَابٍ مَذْجٍ مُغْلَقَةً دُونِي وَأَنْتَ صَدِيقِي
فَإِنْ تَعَزُّ فِي بَأْتِكَ ثَنَائِي وَمِذْحَتِي وَإِنْ تَأْبَ لَا يُسَدِّدْ عَلَيْكَ طَرِيقِي

وقسم ثالث من هجاء أبي نواس ، هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء والندامى ،
فله في الرقاشي وفي بني نوبخت كلام كثير مقذع . وظاهر أن رجلاً كأبي نواس
حياته بين الكأس والطاس ، في لعب ومزاح ، كان من خفة الروح ،
وتوقد الذكاء ، ودقه الفطنة ، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا هجا ، فهو
من أشد الشعراء في عصره إقذاعاً ، ومن أكثرهم نكاية بالخصم ، وفي هجائه
ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً قليلاً ، فانظر
إلى قوله :

أَمَاتَ اللَّهُ مِنْ جُوعٍ رَقَاشاً فَلَوْلَا الْجُوعُ مَامَاتَ رَقَاشُ
وَلَوْ أَشْمَمْتَ مَوْتَاهُمْ رَغِيفاً وَقَدْ سَكَنُوا الْقُبُورَ إِذْ نَلَعَاشُوا

وانظر إلى قوله في هجاء داود بن زرين راوية بشار :

إِذَا أَنْشَدَ دَاوُدُ فَقُلْ أَحْسَنَ بَشَارُ
لَهُ مِنْ شِغْرِ الْغَثِ إِذَا مَا شَاءَ أَشْعَارُ
وَمَا مِنْهَا لَهُ شَيْءٌ إِلَّا هَذَا هُوَ الْعَارُ

وانظر إلى هذين البيتين :

بِمَا أَهْجُوكَ لَا أَذْرِي لِسَانِي فِيكَ لَا يَجْرِي
إِذَا فَكَّرْتُ فِي عِرْضِي لَكَ أَشْفَقْتُ عَلَى شِعْرِي

وانظر إلى قوله :

سِيرُوا إِلَى أَبْعَدِ مُنْتَابٍ قَدْ ظَهَرَ الدُّجَالُ بِالزَّابِ
هَذَا ابْنُ نُوبَخْتٍ لَهُ إِمْرَةٌ صَاحِبُ كُتَابٍ وَحُجَابِ

وانظر إلى قوله في البرامكة :

إِنِّي لَوْلَا شِقَاءُ جَدِّي مَا مَاتَ مُوسَى كَذًّا سَرِيعًا
وَلَا طَوْتُهُ الْمَدُونُ حَتَّى أَرَى بَنِي بَرْمَكٍ جَمِيعًا
هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَعْ وَكُنْ لَهُمْ سَامِعًا مَطِيعًا

وهذا أخف ما قال أبو نواس في الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه ، لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حدًّا يحول بيننا وبين روايته .

* * *

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجازة مطلقة ، ولعله أول من اتخذها فناً مستقلاً من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طواها وقصارها ، وهو فن الصيد ، ولكني لا أحدثك عنه في هذا الفصل ، لأن أبا نواس قد أثر فيه الغريب إثارة شديداً ، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة ، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير . ولعل أوفق إلى جمع هذه الفصول كلها في كتاب ، فأضيف إليها فصلاً عن الصيد في شعر أبي نواس .

أما الفن الذي أريد أن أختم به القول في أبي نواس ، فهو فن الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجازة لا بأس بها ، وذلك مفهوم أيضاً : فلو أنك أردت أن تبين فلسفة أبي نواس لما استطعت إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ، ويسخر منها ، ولعلك تدهش إذا قلت لك إنني أشبه أبا نواس بأبي العلاء ، تدهش لأن أبا نواس مشرق مبتسم ، في حين كان أبو العلاء عابساً مكتئباً ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفجور ، في حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبي العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمحها مقتاً شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدرها ، ويستعين عليها باللذة واللهو ، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة ، فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفي الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ،

ومنهم متشائم يعبس ويبكى وهم جميعاً متشائمون ، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهى أن الحياة شىء ليس بذى حذر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهى إلى خير ، فلتنقض فى لعب وهو ، أو فلتنقض فى حكمة وزهد ، هذا شىء يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريباً إذاً أن يجيد أبو نواس فى المجون وفى الزهد معاً ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبي نواس أكان هو مسلماً حقاً أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام ، وازدري أصوله وقواعده غير مرة فى حياته الطويلة ، ولتقل إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة ، التى قالها فى الزهد :

أَيَّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَارِحُ	أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ
وَنَاصِحٍ لَوْ حَظِيَ النَّاصِحُ	لِلَّهِ دَرُ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ
وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٌ	يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا أَتْبَاعَ الْهَوَى
مُهِورُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ	فَاسْمُ بَعِيْنَيْكَ إِلَى نِسْوَةٍ
إِلَّا أَمْرُو مِيزَانِهِ رَاجِحُ	لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خِدْرِهَا
سِيقَ إِلَيْهِ الْمَشَجَرُ الرَّابِحُ	مَنْ أَتَقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي
وَرُوحَ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحُ	شَمَرُ فَمَا فِي الدِّينِ أَغْلُوطَةٌ

(١) الوليد بن يزيد

كان خليعاً ماجناً ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونته ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر ، فسطوا على شعره ، وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصاباً ، لم يروا في ذلك حرجاً ، ولم يخشوا في ذلك دفاعاً . كان الوليد أمويّاً ، فكان بغيضاً إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً إلى بني أمية أنفسهم ، قبل أن يمكن الله لبني العباس في الأرض ؛ فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية ؛ لأنه كان بغيضاً إلى قومه ، ولأن التوفيق السياسي أخطأه ، ولأنه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ، ولأن قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوية سيرته ، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل ، وحسّلوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسي ، وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها إلى النصر ، ثم كانت ثورة العباسيين ، واستقرار الأمر لهم ، فشمل البغض بني أمية وكان حظ الوليد منه مضاعفاً ، وتقرب الناس إلى بني العباس بلعن بني أمية جميعاً ، خيّرهم وشريرهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعاً ، وبلعن على رضى الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد ، والنعي عليه ، ورميه بالكفر حيناً ، وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفراً وفجوراً إليه ، يجب أن تحتاط في هذا كله ، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول ، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك ، بل قاله الأولون ؛ فقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً ، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بني العباس ، وإلى عامة الناس ، بالطعن فيه ، والنعي عليه ، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة ، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ - ٢ أبريل سنة ١٩٢٤ .

ينالونها بضروب الغضب ، ويُسْتَرْوَن بها ألوان السخط . وأما القليل من هؤلاء الأولين ، فكانوا يقصدون في ذلك . فيسكتون ، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة ، فدافع عنه في رفق وحذر . قالوا : دخل مروان بن أبي حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد ، فتردد ، فأعفاه الرشيد من آثار قوله ؛ فقال : « كان من أصبح الناس ، وأظرف الناس ، وأشعر الناس » فاستنشد الرشيد من شعره ، فأنشده هذه الأبيات :

لَبِيتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى بَرَى مَكِيَالَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ أَتَرَعَا
كِلْنَا لَهُ الصَّاعِ اللَّيِّ كَالهَا فَمَا ظَلَمْنَاهُ بِهَا أَضْوَعَا
لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتِيهِ عَنْ بِدْعَةٍ أَحَلَّهَا الْقُرْآنُ لِي أَجْمَعَا

قالوا : فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له . وتحدثوا أن رجلا من ولد الغمري بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى قريش ، فسأله أن يخصص ، وأمنه على نفسه إن ظهر أنه مرواني ، فلما ذكر الرجل نسبه ، بش له الرشيد ، وقال لعن الله قاتلي أبيك ، فقد قتلوا خليفة مُجْتَمِعاً عليه ، وقضى حوائجه . وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدي ، قال الرواة إن فقيهاً من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدي استطاع أن يدفع عن الوليد حين اتهم بالزندقة ، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ، ولكنه ذكر شُرْبِهِ وَجِبَهُ لِلَّهِ ، وعكوفه عليه . ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفاً في اللهو والفجور إلى غير حد ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحاً ، وإنما كان رجلاً من الناس ، أحب اللذة وكلف بها ، وأعانتها عليها ظروف نريد أن نُجْمِلَهَا ، فأخذ منها بحظ موفور دون ، أن يخرج ذلك عن دينه ، أو يتجاوز به حدود ما ينبغي للخلفاء في عصره ، ولكنه كان شقياً سيئ الحظ ، جنت عليه الظروف السياسية التي عاش فيها أكثر مما جنى عليه لهوه ومجونه .

أول هذه الظروف السياسية التي جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكنه كان غلاماً ، فتوسط بينه وبين أبيه في الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ، ولم يكد يتم الأمر لهشام ، حتى طمع في الخلافة

لابنه ، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد ، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليَفَيِّنَ للوليد ، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيراً في نفس هشام من العهد والوفاء به ، أزمع هشام خلع الوليد ، وأخذ يحتال في ذلك ، ويعد له ، وأحس الوليد ذلك ، فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد ، واشتدت شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت عداً صريحاً ، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة ، ويرتحل إلى البادية ، مغاضباً لعمه ، مجتنباً شره ، فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضاً لابن أخيه ، وحقداً عليه ، وإلا اضطهاداً له ولأوليائه وأخبار ذلك كثيرة متثرة في الكتب ، وبأى شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن بيعته ، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق ! وقد انتفع هشام بهذا ، وأسرف في الانتفاع به ، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والإدمان ، والكفر والزندقة ، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ، ومكذب ، ولكنه يتملق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع ، فلأمر ما كان مغنوه يغنونه هذين البيتين .

يَأْيُهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
نَشْرَبُهَا صِرْفاً وَمَمْرُوجَةً بِالسُّخْنِ أَخِيَاناً وَبِالْفَاتِرِ

وأبو شاكر هذا هو مَسْلَمَةُ بن هشام ، الذي كان يوشح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا أن هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة ثم عن رأيه فيه ، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأل : ما شرابك ؟ فأجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب ، إنما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ، ومن الخلفاء أنفسهم ، كان يشرب كهشام وبني هشام ، ولكن الغرض السيامي أباح لهشام أن يذمه ، ويشنع عليه بما كان يأتي هو ، وبما كان يأتي أبناؤه .

كان الوليد مضطهداً أيام هشام ، فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره إلى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يتاله به السلطان من الحن من جهة ، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذي لا يريد أن يضعف ، ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عناداً ، وكان يشرب طالباً للعزاء ، ومضى

في الشرب عناداً وتعزياً ، حتى شغف به شغفاً غير مألوف ، فأمكن من نفسه ، وصدق بعد آراء الناس فيه ، مات هشام دون أن يستطيع خلعه ، ولكنه كان قد استطاع إيذاءه وإيذاء أصحابه ، ونالهم بمحن كثيرة شديدة ، فلما تم له الأمر ، وتبوا دار الخلافة ، جرى مع طبيعته ، فانتقم وأسرف في الانتقام ، كما أسرف هشام في الإساءة إليه ، ولكنه انتقم من الأبرياء ، أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا إليه إلا تأثراً لهشام ، وكذلك شأن الانتقام السياسي ، يصيب البريء قبل أن يصيب المسيء . ثم لم يكتف الوليد بالإسراف في الانتقام ، بل أسرف في شيء آخر . كان محروماً أيام عمه ، فجرى مع طبيعته ، وأراد أن يستوفي حقه بعد الحرمان ، فتجاوز الحق . كان مقتسراً عليه ، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه ، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة ، فأسرف فيها ، كان مُضيقاً عليه ، يختلس اللهواختلاساً ، ويفر باللذة فراراً ، وقد أصبح الآن صاحب السلطان ، فأطلق لنفسه عنانها ، وأخذ من اللذة ما استطاع ، وفوق ما استطاع .

ثم لم يكف يصل إلى الخلافة ويتقم لنفسه ، حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ؛ فقد كَوّن حزباً قوياً يكره الوليد ، ويأتمر به ، ويرثي لأبناء هشام ، ويبث الدعوة للتشيع على الوليد ، وإساءة رأى الناس فيه ، فلم يكن بدءاً للوليد من أن يدفع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكاً ولا قدسياً ، وإنما كان رجلاً من الناس ، وكان أمويّاً من بني أمية ، فيه أخلاقهم وخصالهم ، وفيه عُنْفُهم وعنادهم ، وفيه غرورهم وطغيانهم ، فلقى الشر بالشر ، وتحدى خصومه ، فأمكنهم من نفسه ، وصدق رأيهم فيه ، ثم انتصر على خصومه ، فخلعوه وقتلوه ، وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمّد الناس ما فعلوا ، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا ، ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعاً في رأى الخلفاء العباسيين ، وعامة الناس ، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء ، كفرّة فُجَّاراً ، وأصبح الوليد مثالا لكفرهم وفجورهم ، وكذلك يُكْتَسَبُ التاريخ ، فَيُظَلَمُ فيه ناس من الحق ألا يظلموا .

لأنريد أن ندافع عن الوليد ، فليس يغني الدفاع عن الوليد شيئاً ، ليس يعنينا في حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيراً أو شريراً ، ولكن أماننا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصوراً صحيحاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ،

فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكماً قريباً من الصدق ، كان من الحق أن نقول : إنه كان رجلاً مستمتعاً بلذاته ، مسرفاً في هذا الاستمتاع ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف في الإثم ، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطراراً ، إما باضطهادهم إياه ، وإما بتشنيعهم عليه وتحدّ بهم له .

ولقد نريد أن ننظر إلى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية . نريد أن ننظر إليه من الوجهة الأدبية ؛ فقد كان الوليد أديباً ، وكان شاعراً ، وهذا وحده هو الذي يعنينا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة ، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص ، ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ، ولم يبق منها إلا الشيء القليل ، ذهبت لتعصب الناس عليه ، وتحرّجهم من رواية شعره ، وما نحسب أن هذا التحرج كان دينياً فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون ، وإنما كان هذا التحرج سياسياً . ومن يدري ! لعل هذا التحرج السياسي قد أضاع علينا من آثار بني أمية شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظاً يتناقله الناس في القرن الرابع ، فإننا نجد في الأغاني أن قصائد الوليد (تدل على نفسها) ؛ ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها وإثباتها ، وليته فعل ، فإن هذه القصائد التي كانت تدل على نفسها في القرن الرابع ، لم يبق منها الآن شيء إلا هذه المقطوعات التي أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج ، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير إذن أن نعطي من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون ومع ذلك فهي خير من لا شيء .

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعراً صادقاً لا يكذب ، ولا يميل إلى الكذب في شعره ، ولم يكذب ، وهو من فتيان بني أمية ، عزيز النفس ، رفيع المنزلة ، ليس في حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة ، وليس في حاجة إلى أن يهجو ، ليدفع عن نفسه خصماً يكافئه . وأى الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولي عهد المسلمين ؟ ولو فعل فما كان ولي عهد المسلمين ليهجوه ، وإنما كانت السبيل في ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفاً في حياته . وكأنه كان يزدري الناس ، ولا يحفل بهم ، ولم

لا يزدريهم وقد رآهم يتملقون عمه ، ويعينونه على الظلم ، ونقض العهد ، لا لشيء إلا لأنه صاحب السلطان ! أفيحفل بمثل هؤلاء ! وإذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه ، أو يتحلل من الحصال خصلة لا تعجبه .

قالوا : كان الوليد متزوجاً من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان ، فعرف أن لزوجته أختاً تفوقها جمالا وحسناً ، فطلّق زوجته ، وأراد أن يقترن بأختها ، فخطبها إلى أبيها ، وعرف ذلك هشام ، فأرسل إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه ، ويتزوج تلك ؟ فرد سعيد خطبة الوليد . فقال الوليد : هذا سعيد يرد خطبتي ، ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعاً . . . وفي الحق أن سعيداً لم يردّ هذه الخطبة إلا مجازاة لهشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ، ورأى الوليد في الناس رأيه ، أن يحفل بهم ، أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد ، فلم يكن يحاول إرضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة ، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حباً في الشعر ؛ لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً ، وإنما كان يلهو ، أو كان يجدّ ، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لوه وجدده ، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب ، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه ، وترجم عن عواطفه ، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقاً ، يمثل نفسه تمثيلاً صحيحاً . وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغیضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية ، منه إلى الجودة ، فقد قلت لك إنه لم يكن يتكلف هذه الجودة ، ولا يطمع فيها ، وإنما كان يقول جرياً مع الطبع ، ولم يكن يقول الشعر إلا وهو متأثر بما يَسُرُّ أو يُحْزِنُ ، وإذن فقد كان مشغولاً بسروره وحزنه عن الألفاظ ، كان يقول الشعر وهو سكران ، يشرب ويضطرب بما حوله ، وكان همه أن يكون قد نال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه ، أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره ، لأنه كان معجباً بنفسه ، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس ، وكان يحب أن ينظر كثيراً في هذه المرآة ، ولذلك كان لا يكاد يقول شعراً إلا طلب إلى أحد المغنين أن يغنى له فيه صوتاً ، وربما قال الأبيات ،

فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها ، فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .
وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظاً ولا معنى ،
وإنما يغترفه اغترافاً سهلاً لا مشقة فيه ، يكفى أن يخطر الحاطر ، أو تعرض
الحادثة ، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتاً ، أى يقول فيها كلاماً كان يستطيع أن
يقوله نثراً ، ولكنه تعود النظم ، فهو ينظم فى غير عُسْر ، ولهذا كان الشعر
أيسر شئ على الوليد ، كان يتكلم شعراً حين ينثر الناس ، كان إذا أعجبه
شئ عادى وصفه شعراً ، وكان إذا اشتهى شيئاً اشتهاه شعراً ، وكان إذا
غمه شئ مهما يكن جليلاً أو ضئيلاً عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر
كالنثر عند غيره ؛ ولهذا اصطنع من بحور الشعور أخفها وألطفها ، وأقربها
إلى النثر ، وأشدّها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها ، فقليل ما تجد
عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة ، وإنما شعره كله هَزَجٌ وَرَمَلٌ ، وهو
إذا عمد إلى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء ، وخففها تخفيفاً ، فاختر أيسرها
وأقصرها . قلت لك : إنه لم يكن ينظم الشعر ، وإنما كان يتكلمه ، وهو فى
هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ؛ فقد حدثتك عن أبي نواس أنه
كان إذا لها أو تغزل أثر الشعر أيسرها وأقصرها ، وأخفها موقعاً ، وأدناها
من النثر مكاناً ، وكذلك كان غير أبي نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم
فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجدل فى شعره ، لاختار لهذا الحد من
الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ، ولكنه لم يكن يجد فى شعره كثيراً ،
فقد قلت لك إنه لم يكد يمدح ولم يكد يهجو ، وإنما تعاطى من فنون الشعر
ضروباً خاصة ، وصف الحمر لأنه كان يشربها ، ووصف اللذة لأنه كان
يستمتع بها ووصف الصيد لأنه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر
السهل ، وإلى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً ، فقد ذكرت لك أنه
أحب أخت زوجته ، وكانت هذه المرأة التى فتن بها تسمى سلمى
بنت سعيد ، فلا تكاد تجد شعراً للوليد يخلو من سلمى ، وهو يفتن فى ذكر
سلمى افتناناً عظيماً ، فيذكر اسمها مُكَبِّراً وَمُصَغِّراً ، ويذكره كاملاً
وَمُرْخَماً ، ويتخذ مرة كُنْيَةً لها ، كأنه يداعبها ، ومن الغريب أنه كان فى

هذا الحب سيئ الحظ ، كما كان في حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فندم على تطليق امرأته ، وكأنه أحبها ، فأراد أن يراجعها ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلاً آخر ، فقال في ذلك شعراً لذيذاً ، ولكنه يثس من امرأته ، فانصرف إلى عشيقته سلمى ، وكأنها كانت تحبه ، بل كانت تحبه ، ولكنها كانت تطيع أباه وتكبره ، فكان الوليد ينسب بها حياته ، وكان شعره يصل إليها ؛ وكان يحب أن يسمع رأيها في هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه ، بل لأنه يريد أن يجد في كلامها صدى لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيداً وهجاءه ، فبلغ ذلك سلمى ، فغضبت لهجاء أبيها ، وبلغ الوليد أنها مغضبة ، فترضها بشعر كثير ، وترضى أباه ، واعتذر إليه . وظل هشام في وجد وحزن ، يحب ولا يصل إلى من يحب ، وله في ذلك فنون ، فقد احتال ذات يوم في أن يدخل قصر سعيد ، فيقال إنه لقي زياتاً يسوق حمراً ، فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته ، ونزل له عن فرسه وثيابه ، ومضى يبيع الزيت ، حتى دخل قصر سعيد يعرض زيت ، ورأته سلمى ورآها ، ثم نهروا الخدم ، فانصرف وقال في ذلك شعراً . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة ، خطب سلمى إلى أبيها ، فقبل خطبته هذه المرة ، وزوجه ابنته ، وللوليد في ذلك شعر عذب لذيذ ، من أخف الشعر ظلاً ، وأحسنه في النفوس وقعاً ، ولكني قلت لك إن الوليد كان سيئ الحظ في حبه ، كما كان سيئ الحظ في حياته كلها ، فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعاً شديداً ، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزناً وأسى ، ولكننا نقول إنه يمثل نفس الوليد ، التي كانت تعرف كيف تحزن ، كما كانت تعرف كيف تبهج . ويكنى أن تقرأ شعر الوليد في سلمى هذه حية وميتة ، لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر ، ولا يحرص على الإجادة فيه ؛ وإنما كان يرسله كما يرسل أنفاسه ، في سهولة ويسر ، فإذا هو حارٌ حيناً ، وفاتر حيناً ، وقد يصل إلى البرد حيناً آخر .

ثم للوليد جد ، ولكننا لم نحفظ منه إلا قليلاً ، فقد خاصم هشاماً ، فاضطره هذا الخصام إلى شيء من الفخر والعتب ، ونالته مِحَنٌ اضطرتته إلى

أن يقول فيها شعراً ؛ وفقد ابناً له فرثاه ؛ وهو في هذا الجلد كله قوى متين ، لا يخلو من جلال ورصانة .

ولم يكن الوليد شاعراً فحسب ، وكأنه كان يتصرف في النثر تصرفاً حسناً ، فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ، ولكني أتردد (وأظن أني محق) في نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام ، وأحسب أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ، وليست أشك في ذلك بالقياس إلى هشام ، وأنا أرجحه بالقياس إلى الوليد ، ومهما يكن من شيء فإن معاني هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلاً لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالماً بأيام العرب وأحداثها ، وبأشياء أخرى كثيرة ، وأحسب أن اتصاله بالموالي من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة ، ومال معهم إلى مذهب « ماني » ، وليس من شك في أنه كان يُكَلِّمُ باصطلاحات حديثة : علمية أو فلسفية ، ظهرت في شعره عند ما وصف الحمر ، كما ظهرت في شعر أبي نواس ، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبي نواس ليس بالقليل ، كان الوليد أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة ، وذلك ظاهر جلي في شعره ، فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس في لهوه ومجونه حَصْرِيّاً ، قدرك حتى كاد ينمحي رقة وخفة .

ولنختصر ، فللوليد شخصيتان : شخصيته السياسية التاريخية ، التي حدثت عنها في أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلاصة ، فليست منفرة ولا بغیضة ، وهي لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين يذكرون بالخير ، ولعلمهم ليسوا أقل إثماً من الوليد . وشخصيته الأدبية : شخصيته من حيث هو شاعر . وأحسب أني قد رسمتها لك رسماً إلاّ يكن صادقاً كل الصدق ، فليس بعيداً عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً ظريفاً ، جذاباً خفيف الروح . ولكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات التي قدمتها ، ولا بد لذلك من أن ننقل إلى طائفة من شعره ؛ فليكن ذلك في الفصل الآتي .

مطيع بن إياس^(١)

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد ، لأنى وعدتك فى الأسبوع
الماضى أن أستأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لى ، فسأحدثك عن شاعر
آخر ، ولست أكره إخلاف هذا الوعد ؛ فمن اليسير عليك ، ومن الخير
لك لى ، إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد ، وتتثبت صحة تلك الصورة التى
رسمتها لك من شخصيته ، أن ترجع إلى كتاب الأغانى ، وما روى فيه
أبو الفرج من شعر الوليد ، فى ذلك مقنع لك ، وفى ذلك فائدة أعظم وأجدى
من الفائدة التى تجنيها لو أنى رويت لك طرفاً من شعر الوليد فى هذا الحديث ،
ومن يدرى ! لعلك إن رجعت إلى أخبار الوليد وأشعاره فى الأغانى صححت
بعض ما قد أكون تورطت فيه من خطأ ، ومهما يكن من شىء ، فإن رجوعك
إلى الأغانى بعد أن قرأت حديثى عن الوليد ، أنفع لك ، وأجدى عليك من
قراءة حديث آخر ، ليس لى فيه إلا رواية وتحليل . وذلك فى الوقت نفسه
ينفعنى ، فأنا أريد أن أتحدث إليك مسرعاً عن طائفة من الشعراء ، تصل
بينهم وبين الوليد وأبى نواس صلة متينة قوية ، هى صلة الخلاعة والمجون والشك ،
والإعراض عما ألف الناس ، أريد أن أتحدث إليك فى هؤلاء الشعراء ،
لا لأنى أؤثر هزلهم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لأنى أشعر بأنك تؤثر
الخلاعة والهزل على الجد ، فأحاول أن أرضيك وأسليك ، بل لأنى أرى فى
الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون فى ذلك العصر ،
نوعاً من الجد عظيم الخطر ، يُمْكِنُنا من أن نفهم عصرنا من العصور الإسلامية
كما ينبغى أن نفهمه ، ويمكِنُنا من أن نحكم على هذا العصر حكماً ملائماً
للحق ، مقارباً للصواب ، وليس هذا بالشىء اليسير ، وليس هذا بالشىء
الذى يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أنى لم أكد أعرض لأبى نواس فى
السنة الماضية ، حتى سخط ناس كثيرون فى مصر ، وفى غير مصر ؛ سخط

(١) نشرت بالسياسة فى ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ - ٩ أبريل سنة ١٩٢٤ .

قوم ، لأن في شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق ، ونبؤاً عن الدين ، وسخط قوم آخرون ، لأنهم زعموا أني أسىء إلى العرب ، وأتهمهم بما ليس فيهم ، واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياساً لحياة العصر الذي عاش فيه ، فأعمم حين يجب التخصيص ، وأسرف في التعميم حين يجب الاحتياط والدقة ، لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يُعَنِّونَ بالبحث الأدبي والتاريخي عناية صادقة ، إذا خطر لهم رأى ، وظهر لهم أنه الحق ، فأمنوا به ، واطمأنوا إليه ، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه ، حتى يثبتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق ، وهم يشتدون في ذلك ، ويحرصون عليه حرصاً ليس فوقه حرص ، وأنا من هؤلاء الناس ، حاولت أن أبحث عن أبي نواس ، فخطر لي أنه كان شاعراً شاكياً ماجناً ، وأن هذا الشك والمجون لم يكونا مقصورين عليه ، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر ، فتتبع هذا الرأي ، وجعلت أدرسه وأمتحنه ، وجعلت كلما أمعنت في هذا الدرس والامتحان ، ازددت إيماناً بهذا الرأي ، واطمئناناً إليه . ثم انتقلت منه إلى رأى آخر أوسع منه وأشمل ، فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثاني للهجرة ، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك ، والمشغوفين بالجد ، إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة ، والعادات الموروثة ، والدين أيضاً .

رأيت هذا الرأي ، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة ، والحجج المتباينة ، في أثناء بحثي عن أبي نواس ، ولكني لا أكتفي الآن بإثبات هذا الرأي ، ولا بأن أقيم عليه الأدلة النظرية أستمدّها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال ، ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية ، ومرة من طبيعة الحضارة والترف ، ومرة من ظهور العلم ، ونقل الفلسفة ، لا أكتفي بهذا كله ، وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون ، تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون ، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد ، فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ، ويميلون إليهم ، ويتفكّهون بما يوصفون به من ظرف ، وما يروى عنهم من هزل ومجون ، وإذا كان هؤلاء الشعراء

وأصحابهم من حرية الرأي ، ومن الإسراف في حب اللذة ، والتهالك عليها ، سرّاً وجهرّاً ، بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول ، وإذا كان الناس بهم معجبين ، وعنهم راضين ، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك في أن هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء ، وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته ، إنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجنون واستهتار بالذات ، ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيثان ، كلاهما "خطر" على حياة السذاجة والقناعة : أحدهما العقل ، أريد العقل الفلسفى ، الذى يتدخل في كل شيء بالنقد والتحليل . وبالننى والإثبات ، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد ، وإنما يريد إذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو في أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعرض في طريقه من آثار الوراثة ، والثانى الحضارة وما تستتبعه من نَعْمه ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ؛ فأما الفلسفى فَمِيعُولٌ يهدم القديم في الحياة المادية على اختلاف فروعها . ومن زعم أن العرب لم يتأثروا في القرن الثانى للهجرة بهذين الخطرين . فهو مسرف كل الإسراف ، بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً إذن أن يظهر في هذا العصر الوليد بن يزيد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحامد عَجْرَد ، وابن المقفع ، ووالبة بن الحُبَاب ، وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم في شكهم ومجونهم ، وفي لهوهم وعبتهم ، ليس غريباً أن يظهر هؤلاء الناس في ذلك العصر ، وإنما الغريب أن نخلو منهم ذلك العصر ، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنساك وأصحاب الزهد والتقى .

نحن إذاً مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو ، وإلى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه في جملته وفي تفصيله ، لا مشفقين ولا مترددين ، ولا كالنعامة التى يأتيا الخطر ، فتخفى رأسها كى لا تراه ، ويخيل إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فهما ننكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما في هذا العصر ، وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين

من أهله ، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصرًا ظهر فيه الشك والمجون ، واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله ، حتى بعض الفقهاء وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجعل ذلك ؟ ولست أرى على ذلك جواباً معقولاً ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه إلى من يسألك ما نفع العلم ؟ وما ضرر الجهل ؟ وما فائدة الصواب ؟ وما مضره الخطأ ؟ سيقولون : ولكنك سيئ الاختيار ، ردىء الذوق ؛ فما أنت وأصحاب الشك والمجون تحدثنا عنهم في شهر الصوم ، وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم في ألوان الهزل ؟ وهلا أجّلت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم ! وهلا اكتفيت في هذه الأيام التي ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى بالتحدث إليهم في أخبار الزهاد والناسكين ، وفي مناقب الوعاظ والصالحين ! نعم ! سيقولون هذا . ومن يدري ! لعلّ إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين ، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلاً ، وأى إثم في ذلك ! وأى جناح فيه !

زعموا أن ناساً سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟ فأنشد ابن عباس شعراً لا أستطيع أن أرويه ، ثم نهض فصلى . وزعموا أن ناساً سألوا عن شيء كهذا أحد الفقهاء المحدثين ، وأحسبه سعيد بن المسيب ، فأنشد :

أُنْبِئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

لم يتحرج ابن عباس ، ولم يتحرج ابن المسيب ، ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة ، جدها وهزلها . فما لنا نتحرج الآن ! أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ، ولين العقيدة ، واضطراب اليقين ! إن المؤمن حقاً ، المتدين حقاً ، المخلص في نسكه وعبادته ، لا يخشى على إيمانه ، ولا على دينه ، ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع ، وإنما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف ، ويريد أن يتقيه ، ويتجنب أسبابه والمغريات به . وإذا أحس الرجل من

نفسه ضعفاً في مثل هذه الأشياء ، فارو له ما شئت من شعر ، أو اكفف عن رواية هذا الشعر له ، فما أنت بنافعه ولا ضاره .
 على أنى قلت إنا نبحت بحثاً علمياً ، لا نريد به أن نرضى الناس ، ولا أن نسلى عنهم ، وإنما نريد أن نفيد ، وأن نستفيد . وأرى أنى قد أسرفت في هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة ، ولم أتحدث إليك بعد في مطيع ، ومع ذلك فهو خليك بأن أتحدث إليك فيه ، وأن أطيل الحديث .

كنت أذكر لك في الحديث الماضي صدق الوليد بن يزيد ، وخفة روحه في الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إلياس ، إذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة ، وخفة الروح ، وحلاوة الدعابة ، وجمال اللفظ ! الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جداً أن تجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد ، يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة ، وخفة الروح ، حتى أبو نواس وأنت تعلم رأيي في أبي نواس . نعم ! مطيع ابن إلياس أصدق لهجة من أبي نواس ومن الوليد ، وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير ، فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد ، كثير الخصوم أيام خلافته ، فكان في لهوه ومجونه في هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ، ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم ، فكان ذلك ربما دفعه إلى شيء من الإسراف في القول ، والإمعان في التحدى ، وتجاوز طبيعته أحياناً ، ليغيب خصومه ومضطهديه وكان أبو نواس شاعراً مجيداً ، ومستأثراً في عصره بالإجادة المطردة ، وكان قد اتخذ المجون مذهباً ، وكان قد أعلن ذلك ، وأسرف فيه ، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون ، فكان كالوليد ، يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ، ويسرف في القول إسرافاً متعمداً ، يريد أن يغيب الفقهاء والمتكلمين ، ويهزل ويسف في اللفظ ، يريد أن يغيب النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى إلا الخلفاء ، أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد ، فكان محتاطاً أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف في القول ، ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان

أبو نواس يسرف في القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لا يسرف في القول ، لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرضاً لخطر .

ستقول : وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد ؟ وكيف برئ من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ، ملحقاً في الفسق ، متهماً في دينه ، يوصف بالزندقة ؟ .

فأقول : بل كان مطيع شراً من هذا أيضاً في النصف الثاني من حياته ؛ فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ، ونادم الوليد بن يزيد ، ومدح أبوه والياً من ولاية بني أمية ، ومدح هو رجلاً من ولد خالد القسري ، وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بني أمية ، ويكره أيام بني العباس ، فكان من المعقول جداً أن يُراعَ من الوجهة السياسية ، كما كان من المعقول جداً أن يُراعَ من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يُرعَ إلا مرة أو مرتين ، خرج منهما آمناً مسروراً ، موفور الحظ من العطاء أيضاً . تريد أن تفهم هذا ، وأنا أيضاً أريد أن أفهمه ، وأعتقد أن تحليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه في الحياة والناس وأحسن تصوير وأصدق ، كان مطيع يزدرى الناس ، وكان يزدرى الحياة . وكان يسخر من هذه ، كما كان يسخر من هؤلاء ، وكان يتخذ هذه هؤلاء وسيلة إلى اللذة ، وإلى اللذة التي لا حد لها ؛ فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم ، وكان يتقلب مع الحياة في صورها المختلفة ، كان أمويّاً أيام بني أمية ، لم يكره حين مشكل بين يدي الوليد ، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ؟ لم يكره أن يجيب : « عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » . قالوا : فاستدناه الوليد ، وقبل فاه وبين عينيه ، وهوى هو ، فقبل الأرض بين يديه ، وكان عباسياً حين ثبت الله الملك لبني العباس ، ولم يكن عباسياً معتدلاً ولا هادئاً ، بل قل لم يكن عباسياً متطرفاً ، لأنه لم يكن مقتنعاً بشيء ، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ ، وكان يجد الحياة واللذة عند بني العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً إلا هذه الحياة وهذه اللذة ! فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس ! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الدليل الخانع ، وإنما

كان يتملقهم ، ساخراً منهم ، مزدرياً لهم ، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطراً . قالوا : أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي ، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك ؛ فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا ، وتكلم الخطباء والشعراء ، كلهم يمدح المهدي ، ويبين فضله ، حتى إذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثني فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المهدي منا محمد بن عبد الله ، وأمه من حمير ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً : وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ، ثم أقبل على العباس ، فقال له : أنشدك الله ! هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم ، مخافة من المنصور ، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدي . أفتري إليه أحسن شهوة المنصور في أن يبايع لابنه المهدي ، وعزمه على ذلك ، فأراد أن يرضى المنصور وولي عهده ، فوضع هذا الحديث وضعاً ، ولم يكتف بالكذب على النبي ، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق ، فشهد خوفاً من أخيه . ولا تقل إنه فعل هذا ذلة أو إسرافاً في التملق ، ولكن قل إنه فعل هذا ترضياً للخليفة وولي العهد ، وازدراء لهما ، وسخرية من الدين ، وقد عرف المهدي له هذه الصنعة ؛ فأنت تعلم أن المهدي كان شديداً على الزنادقة ، أسرف في قتلهم والفتك بهم ، وتجاوز في ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يبرع مطيعاً . بلى ! راعه مرة ، ولكنه أخرجه من عنده موفوراً له الحظ من العطاء . قالوا : كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور ، واشتهر ذلك ، واشتهر مجون جعفر وتهتكه ، ورفع أصحاب الخبر ذلك إلى المنصور ، وكان المهدي عنده ، فقال لأبيه : أنا به عارف ، ليس زنديقاً ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور : أحضره فانه ، فأحضره المهدي ، ولامه وعنفه ، وأمر أن يضرب مثنى سوط ، قال مطيع : إن أذنت لي احتججت ، فأذن له ، فقال أنا شاعر ، وإنما ينفق شعري عند الملوك ، وقد كسدت عندكم ؛ واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك ، وأصفيته على ذلك شعري وشكري ، فإن رأيت أن في ذلك سوءاً تبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك ، حتى رق المهدي ، فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يحبس . قال :

فأنصرف بغير جائزة ؟ قال المهدي : لا يجوز هذا ، وأمر له بمئتي دينار ، خفية عن أمير المؤمنين . قال الرواة وكان المهدي يحفظ له أنه وضع الحديث يوم أراد المنصور البيعة له .

أعتقد أنا أن هاتين القصيدتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويراً صحيحاً . فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء . وانتهى إلى السخرية والازدراء للناس وللحياة ، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشيء الوحيد ، الذي يستحق أن يعيش الناس من أجله ، وهو اللذة ، ومن هنا تعلق المنصور ، في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً ، ومن هنا تطف للمهدي ، حتى ابتز منه جائزة . وخرج من عنده موفوراً . أضف إلى هذا أن مطيعاً اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فناده ، وكان محتماً به ، فلم يمسه أذى . كل هذا بين لك ما زعمته آنفاً من أن مطيعاً لم يكن مضطهداً ، لا من الوجهة السياسية ، ولا من الوجهة الدينية ، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه في ذلك احتياطاً يسيراً ، فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدث الناس في عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه ، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم ، ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد بن يزيد ، فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط ، في تصديق ما كان ينسب إليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ، ولم يكونوا ولاية عهد ، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم ، وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم ، أو لم يسرفوا في هذا التكلف ، وما أشك في أن حياة هؤلاء النفر ، الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال ، ما أشك في أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والاتهام ، فكثيراً ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه ، وكثيراً ما كانت تجرى على ألسنتهم ألفاظ ينكرها الدين ، وينكرها الخلق ، ولكني مع ذلك أعتقد أن شيئاً من الاحتياط واجب في تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه ، فالناس مشغوفون بالإسراف أبداً ، لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد ، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده ، يحترعون على ذلك الأدلة ، ويتحلون الحجج ، ويروون الوقائع ،

يزعمون أنهم رأوها وما رأوها ، وإنما يخدعون الناس ، أو يخدعون أنفسهم .
وهذا الإسراف كثير في شأن مطيع وأصحابه ، ولكنى لا أنكر المثل القائل :
« لا دخان بلا نار » فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقليل ،
لما قال فيهم الناس شيئاً .

قلت : كان مطيع صادق اللهجة في شعره ، لا يكذب ولا يتكلف ،
وعملت صدق لهجته بأنه كان حر الرأي ، وأنه كان حر الرأي ، لأنه كان
يزدري الناس والحياة ، ولست أريد أن أغفل شيئاً رواه أبو الفرج ، وهو
يمثل رأ مطيع في الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدراؤه للناس ، وسوء ظنه
بهم . زعموا أنه مر بصد يقيه يحيى بن زياد ، وحامد عجرد وهما يتحدثان ، فقال :
فيما أنتما ؟ قالوا : في قذف المحصنات . قال : وهل في الأرض محصنة تقذفانها ؟ !
فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بغيّاً وسوء ظن بالناس ! كان صاحباه يقذفان
المحصنات ، ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات ، أما هو فلا يرى أن في الأرض
محصنة ، وإذن فليس هناك قذف ، وإنما كل قذف هو الحق ، أودون
الحق . وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى هذا الحد ،
فما الذي يمنعه أن يكون حرّاً فيما يعمل وما يقول ، لا يتقى إلا شيئاً واحداً ،
هو ما يعرضه للموت ، أو للحرمان ! وإذا كان قد احتاط فأرضى السلطان ،
وأمن شره ، فليس عليه بأس في شيء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس
لم يكن شاملاً ؛ فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه
وأخذانه ، ومن أشد الأشياء تأثيراً في النفس هذه الصلة المتينة ، التي كانت
بينه وبين صديقه يحيى بن زياد ، والتي حَرَّص عليها حرصاً شديداً ، يستثير
في النفس عاطفة مؤثرة حقاً . قالوا : شرب مطيع مع صديقه يحيى ، فعربد
عليه ، وكانت بينهما ملاحاة ، فأذى مطيع صاحبه ؛ فحلف لا يكلمه أبداً ،
ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الهجر ، فكتب إلى صديقه هذه الأبيات
العذبة ، التي تفيض حناناً ورقة ، والتي لا تخلو من شرف اللفظ ، وجمال الأسلوب :

إِنْ تَصِلْنِي فَمِثْلُكَ الْيَوْمَ يُرْجَى عَفْوُهُ الذَّنْبِ عَنْ أَخِيهِ وَوَصْلُهُ
وَلَيْشِنْ كُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِهِجْرِي لِلَّذِي قَدْ فَعَلْتُ إِنِّي لِأَهْلُهُ

وَأَحَقُّ الرَّجَالِ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْ
الْكَرِيمُ الَّذِي لَهُ الْحَسَبُ الثَّ
وَلَكِنْ كُنْتُ لَا تُصَاحِبُ إِلَّا
لَمْ تَجِدْهُ وَإِنْ جَهَدْتَ وَإِنِّي
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْ
الَّذِي يَحْفَظُ الْقَدِيمَ مِنَ الْعَهْدِ
وَرَعَى مَا مَضَى مِنَ الْعَهْدِ مِنْهُ
لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِفْكَاءً
وَصَلُّهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمٌ فَإِنْ طَا
وكتب إليه :

كُنْتُ وَيَحْيَى كَيْدَى وَاحِدٍ
إِنْ عَضَّنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ
أَوْ نَامَ نَامَتْ أَعْيُنُ أَرْبَعٍ
يَسُرُّنِي الدَّهْرُ إِذَا سَرَّهُ
حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِي
سَعَى وَشَاةٍ فَحَمَشُوا بَيْنَنَا
فَلَمْ أَلَمْ يَحْيَى عَلَى فِعْلِهِ
لَكِنَّ أَعْدَاءَ لَنَا لَمْ يَكُنْ
بَيْنَنَا كَذَا عَاثَ عَلَى غِرَّةٍ
فَلَمْ يَزَلْ يُوقِدُهَا دَائِبًا

وانظر إلى هذا الشعر يرثي به يحيى هذا :

قَدْ مَضَى يَحْيَى وَغُودِرَتْ فَرْدًا
نُصِبَ مَا سَرَّ عُيُونَ الْأَعَادِي

وَأَرَى عَيْنِي مُذْ غَابَ بِخَيِّ
وَسَدَّتْهُ الْكَفُّ مِنِّي تُرَاباً
بُذِلَتْ مِنْ نَوْمِهَا بِالسَّهَادِ
وَلَقَدْ أَرِئِي لَهُ مِنْ وَسَادِ
بَيْنَ جِيرَانٍ أَقَامُوا صُمُوتاً
لَا يُحِيرُونَ جَوَابَ الْمُنَادِي
أَيُّهَا الْمَزْنُ الَّذِي جَادَ حَتَّى
أَغَشَبَتْ مِنْهُ مُتُونُ الْبَوَادِي
إِسْقِ قَبْرًا فِيهِ بِخَيِّ فَإِنِّي
لَكَ بِالشُّكْرِ مُوَافٍ مُغَادِي

كان يحيى صديقاً لمطيع في الخير والشر صديقاً حقاً ، وكان لمطيع صديق آخر ، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة ، صداقة مزاح وهو وسخرية ، ذلك هو حماد عجرد ، فسرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوباً ضيق الذرع ، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك ، فلا يرقون له ، ولا يرفقون به ، وكان حماد أصلع ، وكانت صلته شديدة الحمرة ، فانهز ذلك صديقه مطيع ، وأفسد بينه وبين صاحبه له تسمى خشة ، وتُعرف بظبية الوادي ، فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه ، واتصل بينهما هجاء للذاع ، ولكنه لذيذ ، لم يمنع اتصال المودة بينهما ، ولست أروى لك منه شيئاً ، وقد تستطيع أن تجده في الأغاني .

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر مطيع كله ، لضيق المكان ، وطول هذا الفصل ، ولكني لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة ، التي تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلاً صادقاً ، أحسه القدماء ، فرقوا له ، وكلفوا به ، وقد قال هذه الأبيات في جارة له أحبها بالرى ، ثم اضطراً ففارقها ، فلما كان في طريقه مر بعقبة حلوان ، فجلس يستريح إلى نخلتين هناك ، وذكر صاحبه ، فقال :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانَ
وَأَعْلَمَا أَنَّ رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ يَفُ
وَأَبْكِيَا لَوْ دُقْتُمَا أَلَمَ الْفُرُ
وَأَبْكِيَا وَأَيُّقِنَا أَنَّ نَحْسَا
وَأَبْكِيَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ
رُقُ بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْجِيرَانِ
قَةَ أَبْكَأَكُمَا الَّذِي أَبْكَأَنِي
سَوْفَ يَلْقَاكُمَا فَتَفْتَرِقَانِ

كَمْ رَمَتْنِي صُرُوفَ هَذِي اللَّيَالِي بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ وَالْخُلَانِ
 غَيْرَ أَنِّي لَمْ تَلْقَ نَفْسِي كَمَا لَا قَيْتُ مِنْ فُرْقَةِ ابْنَةِ الدُّهْقَانِ
 جَارَةٌ لِي بِالرَّيِّ تَذْهَبُ هَمِّي وَتُسَلِّي ذُنُوبَهَا أَخْزَانِي
 فَجَعَلَتْنِي الْأَيَّامُ أَغْبَطَ مَا كُنْتُ تُصَدِّعُ لِلْبَيْنِ غَيْرِ مُدَانِي
 وَبِرَغْمِي أَنْ أَصْبَحْتَ لَا تَرَاهَا إِلَّا عَيْنُ مِنِّي وَأَصْبَحْتَ لَا تَرَانِي
 إِنْ تَكُنْ وَدَّعْتَ فَقَدْ تَرَكْتَنِي لَهَا فِي الضَّمِيرِ لَيْسَ بِوَافِي
 كَحَرِيقِ الضَّرَامِ فِي قَصَبِ الْغَا بِ رَمَتْهُ رِيحَانِ تَخْتَلِفَانِ

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلتي حلوان تاريخاً وذكرى بين الأدباء والشعراء . قالوا : أراد المنصور أن يقطعهما ، فلما أنشد هذا الشعر كره أن يكون النحاس الذي يفرق بينهما . وأراد المهدي أن يقطعهما ، فنهاه المنصور عن ذلك . قالوا : ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب إلى طوس ، فهاج به الدم ، ووصف له الطبيب جُمَارًا ، فلما سئل الدهقان أشار إلى النخلتين ، ولم يكن في حلوان غيرهما ، فقطعت إحداها ، ثم مرَّ الرشيد بالأخرى ، فرأى عليها هذه الأبيات ، فندم وقال : لو علمت أن هذه الأبيات قيلت في هاتين النخلتين ما عرضت لهما ، ولو قتلني الدم .

وإذا صح ما تحدث به الرواة ، فقد كان موت مطيع شعراً لا يعدله شعر . قالوا : سأله الطبيب في علته التي مات فيها : ماذا تشتهي اليوم ؟ فأجاب أشتهى ألا أموت ؛ أترى جواباً أكثر شعراً ، وأغزر معنى ، وأشد تمثيلاً لضعف الإنسان ، وقوة رغبته في الحياة ، من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكماً جامعاً مختصراً بعد هذا التفصيل ، لما تجاوزنا حكم أبي الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء ، ولكنه كان ظريفاً ، خليعاً ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجناً ، متهماً في دينه بالزندقة » . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئاً ، لقلنا إنه كان صادقاً في شعره ، آخذاً بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها .

حماد عجرد (١)

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحمادُ الرواية ، وحماد بن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمّون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد . » (الأغاني جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبع بلاق) .

وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتّاب الأغاني ، تجده إذا عرض أبو الفرج لمطبع بن إياس ، وتجده إذا عرض لغير مطبع بن إياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتب أخرى غير الأغاني ، لكتّاب ورواة آخرين غير أبي الفرج ، إذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين عاشوا في النصف الأول للقرن الثاني من الهجرة ، وتجد في الأغاني وغير الأغاني كلاماً كثيراً عن شعراء عابثين في المدن الثلاث ، التي كانت أمصاراً متقدمة للعالم الإسلامي أيام بني العباس ، وهي الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية ، لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ، ولا عن مصر ، فإن وجدت ذكراً للزندقة والزنداقة ، وللعيب والعابثين آخر أيام بني أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العيب والمجون ، إنما حملت كلها من العراق إلى الشام ، بأمر الوليد بن يزيد ، أو غير الوليد بن يزيد من مجّان بني أمية .

الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية ، نعم ! إنك تجد في الأغاني وغير الأغاني أن الوليد بن يزيد عيب ومجنّ ، وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وندامى من العابثين وأهل المجون ، فالتسميم في الشام ، فلم يجدهم ، وسأل عنهم ، فدلّه الناس على قوم في العراق ، دلّوه على هذين « الحمادين » حماد عجرد ، وحماد الرواية ، ودلوه على مطبع بن إياس ، وكانوا في الكوفة ، فأرسل يطلب إشخاصهم إليه ، فأشخصوا ، فاتخذهم ندامى له ، حتى قتل فعادوا إلى

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣ - ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ .

أوطانهم . وتجد في كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكراً لطائفة من العابثين ، وأهل المجون المسرفين فيه ، ظهوروا أيام بني أمية ، وأيام كان بنوا أمية حازمين منصرفين إلى الجحد ، ظهوروا في الحجاز ، في مكة وفي المدينة بنوع خاص ، ولكنك إذا بحثت عن مجون هؤلاء ، وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ، ويتهمون به في دينهم وسيرتهم ، انتهيت إلى نتيجتين : نجلهما الآن ، وتفصلهما يوم نعرض للعبثين من أهل الحجاز . الأولى : أن مصدر هذا العبث عراقى ، دعا إليه الموالى الرقيق ، من الفرس وأهل العراق ، والأخرى : أن لهذا العبث صبغة عربية ، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد ، لأن زعماء العابثين في المدينتين المقدستين كانوا من أشرف العرب ، الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية إلى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ، ففرغوا لأنفسهم ، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح ، وكان الخلفاء من بني أمية يعرفون لهم أقدارهم ، ويمسكونهم في هاتين المدينتين ، بعيدين عن السياسة ، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز ، وإنما يدرونها عليهم إداراً ، فكانوا يسلّون ويعبثون ، ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة ، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى ، من الفرس وأهل العراق .

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والمجون والزندقة في الإسلام ، فلن تستطيع أن تعدوا الفرس ، وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس ، وكانوا بهم أشد اتصالاً ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الرنادقة ، وإباحة هؤلاء الشعراء ، ولكن هذا التأثير عرضي لا جوهري ، إن صح هذا التعبير ؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية ، يزينون بها شعرهم وزندقتهم ، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية ، ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثراً قوياً . على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذى أزهرت فيه الفلسفة اليونانية في بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ؛ فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زيد ، فإن أيام هؤلاء قبل عصر المأمون ، وقبل أن يصبح البلد في بغداد ترجمة الكتب اليونانية ، دروس الفلسفة اليونانية . ولو

أنى أردت أن أشخص زندقة القرن الثانى للهجرة تشخيصاً ، إن لم يكن علمياً دقيقاً فهو يقربها من الأذهان تقريباً لا بأس به — أقول : لو أنى أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبياً ، لقلت : إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية ، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ، ويطمثون إليه حقاً ، وإنما كانوا يكرهون الإسلام ، وكان كرههم للإسلام يضطرهم إلى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى النعنى على الإسلام ، والتخلص من قيوده ، وما أخذ الناس به من واجبات ، لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية ، ولا اليهودية ؛ لأن الفرس لم يكونوا نصارى ، ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام الديانة الفارسية القديمة ، الخالصة من بدع المبتدعين ، وإنما كانوا يؤثرون من هذه العقائد الفارسية ضرراً من البدع ، تدعو إلى الإباحة واللذة ، ونرغب فيهما ، وتعين عليهما ، كانوا إذن يطمحون قبل كل شيء إلى أن يستمتعوا باللذات فى غير حساب ولا تقدير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة ، لما أنكروا من الإسلام شيئاً ، ولا سبوا هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ، ولا يريدون أن يثأروا للفرس من العرب ، ولكن الإسلام كغيره من الديانات السماوية شديد فى باب اللذة ، حريص على تطهير الأخلاق ، وأخذ الناس بالطهر والنقاء ، فى سيرتهم الخاصة والعامة ، وهذا يناقض الإباحة والإسراف فى اللذة ، ويأخذ عليهما الطريق . فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الإسلام ، فيستمتع بلذته فى غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحجج والأدلة ، أو التعلات والمعاذير ، يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاء العابثون ، فوجدوا ما كانوا يحتاجون إليه فى حياة الفرس ، وما شاع فيهم من البدع ، واستحالوا إلى شيء

آخر أكثر من نصر اللذة ، هو التعصب على الإسلام ، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات ، ومن هنا هاجموا أصول الديانات ، وسخروا منها ، ومن هنا آثروا النار التي يعبدونها الفرس ، ويردون إليها كل شيء ، على الطين ، الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان ، ومن هنا آثروا الثنية الفارسية على التوحيد السامي ، وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بثنية ولا بثليث ، وإنما يحفلون باللذات ، فهم يؤثرون الثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية في ذلك العصر معين على الإسراف في الإلحاد والعبث ؛ فهو عصر انتصار الفرس على العرب ، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ، يعترضون بالفرس ، ويتملقونهم ، ويؤثرونهم بالحظوة ، ويكلمون إليهم أمور الدولة كلها ، فما الذي يمنع الفارسية وأنصارها ، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف في المجون ، أن تنتصر وتسود ، وتظهر جبهة غير مستخفية ولا محتاطة ! من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الأدبية ، التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة ، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً . كانت عصر بني أمية ضعيفة مترددة متسترة ، لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور ، قويت واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم ، وظهرت واضحة قوية ، حتى عرّضت الحياة الدينية والسياسية للخطر ؛ فاضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يقاوموها مقاومة عنيفة ، لم تخل في بعض الأحيان من ظلم وإسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة ، أو هؤلاء الذين كانوا يهتمون في دينهم ، وكانت لهؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم ، في الكوفة والبصرة ، ثم في بغداد ، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة ، وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون في دورهم ، وهم كانوا يجتمعون في الأديار ، وهم كانوا يجتمعون في البساتين والحانات ، وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب والغناء ، والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون في ذلك إسرافاً لا يعدله إسراف ، ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية

التي تحظر عليهم ذلك ، وتعرضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة ، أو فن من فنون الديانات الغريبة ، أو لون من ألوان الدرس الفلسفي غير المألوف ؟ ذلك شيء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء ، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشيء من هذا ؛ لأنني قد قلت لك إنها لم تكن مخصصة في الإيمان بمذهب من المذاهب ، ولا في إثارة دين على دين ، وإنما كانت تتخذ المانوية شعاراً . ولو أنها أنصفت نفسها ، وآثرت الصدق ، لاتخذت شعارها الشك والسخرية ، وليس من شك في أنهم كانوا يذكرون المانوية ، ويؤثرونها على الإسلام ، ولكن تنفكةً وانتقاماً من هذا الدين ، الذي يسلط عليهم الشرط وغضب الأمراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم ، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً ، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالاً قوياً ، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين في زندقتهم ؛ فلو أن هناك صلة دينية متينة ، تجمع بينهم حقاً ، وتكون منهم أقلية ممتازة متضامنة ، لما أساء بعضهم إلى بعض ، ولما سعى بعضهم ببعض ، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان ، ولكنهم كانوا يسرفون في الإساءة إلى أنفسهم ، وإلى أصحابهم ، ويكنى أن تقرأ ما بين بشار وحماد من الخصومة ، واتصال الهجاء ، لتعلم مقدار هذا الاستعداد ، ومقدار ما كان يضمّر الزنادقة بعضهم لبعض من المودة والحفيظة ، ومن الحقد والضغينة ، التي كانت تحمل أحدهم على أن يغري بصاحبه إغراء منكراً . وانظر إلى قول حماد يغري الأمير بخصمه بشار ، فهو يمثل في وقت واحد إجابة حماد في الشعر ، وميله إلى الشر ، وإثارة الانتقام على كل شيء :

قُلْ لِعِيسَى الْأَمِيرِ عِيسَى بْنِ عَمْرٍ ذِي الْمَسَاعِي الْعِظَامِ فِي قَحْطَانِ
وَالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي طَالَ حَتَّى قَصُرَتْ دُونَهُ يَدَا كُلِّ بَانِي

يَا بَنَ عَمْرِ عَمْرِ الْمَكَارِمِ وَالْتَقَ وَى وَعَمْرِ النَّدى وَعَمْرِ الطَّعَانِ
لَكَ جَارٌ بِالْمِصْرِ لَمْ يَجْعَلِ إِلَّا لَهُ مِنْكَ حُرْمَةً الْجِيرَانِ
لَا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يَقُ رَأَ حَرْفًا مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
إِنَّمَا مَعِدُنُ الزُّنَاةِ مِنَ السُّفْ لَةِ فِي بَيْتِهِ وَمَاوَى الزَّوَانِي
وَهُوَ خِذْنُ الصَّبِيَّانِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ يَنْ فَمَاذَا يَهْوَى مِنَ الصَّبِيَّانِ ؟
طَهَّرَ الْمِصْرَ مِنْهُ يَا أَيُّهَا الْمَوْ لِي الْمُسَمَّى بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَتَقَرَّبَ بِذَلِكَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ هِ تَفَزُّ مِنْهُ فَوْزَ أَهْلِ الْجَنَانِ
يَا بَنَ بُرْدٍ إِحْسَانُ إِلَيْكَ ، فَمِثْلُ أَلَا كَلْبٍ فِي النَّاسِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانِ
وَلَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْكَلْبِ بِ وَأَوَّلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانِ

ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر ، ولا رغبة في الإساءة إلى خصمه ،
وفي اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة ، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه
طريقة الاستعداد هذه ، ولعلهما لم يسرقاها ، وإنما وجداهما طريقة مألوفة
بين الناس في ذلك العصر ؛ فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الشائعة
المنكرة ، التي أساءت إليه غير قليل ، وهى أنه كان ذات يوم ينشد شعراً ،
وإلى جانبه قارئٌ يتلو القرآن ، والناس مجتمعون من حوله ، فلما رأى حماد
اجتماع الناس حول القارئ قال : علام يجتمعون ؟ إن الذى أنشده لخير مما يتلو !
وهجا بشار حماداً بأبيات يثبت فيها عليه الزندقة ، فقال :

أَبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرُّؤُوسِ خَطْبٌ جَلِيلٌ
أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِنْسِيَّةِ نِ فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولٌ
يَا بَنَ نَهْيٍ بَرِثْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ هِ جِهَارًا وَذَلِكَ مِنِّي قَلِيلٌ

قال أبو الفرج : فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار ، وجعل فيها مكان
(فإني بواحد مشغول) : (فإني عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة
والكفر بالله تعالى ، فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس ، حتى انتهت

إلى بشار ، فاضطرب منها وجزع ، وهذا الخبر يمثل مكر حماد ، واحتباس بشار ، فقد كان حماد مكرراً شديداً المكر ، ماهراً في الخصومة ، يعرف كيف ينال من خصمه ، وكيف ينتصر عليه ، وكان بشار محتسماً شديداً الاحتراس ، يكره أن يوصف بالزندقة ، ويشفق من ذلك إشفاقاً شديداً ، وكان يرسل فضل زندقته إلى غيره ، فيتهم الناس بما فيه ، ولهذا أكثر الإكثار كله حين هجا حماداً بوصفه بالزندقة والكفر ، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفراً ، وإنما كان الفرق بين الرجائين أن حماداً كان مستهتراً ، يجهر بمجونه ، ولا يخفى عبثه وأن بشاراً كان محتاطاً متحفظاً ، يتكلف الدين والورع ، كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يخف أمر بشار على أحد ، بل لقي من احتياطة وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره ؛ فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي ، والرواية يختلفون كما ستري في موت حماد ، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته موقراً ، لم يجر عليه عبثه ومجونه أذى ولا شراً . وفي كتاب الأغاني خبر يثبت ذلك إثباتاً لا شك فيه ، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس في هجاء حماد عجز لبشار شيء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة ، وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وتهتك ، بفضل بلاغة بشار ، وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، وعرف مذهبه في الزندقة ، فقتل فيه . ولعل في هذا الخبر شيئاً من المبالغة ؛ فهناك خبر آخر يدل على أن بشاراً لم ينتصر على حماد في الهجاء ، وإنما الذي انتصر هو حماد ، وإن لم يكن له من جيد الهجاء في بشار إلا أربعون بيتاً . فلسنا نرى في سيرة حماد أنه قد سقط ، أو ازدراه الناس ، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمداً ؛ فقد كان لحماة شيء من السلطان الأدنى غير قليل ، كان يخيف الشعراء ، وكان يخيف الأمراء ، وكان يخيف كبار الناس . كان يخيفهم ؛ لأنه كان ماهراً في الهجاء ، سريعاً إليه ، حديد اللسان فيه . وكان كما قلت لك في حديث الأربعة الماضي سيئ الخلق ، سريع الغضب ، مندفعاً إلى الانتقام ، وكان مع ذلك مكرراً لطيف المكر ؛ فكان

الأمراء ووجوه الناس محتاطون في معاملته ، ويتلطفون له ، ويبتغون ما يرضيه ، ويتجنبون ما يسوءه ، وربما اضطروا أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد ، فاعتذر إليه ، وبالغ في الاعتذار ، وكان حماد يقبل العذر حيناً ، ويرده حيناً آخر ، وكان هو الفائز في كلتا الحالتين ، فإن قبل العذر كوفي لقبوله ، وإن بولغ في ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حماداً ، حتى اضطره ذلك إلى أن يقطع الصلاة ، ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشرف البصرة ، في نفر من وجوه الناس ، وجاء الغداء ، فقبل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلي الضحى ، فانتظروا ، وأطال صاحبنا الصلاة ، فقال حماد :

أَلَا أَيُّهَا الْقَانِتُ الْمُتَهَجِّدُ	صَلَاتُكَ لِلرَّحْمَنِ أَمْ لِي تَسْجُدُ
أَمَّا وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدُهُ	لِمِنْ غَيْرِ مَا بِرُ تَقُومُ وَتَقْعُدُ
فَهَلَّا اتَّقَيْتَ اللَّهَ إِذْ كُنْتَ وَالِيًا	بِصَنْعَاءِ تَبْرِيٍّ مِنْ وَلِيَّتٍ وَتَجَرَّدُ
وَيَشْهَدُ لِي أَنِّي بِذَلِكَ صَادِقٌ	حُرَيْثٌ وَيَخْبِي لِي بِذَلِكَ يَشْهَدُ
وَعِنْدَ أَبِي صَفْوَانَ فِيكَ شَهَادَةٌ	وَبَكْرٍ وَبَكْرٌ مُسْلِمٌ مُتَهَجِّدُ
فَإِنْ قُلْتَ زِدْنِي فِي الشُّهُودِ فَإِنَّهُ	سَيَشْهَدُ لِي أَيْضاً بِذَلِكَ مُحَمَّدُ

فلما سمعها سهم قطع الصلاة ، وجاء مبادراً ، فقال له : قبّحك الله يا زنديق ! فعلت بي هذا كله ، لشركك في تقديم أكل وتأخير الله ! هاتوا طعامكم فأطعموه ، لا أطعمه . قالوا : ونزل حماد على محمد بن طلحة ، فأبطأ عليه بالطعام ، فاشتد جوعه ، فقال فيه حماد :

زُرْتُ أَمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً	لَهُ حِبَاءٌ وَلَهُ خَيْرٌ
يَكْرَهُ أَنْ يُتَخَمَ أَضْيَافُهُ	إِنَّ أَذَى التُّخْمَةِ مُحْدُورٌ
وَيَشْتَهِي أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ	بِالصَّوْمِ ، وَالصَّالِحِ مَأْجُورٌ

فلما سمعها محمد قال له : عليك لعنة الله ؛ أي شيء حملك على هجائي ، وإنما انتظرت أن يفرغ لك من الطعام ؟ قال : الجوع وحياتك حملني عليه ،

وإن زدت في الإبطاء زدت في القول ، ففضى مبادراً حتى جاء بالمائدة .
كان حماد إذن مخوفاً حياته كلها ، لم يسقطه هجاء بشار ، ولا تشهيره به ،
بل انتصر على بشار كما قدمنا ، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذي ظفر
به حماد ، مع أن خصمه أجود منه شعراً ، وأنفذ منه لساناً ، فعلة ذلك شيثان ،
أحدهما : أن حماداً كان صادقاً ، يلاثم بين قوله وعمله ، فلم يكن يتكلف ديناً
ولا ورعاً ، ولم يكن يتستر من عبث أو مجون ، فكان بشاراً إذا هجاه وصفه
بما لا ينكر ، أما بشار فقد كان متكلفاً محتاطاً ، فكان حماد إذا هجاه أحيا
في الناس حب الاستطلاع ، ودلهم من أمره على ما يجهلون . والآخر : أن حماداً
لم يكن يعني في هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً ، وإنما كان يسلك
في هجائه طريق الشعراء الأولين ، فيهجو أمه وأباه وامراته ، ويصف شخص
بشار بما لم يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حماد ، قال الرواة إن بشاراً
بكى حين سمع قول حماد فيه :

وَأَعْمَى يُشْبِهُ الْقِرْدَ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فلما سئل عن بكائه قال : يراني فيصغني ، ولا أراه فأصفه ؛ وكان هذان
الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما ، يروي
لكل منهما ما قال صاحبه فيه ، ويحمل إليه الجواب ، ولم تكن الصحف
يومئذ معروفة ؛ فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر ، لا بأس بها .
وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء ، الذي اتصل بين الرجلين أعواماً طويلاً ،
فصلوره يسير ، وهو أن بشاراً كانت له حاجة عند حماد ، فأبطأ فيها ، فغضب
بشار ، وعاتب صاحبه عتاباً لاذعاً ، فغضب حماد ، وهجا بشاراً ، واتصل
الشر بين الرجلين ؛ فكان حديث أهل البصرة ، بل كان حديث أهل العراق
أيام حياتهما ، وبعد أن ماتا ، وذلك يدل على ما قلته من أن حماداً كان سريع
الغضب ، مندفعاً إلى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه
أحياناً عن الاندفاع في الشر ؛ فقد داعب مطيعاً ذات يوم ، فرد عليه مطيع
بشعر منكر ، كان من شأنه أن يغري حماداً ، ولكن حماداً ملك نفسه ،
وغفرها لمطيع ، ولم يرد عليه هجاءه ، وإنما مدحه بشعر لا بأس به ، على أن

حلم حماد كان محدوداً ؛ فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى في الحب أو الهوى ، فإذا ناله هذا الأذى ، فلم يكن للحلم إليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع ، كما اتصل بينه وبين بشار ، لأمرين ، كلاهما حب ، أحدهما : أن مطيعاً زار معه صاحبه خشة ، فازدراه عندها ، وعيره صلتته ، وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبه ، فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة ، فأذكوا النار ، ليضحكوا من حماد . والآخر : أن حماداً كان يهوى غلاماً ، فهويه مطيع ، وتقرب إليه ، فاغتاظ لذلك حماد ، وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الأحوال ، وإنما تجاوز هؤلاء جميعاً إلى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبي عون ، كان صديقاً لحماد ولطيع ، وكانت له جارية تسمى جوهر ، كان حماد يحبها ، ويعجنُّ بها ، وكان يلقاها من حين إلى حين ، فتسامع الناس بذلك ، وتحدثوا فيه ، وكره سيدها هذا الحديث ، فحجبها عن حماد ، فأنكر حماد ذلك ، وهجا الرجل ، فأسرف في هجائه وأقذع . ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئاً ؛ فليس إلى روايته سبيل . . .

وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم ، بل بالنسك وأهل الزهد ، إذا عرضوا له وانتقصوه . ويختلف الرواة في قصة له : وقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ؟ ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقاً لحماد ، ثم نسك وأخذ ينتقص حماداً ، وأخذ حماد كذلك يلاطفه ويرفق به ، لعله يقلع عن انتقاصه ؛ فلم يقبل ، فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنْ دَلَجِي إِلَيَّ	لَكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقِلَاصِ
أَيَّامَ تُعْطِسْنِي وَتَأْ	خَذُ مِنْ أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ
إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتَّ	مَ بِغَيْرِ شَتْمِي وَانْتِقَاصِي
أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بِغَيْرِ ذَا	كَ تَنَالِ مَنْزِلَةَ الْخِلَاصِ
فَعَلَيْكَ فَاشْتُمِ آمِنًا	كُلَّ الْأَمَانِ مِنَ الْقِصَاصِ
وَاقْعُدْ وَقُمْ بِي مَا بَدَا	لَكَ فِي الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي

فَلَطَّالِمَا زَكَّيْتَنِي وَأَنَا الْمَقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
 أَيَّامَ أَنْتَ إِذَا ذُكِرْتُ مُنَاضِلٌ عَنِّي مُنَاصٍ
 وَأَنَا وَأَنْتَ عَلَى أَرْتِكَا بِبِ الْمُؤَبَّقَاتِ مِنَ الْجِرَاصِ

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيى بن زياد : إن هذا الشعر
 انصل به ، فلم يزد إلا طعنًا في حماد ، ونعيًا عليه ، فقال حماد فيه :

لَا مُؤْمِنٌ يُعْرِفُ إِيْمَانُهُ وَلَيْسَ يَحْيَى بِالْفَتَى الْكَافِرِ
 مُنَافِقٌ ظَاهِرُهُ نَاسِكٌ مُخَالِفٌ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ

أما الذين يضيفون القصة إلى أبي حنيفة ، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات
 خاف من حماد ، فأقلع عن شتمه .

ولو أني أحببت أن أشخص حماداً كما شخصت مطيعاً والوليد بن يزيد ،
 لوصفته قبل كل شيء بجدّة الطبع ، وسوء الخلق ، وحب الانتقام ، والإسراع
 إليه ، ثم بالصراحة في القول ، والملاءمة بينه وبين العمل ، وبكره النفاق ،
 والانصراف عنه ، لا يعنيه أَرْضَى النَّاسَ عنه ، أم سخطوا عليه ، ثم بجدّة
 اللسان ومضيه وإقذاعه ، وكلفه بفاحش القول ، وبحثه عن أسوئه وأقبحه ،
 ثم بالسُّخْرِيَّة من الناس وازدراءهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلاً من أصول
 الحياة ، كالوليد ومطيع وأبي نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل
 الشعراء ، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب ، وأخذت عليه الطرق ،
 أودعته إلى ذلك حاجة ، لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء ،
 والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتى تبدو له حاجة ،
 أو تسنح له فرصة ، أو تضطره ضرورة ، فإذا صداقته قد استحالت إلى عدااء ،
 وإذا هو ليس أقل صدقاً وإخلاصاً في العدااء منه في المودة والحب ، فقد
 مدح يحيى بن زياد ، واتخذ صديقاً ، ونال جوائزه ، ثم كان الخلاف فهجاه ،
 وصادق بشاراً وصافاه ، ثم اختصما ، فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقاً ،
 وصافى مطيعاً وأحبه ومدحه ، وأكثر في الثناء عليه ، ثم اختصما في امرأة
 مرة ، وفي غلام مرة أخرى ، فهجاه وأقذع في هجائه ، وكان على هذا كله

يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس ، والعدل في معاملتهم ، هجا ذات يوم رجلاً يقال له : حشيش ، وجعل اسمه قافية لهذا الشعر ، وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه ببحيش ، وكان بحيش هذا رجلاً من أهل البصرة ، وادعاً لا يعرف حماداً ، ولا يعرفه حماد ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له ، وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة ، فعاتب حماداً ، فقال له ضاحكاً معتذراً : لا بأس عليك ، فإن هذا من آثام القافية ، ولن أعود إليه .

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد ، على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ، ونيله من أعراض الناس ، ووجوه الأمصار ، أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب عن ذلك يسير ، وهو أن حماداً كان متصلاً أيام العباسيين بأمير من أمراءهم ، هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا إنه أدبه ونادمه ، فأمن لاتصاله به كل غائلة ، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوباً جساماً ، فقد كان محمد هذا خليعاً ، كما كان جعفر بن المنصور حامى مطيع خليعاً أيضاً ، وكان المنصور يكره محمداً ، ويؤثر عليه المهدي بالخلافة ، كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفرأ ، ويريد إقصاءه عن الخلافة ، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن علي ، من أشرف العلويين ، فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه ، فلم تقبل خطبته ، فزاده الرفض حباً لها ، وهياماً بها ، ولم يكن شاعراً ، أو لم يكن يجيد الشعر ، فلجأ إلى مؤدبه وتديمه حماد ، وجعل حماد يتغزل له في صاحبته ، وجعل حَكَمَ الوادى يغنيه بغزل حماد ، وانتشر هذا الشعر ، ونسبه الناس إلى محمد حيناً ، وإلى حماد حيناً آخر ، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جليلة الأمر ، فغضب على حماد وتوعده ، وحلف ليقنتله ، وظل حماد آمناً ما عاش محمد ابن أبي العباس ، ولكن محمداً مات ، فاضطرب حماد ، وأشفق من وعيده خصمه ، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبي خصمه هذا ، واستجار به ، وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان ، فلم يعطف عليه ، ولم يرث له ، وإنما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة : فهرب حماد ، حتى وصل بغداد ، فاستجار بجعفر بن المنصور ، فأجاره على أن يهجو محمد

ابن سليمان ، فهجاه وبالع في هجائه وأجاد ، فلم يزد محمد إلا سخطاً عليه ،
قالوا : وكان حماد في الأهواز ، فأرسل إليه محمد أحد مواليه ، فقتله غيلة ،
ويقال : لم يقتل ، وإنما أصابته علة طالت عليه ، ووصل نعيه إلى بشار ، ولم
يكن حماد قد مات ، فقال بشار :

لَوْ عَاشَ حَمَادٌ لَهَوْنَا بِهِ لَكِنَّهُ صَارَ إِلَى النَّارِ

قالوا : فبلغ هذا البيت حماداً وهو عليل ، فقال :

نُبِّئْتُ بِبَشَارَا نَعَانِي وَلِلَّهِ رِ بَرَانِي الْخَالِقُ الْبَارِي
يَا لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أَهْجُهُ نَعَمْ وَلَوْ صِرْتُ إِلَى النَّارِ
وَأَيُّ خِزْيٍ هُوَ أَخْزَى مِنْ أَنْ يَقَالَ لِي : يَا سَابُّ بَشَارِ

ثم مات حماد ، وكان من أمر بشار ما كان ، حتى قتله المهدي ، فدفن
بشار مع حماد في مكان واحد . قالوا : فر بهما شاعر من شعراء البصرة ، كان
يهاجي بشاراً ، يقال له أبو هشام الباهلي ، فوقف على قبريهما ، وقال هذه
الآيات ، التي تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قَدْ تَبِعَ الْأَعْمَى قَفَا عَجْرَدٍ فَأَصْبَحَا جَارَيْنِ فِي دَارِ
قَالَتْ بِقَاعِ الْأَرْضِ لَا مَرْحَباً بِقُرْبِ حَمَادٍ وَبِشَارِ
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَجَافِيهِمَا مَا أَبْغَضَ الْجَارَ إِلَى الْجَارِ !
صَارَا جَمِيعاً فِي يَدَي مَالِكٍ فِي النَّارِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ

حسين بن الضحاك الخليع^(١)

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف ، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون ، قليل الفحش في اللفظ ، غير متهاك على القول الآثم والألفاظ المنكرة ، لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض إليها إذا اضطر إليها اضطراراً ، وهو على ظرفه ورقة حاشيته ، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره ، شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجود إذا فكر ، مظفر إذا بحث ، موفق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين ، في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة ، غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال . وحياته كلها عيبرٌ وعظات ، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ، ليست بالمظلمة ولا العابسة ، ولا بالتى تردك وتنفرك ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سيلاً . ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظل مبتسماً منذ تبتدئ إلى أن تنتهى ، دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكنك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد ، وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة ، ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان الشاعر من المعمّرين ، بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظاً بشخصيته الوداعة المبتسمة ، تغير الناس ، واختلفت الظروف ، وظل هو واحداً لم يتغير . كان خليعاً ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المجون ، مسرفاً فيه ، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة ، أو تفوق عليه في مأثم ، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون ، وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشيء

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ - ٢٣ أبريل ١٩٢٤ .

من كرم الخلق ، وطهارة العنصر ، وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تتزلق على نفسه وأخلاقه تزلزلاً ، دون أن تترك فيها أثراً باقياً ، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعبث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة ، التي سأظهرك على طرف منها .

قلت : إن حياته كانت عبرة كلها ، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء ، الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ، وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً ، يعاشرهم ويرافقهم ، ويتدخل في حياتهم الخاصة ، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي ، وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويحرصون على عشرته ، ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس في البصرة ، واختلفا معاً إلى مجالسها وملاهيها ، ثم افترقا ، فذهب أبو نواس إلى بغداد ، وأقام هو في البصرة ، ولم تكد تمضي مدة قصيرة على أبي نواس في بغداد ، حتى بعد صوته ، وتسامع به أهل العراق ، لأنه اتصل بالأمرأ وأشرف الناس ، فارتفع قدره ، وعكبت مكانته ، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين في البصرة ، فغبط صاحبه ، وقفا أثره ، وانتقل إلى بغداد ، فمدح الناس وتقرَّب من أشرافهم ، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها ، وقال الشعر في الخمر ، وفي ضروب اللذات ، وما هي إلا أن عظم أمره ، وتسامع به أهل بغداد وزعماءها ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد ، وإنما اتصل بأبناء الرشيد ، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلاً؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء ، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك ، ويحتالون فيه ، حتى إذا نالتهم هذه الخطوة أنشدوا الخليفة شعرهم ، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم ! ذلك أن أبا نواس والحسين ابن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد ، فقد كان في الرشيد شيء من العبث وحب اللهو ، ولكن عبث الرشيد ولهو لم يكونا قوام حياته ، وإنما كانا ضرباً من الترفيه على النفس ، ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو ، فلم تتفق بضاعتهما عند الرشيد ،

ولنما نفقت عند الأمراء من أبنائه ، وعند الوزراء وأشباه الوزراء ، من رؤساء الدولة وأشرافها . فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه ، واتصل شيئاً بالأمين ، حين كان ولياً للعهد ، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك . وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد ، لم يكن لهما حظ من الملك ، ولا طمع فيه ، وإنما كانت حياتهما ضرباً من البطالة الاضطرارية ، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل حياتهما عيداً متصلًا ، وهما صالح بن الرشيد ، وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلًا اتصالاً خاصاً بصالح ، يناديه ويساقيه ، ويكاد يمضي معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالأمين ، واشتدت صلته به ، حتى تجاوزت علاقته ما بين الشعراء والخلفاء ، إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندرى إلى أي حد بلغ إخلاص الأمين لنديمه ، ولكننا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المهالك على اللذة رجلاً وفيّاً ، متين الخلق صريحاً ، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين ، وكيف يتعصب لحزبه ، ويؤيد أصحابه ، ويتعرض في سبيل ذلك للخطر ؛ كان الحسين من أشد الناس تعصباً للأمين ، وزرابة على المأمون ، حين ظهر الخلاف بين الأخوين ، واندفع في ذلك إلى غير حد ، ثم اشتدت المحنة ، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد ، وأخذت الحرب أشنع أشكالها ، فلم يخف الحسين ولم يفرع ، ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقت أخبار هذه الحرب ، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به ، وأسرع فحملة إلى الأمين مهتئاً مشجعاً . روى لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات :

أَمِينَ اللَّهِ ثِقَى بِاللَّهِ	بِ تَعْطَى الْعِزَّ وَالنَّصْرَةَ
كُلَّ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ	كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النَّصْرُ بِإِذْنِ اللَّهِ	بِ وَالْكَرَّةُ لَا الْفَرَّةُ
وَلِلْمُرَّاقِ أَعْدَائِهِ	لَكَ يَوْمُ السُّوءِ وَالْدَّبَرَةِ
وَكَأْسُ تَوَرُّدِ الْمَوْتِ	كَرْبُهُ طَعْمُهَا مُرَّةٌ

سَقَوْنَا وَسَقَيْنَاهُمْ فَكَانَتْ بِهِمُ الْحِرَّةُ
كَذَاكَ الْحَرْبُ أحياناً عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ثم قتل الأمين ، وكانت الكارثة فلم يتهن الحسين ولم يضعف ، ولم ينقلب على عقبيه ، ولم يتملق المنتصر ، وإنما ملكه حزن ليس بعده حزن ، وانطلق لسانه من الرثاء بالجلد المؤلم ، الذي تنقطع له القلوب ، وتتفطر له الأكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه ، واستعداد الله عليهم ، بعد أن عجز عن استعداد الناس ، ولج في ذلك ، وألح فيه ، حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يزد الحسين إلا هجاء للمأمون ، ورثاء للأمين ، حتى رق له أصحابه ، وأشفقوا عليه ، وألحوا في نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدث عن نفسه بهذا القول « كنت عازماً على أن أرى الأمين بلساني كله ، وأشفي لوعتي ، فلقيني أبو العتاهية ، فقال لي : يا حسين ، أنا إليك مائل ، ولك محب ، وقد علمت مكانك من الأمين ، وإنه لحقيق بأن ترثيه ، إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلief عليه ، والوجع له ، بما صار هجاء لغيره ، وثلبا له ، وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنْصَبٌ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأبقِ على نفسك ، يا ويحك أتجسر على أن تقول :

تَرَكَوْا حَرِيمَ أَبِيهِمْ نَفَلاً وَالْمُحَصَّنَاتُ صَوَارِخٌ هُتَفُ
هِيَهَاتَ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَهُمْ عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهُمْ شَرَفُ

أكفف غرب لسانك ، واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك ، فعلمت أنه قد نصحتني ، فجزيته الخير ، وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك في أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حباً للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشد بغضاً للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة التي قالها أبو نواس يرثي بها الأمين ، فمثلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة ، وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طَوَى الموتُ ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنيةُ ناشرُ
وكنْتُ عليه أَحذَرُ الموتِ وَحَدَه فلم يبق لي شيءٌ عليه أَحذَرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرَةً تستدعيها أحاديثُ نفسٍ ما لها الدهرُ آخِرُ
لئن عَمِرَتْ دورٌ بمن لا أَحِبُّهُمْ لقد عَمِرَتْ ممن أَحَبُّ المقابرُ
فانظر بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين ، ورأيه في الدولتين ؟ وحدثني :
أتجد أبلغ من هذا الشعر في وصف الهزيمة السياسية ، وحدثني : أيستطيع
منهزم في السياسة ، معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :
سألونا أن كيفَ نحنُ ؟ فقلنا : مَنْ هَوَى نجمُه فكيف يكونُ
نحنُ قومٌ أَصابنا حَدَثُ الدَّهْرِ رِ فظَلْنَا لِرَيْبِهِ نَسْتَكِينُ
نتمنى منَ الأمينِ إياباً لهفَ نفسى وأَيْنَ منا الأمينُ
وانظر إلى هذه الأبيات التي تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس :
ولم لا يقصد الشاعران إلى معنى واحد ، وكلاهما كان محباً للأمين ، مؤثراً له ،
وكلاهما كان عدواً للمأمون ، مسرفاً في بغضه :

أَعَزَّى يا محمدَ عنكَ نفسى معاذَ الله والأيدى الجسامِ
فهلاً مات قومٌ لم يموتوا ودافع عنكَ لي يومَ الحمامِ
كَأَنَّ الموتَ صادف منك غُثْمًا أو استثنى بقربك من سقامِ
واقراً هذين البيتين :
هَلَّا بَقِيَتْ لِسَدُّ فَاقَتِنَا أبداً وكان لغيرك التَّلَفُ
فلقد خَلَفْتَ خَلَائِفاً سَلَفُوا ولسوفَ يُعَوِّزُ بعدَكَ الخَلَفُ
ويظهر أن هذين البيتين تركا في نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ،
فقد تحدث ثُمَامَةُ بن الأشرس أن المأمون لما وصل إلى بغداد طلب أن يسمى
له نفر من أهل الشعر والأدب ، يتخذهم له جلساء . فسمى له قوم ، منهم
الحسين ، فذكر هذين البيتين ، وأقسم لا يراه إلا في الطريق . قال ثُمَامَةُ وانحدر
الحسين إلى البصرة ، فأقام فيها طوال أيام المأمون .

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه ، وأشفق من ذلك ، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة ، ووسط إليه نفرًا من أشراف القوم منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجده فيه أنا روح الحسين فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه ، ولكنه أبي الإباء كله أن يأذن له في الاختلاف إلى القصر . وسواء أصبحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح ، فإن في حياة الحسين أيام المأمون ، مع ما قال فيه وفي أخيه ، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الأمين ، ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد ، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس ، واضطر إلى أن يعيش في البصرة من صلب ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه ، وحدثوه في ذلك ، وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الأرزاق ، وكثرة النفقة ، فقص عليهم قصصاً للذيداً ، يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة في الحياة ، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة ، وهو إنما ينفق ويعيش من صلات الأمين وجارية له لم يسمها ، ذلك أن الأمين دعاه ذات يوم ، فزعم له أنه صديقه وعشيرته ، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشيء يجب أن يخفيه ، وكانت للأمين جارية فتنته بلحائها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنية ، كثيرة الدل ، مسرفة فيه ، فكانت تنغص على الأمين صفوه ، فضاق الأمين بذلك منها ، وأراد أن يلقي عليها درساً ، وكلّف الحسين أن يلقي هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى ، لا تبلغها جمالا ولا إجادة في الغناء ، وسيأمرهما أن تغنيا ، وطلب إلى الحسين أن يفتر ويتناقل إذ غنّت الحميلة المحسنة ، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه ، إذا غنت الأخرى ، وأعفاه من كل حرج ، ووعدته مئة ثوب لكل ثوب يشقه ، فوعد بالطاعة ، وخلا إلى الأمين ، وجاءت الجاريتان ، فغنت المحسنة ، وكان الحسين فتيّاً ، وكان رجلاً صادقاً ، ولا سيما إذا شرب ، فلم يستطع أن

ينى بالوعد ، وإنما أخذ يُظهر الرضا والإعجاب ، وكلما أوماً إليه الأمين لم يزد إلا رضى وإعجاباً ، ثم غنت الأخرى ، فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غناءها ، واستأنف الحسين شرا به ، فإذا لبَّه قد طار ، وإذا هو يصيح ، وإذا الأمين يشير ويقطب ، ويظهر العبوس ، ولكن الحسين عنه فى شغل بطربه ولذته ، حتى ضاق الأمين ، وأمر بالحسين فجراً برجله ، ثم أمر فحجب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ، ويرثون له ، ويسألونه عن سبب هذه النكبة ، فيقول : تحامل على النبذ ، فأسأت الأدب ، فقومنى أمير المؤمنين ؛ ومضى دون ذلك شهر ، ثم دعى الحسين إلى القصر ، وإذا الأمين يتلقاه لقاء حسناً ، ويخلو إليه فى تلك الحجرة ، ويدعو المغنية ، وينبئ الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح ، وأنها قد انتهت إلى ما يحب ، وأنها قد شفعت للحسين عنده ، فقبل شفاعتها ، ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ، ومنحته هى دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هذه الجارية للحسين فما كان يمضى أسبوع ، حتى تنتهى إليه هداياها وألطافها ، فهو يعيش من ذلك أيام المأمون عليه .

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضى حتى ابتسم الدهر للحسين ، فعاد إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل ، وكانت له عندهم جميعاً حظوة لا تعدلها حظوة ، وكان مقدماً عندهم جميعاً على غيره من الشعراء ، ولا سيما الواثق ؛ فقد كان يحبه حباً شديداً ، ويطمئن إلى منادته ، ويتخذة موضعاً لسره فى حياته الخاصة ، وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المجون والمزاح ، وألوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعاً أخبار حلوة ، تبسط فى روايتها أبو الفرج .

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمر من أبناء الرشيد ، ثم اتصل بالأمين والمعتصم والواثق والمتوكل من الخلفاء ، وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل ، بل إن مستقر الحكم نفسه قد تغير ، وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالأمين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور ، فكان فى القرن الثالث غيره

فى القرن الثانى ، من وجوه مختلفة ، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ، ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد ، دون أن يغير من شخصيته شيئاً ، وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصية قوية كشخصيته !

وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك. أن نجهد فى وصفها ، وأن نعطيك منها صورة ما ، لتعرف مكانه من الشعراء الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء إلى هذا ، فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقارباً ، ولكن ينقصه شىء من الدقة ، شبهوه بأبى نواس ، أو قل خلطوا بينه وبين أبى نواس ، وأسرفوا فى هذا الخلط أحياناً ، حتى روى لكل منهما شعر صاحبه ، وفى الحق أنك تجد فى ديوان أبى نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد فى أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبى نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه ، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة فى النقد ، وتعمقاً فى البحث الأدبى . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدبى ، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم ، وإنما انتهى بهما إلى الخصام ، وإلى التناوب أحياناً ، دون أن يتصل بينهما الهجاء ، ودون أن يوقع أحدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة إلى الغضب ، وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان يلهو ويعبث فى غير فلسفة ومذهب . أما أبو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس ، والسخر منهم ، والعبث بهم ، وبما يتصل بحياتهم ، من أصول وعقائد ، ومن نظم وقواعد ، فكان يعبث بالحسين صديقه ، ويسخر منه ، ويغيظه ، لا يتقى ذلك ولا يتكلفه ، وإنما يعلنه إعلاناً ، ويعلنه إلى الحسين نفسه ، وكان الحسين يفتاظ ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس فى وجهه أقبح الشتم ، ويتحدث إلى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث فى الدين والأخلاق والحياة وحدها ، بل كان يستبيح العبث فى الأدب والشعر أيضاً ،

كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء ، وكان يرى أنه شاعر مجيد ؛ وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر في المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين ، فقد كانت للحسين في الخمر معان وألفاظ جياد ، يتمنى أبو نواس لو ظفر بها ، وسبق إليها ، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس ؛ فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا فاستحسنه ، حسد الحسين عليه ، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين ، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه في لفظ ؛ فإذا أظهر الحسين غضباً ضحك أبو نواس ، وقال : « دع عنك هذا ! فوالله لا يُروى لك شيء في الخمر وأنا حي » . وربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة ، فزعم القصيدة برمتها لنفسه ، وصدقته الناس ، وتناقلوا القصيدة على أنها له .

تحدثت الرواة من هذا بالشيء الكثير ، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبي نواس من لين الخلق ، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ، ومن الإخاء في الأدب واللهم ، ولكنه يمثل لنا شيئاً آخر ، هو الذي يعيننا من وجهة البحث الأدبي ، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين وشعريهما ، فقد كان الرجلان مسرفين في المجون ، مهالكين على الخمر ، مشغوفين بوصفها وذكر آلاتها ، وكان مذهبهما في ذلك واحداً أو مقارباً . ولم لا ! ألم يتأثروا جميعاً بأستاذ واحد ، هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعاً على شعر هذا الملك ، الذي ظلم في السياسة وظلم في الأدب أيضاً ! ثم ألم يتأثرا جميعاً بهذه الحياة البغدادية ، وهذا اللهو البغدادى ! ثم ألم يتصلا جميعاً بالأمين وقصور الأمراء والوزراء ؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر في اللفظ ، وظاهر في المعنى ، وظاهر في الطبع أيضاً كان أبو نواس كالحسين : ماجناً ، شارباً ، وصافاً للخمر ، محباً للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهتراً مهتكاً ، يتمدح بالاستهتار والتهتك ، ويتخذهما مذهباً وديناً ، وكان من جهة أخرى ، بحكم هذا الاستهتار والتهتك ، متسفلاً

فى شعره ، لا يتكلف الإجابة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشرف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيته إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأواسط الناس ، ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغللمان الحانات والأديار ، فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء ، وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الإجابة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخراً شديداً السخر ، فكان يعتمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو ، فيحرف عليهم قواعدهم ، ويسخر لهم من أصولهم ، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلاً بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب ، مقصوراً عليهم ، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم ، أو بمحضر منهم ، فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس ، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس ، وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزله من القصور مضطراً إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية ، التي تصلح للأرستقراطية ، فقلّ الفحش جداً فى شعره وغلبت المثانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه ، وغلبت الجودة على معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو ، فكان فى شعره هدوء واطمئنان ، خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالاً مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد فى شعره هذا الاحتشام المتكلف ، الذى يصطنعه المنافقون من الفساق ، وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرّد فسقه ، ولا يظهره للناس عارياً كأبي نواس ، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه ، فيخلع عليه أثواب الورع والدين . وكذلك كان الحسين ، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهى مفهومة جداً ، كان يعاشر الأمراء والخلفاء ، وكان ينشئ لهم الشعر ، ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك ، حتى أثر فى شعره ، وأصبح شعره كله موسيقياً ، وقلّ أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون ، وقلّ أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء ، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب ، بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقى الذى

لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا أثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية . فانظر إلى هذا البيت ؛ فهو يمثل ما أريد تمثيلاً صحيحاً

قد غابَ لا آبَ من يُراقبنا ونام لا قامَ سامرُ الخدم
فانظر إلى قوله « قد غاب لا آب » وإلى قوله : « ونام لا قام » تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته ، هذا النغم الموسيقي ، الذي زاوج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقي كثير في شعر الحسين . وجملة القول في شخصية هذا الشاعر ، أنه كان كأي نواس ، ولكنه أنقى من أبي نواس لفظاً ، وأعف منه لساناً ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ، ولم يكن يعدل أبا نواس في خفة الروح ، وحلاوة المحزون ، ولم يكن يبلغ أبا نواس في الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبي نواس حرارة في العاطفة ، وصدقاً في اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشيء من الرجولة والوفاء ، لم يكن لأبي نواس منه حظ عظيم ، وكان يمتاز على أبي نواس بشيء آخر ، وهو أنه لم يكن سريع التنقل في أهوائه ولذاته ، وإنما كان وفياً في حبه ، كما كان وفياً في صداقته ، وكانت قصة الحسين التي استأثرت بحياته الغرامية في شبابه ، إن صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء ، هو « يُسر » غلام أبي عيسى بن الرشيد . وكان « يسر » هذا جميلاً خللاً ، فتن به صالح بن الرشيد نفسه ، وتلطف له ، واجتهد في الخطوة عنده ، فوجد في ذلك عناء شديداً ، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال ، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين فأحبه الحسين نديم صالح ، كما أحبه صالح نفسه ، وتناقل يسر على الحسين وازدراه ، ولكن الحسين تلطف واحتال ، وبالغ في التلطف والحيلة ، حتى وجد من قلب الغلام مكاناً ، ولعل الذي انتهى به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما هو شعره الجيد الكثير ، الذي قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، ولست أريد أن أروي لك شعره في يسر ، فهذا كثير ، لا تسعه هذه الصحيفة ، وإنما أروي لك من هذا الشعر نموذجاً حسناً ، يمثله

تمثيلاً صحيحاً، وهي هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهو، كانت بينه وبين يسر .

تَيْسِرِي لِلِّمَامِ مِنْ أَمَمٍ وَلَا تُرَاعِي حَمَامَةَ الْحَرَمِ
 قَدْ غَابَ لَا آبَ مِنْ يَرَاقِبِنَا وَنَامَ لَا قَامَ سَامِرُ الْخَدَمِ
 فَاسْتَضْجِي مُسْعِداً يُفَاوِضُنَا إِذَا خَلَوْنَا فِي كُلِّ مُكْتَمِ
 تَبَدَّلِي بِذِلَّةٍ تَقَرُّ بِهَا أَلْ عَيْنُ وَلَا تَحْصِرِي وَتَحْتَشِمِي
 لَيْتَ نَحْنُ السَّمَاءُ رَاكِدَةٌ عَلَى دُجَى لَيْلِنَا فَلَمْ تَرِمِ
 مَا لَيْسَ رُورِي بِالشَّكِّ مَمْتَزَجٌ حَتَّى كَأَنِّي أَرَاهُ فِي حُلْمِ
 فَرِحْتُ حَتَّى اسْتَخَفَّنِي فَرْحِي وَثُبْتُ عَيْنَ الْيَقِينِ بِالثُّمِ
 أَمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَشْبِتاً نَظْرِي إِخَالِنِي نَائِماً وَلَمْ أُنَمِ
 سَقِيّاً لَيْلٍ أَفْنَيْتُ مُدَّتَهُ بِبَارِدِ الرِّيقِ طَيْبِ النَّسَمِ
 أَبْيَضُ مُرْتَجَّةٌ رَوَادِفُهُ مَا عِيبَ مِنْ فَرْقِهِ إِلَى الْقَدَمِ
 إِذْ قَصَبَاتُ الْعَرِيشِ تَجْمَعُنَا حَتَّى تَجَلَّتْ أَوَاخِرُ الظُّلَمِ
 وَلَيْلَةٌ بِتُهَا مُحَسَّرَةٌ مُحْفُوفَةٌ بِالظُّنُونِ وَالثُّمِ
 سَقِيّاً لِقَيْطُونِهَا وَمِخْدَعِهَا كَمْ مِنْ لِمَامٍ بِهِ وَمِنْ لَمَمِ
 وَلَيْلَةُ الْقُفُصِ إِنْ سَأَلْتَ بِهَا كَانَتْ شِفَاءً لِعِلَّةِ السَّقَمِ
 بَاتَ أَنْيْسَى صَرِيحَ خَمَرَتِهِ وَتِلْكَ إِخْدَى مَصَارِعِ الْكَرَمِ
 وَبِتْ عَنْ مَوْعِدٍ سَبَقْتُ بِهِ أَلْثَمُ دُرّاً مُفْلَجاً بِفَمِ
 أَبَاخَى نَفْسَهُ وَوَسَدَنِي يُمْنَى يَدَيْهِ وَبَاتَ مُلْتَزِمِي
 حَتَّى إِذَا هَتَّاجَتِ النَّوَاقِيسُ فِي سُحْرَةِ أَخَوَى أَحَمَّ كَالْحُمَمِ
 وَقُلْتُ هُبَا يَا صَاحِبِي وَنَبِّ هَتُّ أَبَاناً فَهَبْ كَالزَّلَمِ
 فَاسْتَنْهَا كَالشُّهَابِ ضَاحِكَةً عَنْ بَارِقٍ فِي الْإِنَاءِ مُبْتَسِمِ
 صَفَرَاءَ زَيْتِيَّةٍ مُوشَّحَةً بِأَرْجُوَانٍ مُلَمَّعٍ ضَرَمِ

أَخَذْتُ رِيحَانَةً أَرَاخُ لَهَا دَبُّ سُرُورِي بِهَا دَبِيبُ دَمِي
فَرَاجِعُ الْعُذْرِ إِنْ بَدَا لَكَ فِي الْإِ عُدْرٌ وَإِنْ عُدَّتْ لَأَمَّا فَلَمْ

فانظر إلى هذه القصيدة على طولها ، كيف جادت ألفاظها ومعانيها !
وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه ، وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ، ثم
شكه في هذا الوفاء ، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه ، وإكباره له !
ثم انظر إليه كيف يأخذ في تفصيل لذته متبسطاً ، وإذا هو يدنوا من الفحش
قليلاً قليلاً ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد أصبع ، انصرف عنه ،
وقد ألمَّ به إلماً ، وخيله إليك تخيلاً ، فإذا لم يكن بد من التصريح ، ففي
لفظ لا يروع التقي ، ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك . .

أتري إلى أبي نواس في مثل هذا الموضع ؟ أكان يعفبك من تصريح
بشع ! أكان يدخل عليك بلفظ مكروه ! بلى ، لو وقف أبو نواس هذا
الموقف لتعمد الإفحاش والإساءة ؛ لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل
هذا الشعر في الشعر وحده ، وإنما يفكر في خصومه الذين ينكرون عليه لذته ،
فيريد أن يغيظهم ويكبتهم ، فيمضي في الفحش إلى غير حد .

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي تمثل لك رقة الحسين ولطفه في الغزل :

لَا وَحُبِّيكَ لَا أَصَا فِجْ بِالذَّمِّ مَدَمَعَا
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا ح وَإِنْ كَانَ مُوجَعَا
كَبِدِي مِنْ هَوَاكَ أَنَّهُ قَمُّ مِنْ أَنْ تَقَطَّعَا
لَمْ تَدَعْ سُورَةَ الضَّنَى فِي لِسْتُمْ مَوْضِعَا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر . ولشدهما أحبينا
أن نسمع متغنياً يتغنى فيه ، كما تغنى فيه القدماء ببغداد ! ولقد فتن ثعلب
بهذا الشعر ، حتى قال لأصحابه : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا . . .
ولقد أريد أن أمثل لك شيئاً من عبث الحسين ، فهو كثير ، ولكنني
متحير ، لا أدري ماذا أختار منه . فلاكتف من هذا بهذه القصة ، التي

لا تمثل الحسين وحده ، وإنما تمثل معه أيضاً علمين من أعلام الحياة السياسية أيام
الوائق . شك الناس في رمضان ، وأمر الواثق بالإفطار ، فكتب الحسن ابن
رجاء إلى الحسين .

هزرتك للصُّبوح وقد نهائي أميرُ المؤمنين عن الصَّيامِ
وعندي من قيان المِضرِّ عَشْر تطيبُ بهنَّ عاتقهُ المَدَامِ
ومِنْ أمثالهن إذا انتشينا ترانا نجتني ثَمَرَ الغَرامِ
فكنْ أَنْتَ الجوابَ فليسَ شيءُ أحبُّ إلى من حَذَفِ الكلامِ

قال الحسين : فوردت على رقعة ، وقد سبقه إلى محمد بن الحارث
ابن بُسْخُنَّر ، ووجهه إلى بَغْلَامِ نَظِيفِ الوجه ، ومعه ثلاثة غِلْمة أقران حسانُ
الوجه ، ومعهم رقعة قد كتبها إلى كما تكتب المناشير ، وختمها في أسفلها ،
وكتب فيها يقول .

سرَّ على اسمِ اللَّهِ يا أَشَدَّ كلَّ من غَضِنِ لُجَيْنِ
في ثلاثٍ من بني الرُّو م إلى دارِ حُسَيْنِ
أشْخِصِ الكَهْلَ إلى مو لَكَ يا قُرَّةَ عَيْنِي
أَرِهِ العُنْفَ إذا اشتَعَّ صي وطَالِبُهُ بِدَيْنِ
وَدَعِ اللَّفْظَ وخاطِبِ هُ بَغْمِزِ الحاجِبينِ
واحذِرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْهِ هَكَ في خُفْيِ حُنَيْنِ

قال فضيت معهم ، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جواب رقعة :

دعوتَ إلى مُمَاحَكَةِ الصَّيامِ وإعمالِ المَلَاهِي والمَدَامِ
ولو سَبَقَ الرَّسُولُ لَكَانَ سَعِي إِلَيْكَ يَنُوبُ عن طولِ الكلامِ
وما شوقِي إِلَيْكَ بدونَ شَوْقِي إِلَى زَمَنِ التَّصَابِي والغَرَامِ
ولكن حل في نفر عَسُوفُ بمنشور محلِّ المُسْتَهَامِ
حُسَيْنِ فاستباح له حَرِيباً بَطَرْفِ باعِثِ سَبَبِ الحِمَامِ

وأظهرَ نَخْوَةً وسطاً وأبدى فظاظته بتركٍ للسلام
 وأزَعَجَنِي بِالْفَاطِ غِلَاطٍ وقد أعطيته طَرْقِي زِمَامِي
 ولو خالفتُهُ لم يخش قَتْلِي وَقَنَعْنِي سَرِيعاً بِالْحُسَامِ
 ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ، ولا قصته في أمر مُقَنِّمٍ ،
 ولا دهاءه في أمر الشامي وعشيقته « بَصْبَصُ » ، فانت تستطيع أن تقرأ هذا
 كله وأكثر منه في الأغاني . وأحسب أني قد أسرفت في الإطالة ، فأختم
 هذه الصحيفة بهذه الأبيات ، التي قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ،
 وكان قد نادم المتوكل ، ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ، ووشى به الناس إلى
 الخليفة ، فكتب إليه هذه الأبيات التي تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء ،
 فلا تظهر الشعر في هذا السن ضعفاً ولا وهناً ، كما أنها لا تظهر فيه شباباً ولا قوة :

أما في ثمانين وقيتها	عذيرٌ وإن أنا لم أعتذر
فكيف وقد جُزَّتْها صاعداً	مع الصاعدين بتسعٍ أخسر
وقد رفع الله أعلامه	عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصرَّ على فتنة	والحد في دينه أو كفر
وإنني لمن أسراء إلا	في الأرض نُصِبَ صُروف القدر
فإن يقض لي عملاً صالحاً	أثاب وإن يقض شراً غفر
فلا تلح في كبر هدي	فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب	فأعقبني خوراً من أشر
وقد بسط الله لي عُذْرَهُ	فمن ذا يلم إذا ما عذر
وإنني لنى كنف مغدق	وعز بنصر أبي المنتصر
يبارى الرياح بفضل السما	ح حتى تبك أو تنحسر
له أكَّد الوحي ميراثه	ومن ذا يُخَالِفُ وحي السور
وما للحسود وأشياعه	ومن كذب الحق إلا الحجر

بشار بن برد^(١)

ليس وجه بشار بذلك الوجه المشرق الجذاب، الذي يستميلك ويستهويك، وإنما هو فيما أعتقد رجل ثقیل الظل، له من الفن حظه الموفور، ولكن روحه في حاجة شديدة إلى الخفة، ولست أدري أشاركني في هذا الرأي أم تخالفني فيه؛ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتُعجب بهم، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب، أي أنا أعتقد أن الشاعر ليس محبباً إلى النفس لأنه مجيد ليس غير، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجابة خلافاً أخرى، تدني منك شخصيته، وتقارب ما بينهما وبين نفسك، حتى تحبه وتميل إليه. ولم يرزق الله بشاراً من هذه الخلال شيئاً، أو لم يكده يرزقه منها شيئاً، وإنما منحه من القوة الفنية والإجابة في الشعر حظاً موفوراً، ولكنه إلى التنفير أقرب منه إلى الترغيب وإيجاد العطف. وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التي ابتلى الله بها بشاراً مصدراً لحب الناس إياه وعطفهم عليه، ورفقهم به، لو أن بشاراً عرف كيف يتلقى هذه الآفة، وكيف يحتملها، وكيف يعرف مكانته منها، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدراً للنقمة منهم، والسخط عليهم؛ لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس، أو يضعونه في غير موضعه. فكم سخط على معدم، وكان من جحك أن ترجمه؛ لأنه لم يعرف كيف يكون معدماً أو فقيراً، كذلك أصاب الله بشاراً بهذه الآفة، فسلبه البصر، وكان إلى ذلك نابغة في الشعر، يكاد ينعدم نظيره في قوة الذكاء، وحدة الذهن، ولكنه أساء احتمال آفته، كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه، فأصبح يغيضاً إلى الناس، مذمماً عندهم، ثقيلاً عليهم، حتى روى الرواة أن عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته، واستبشروا به، كأن الله قد أزاح عنهم ضُرّاً.

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ - ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤.

ربما لم تعرف آداب العرب في إسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة ، فأسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جداً ، لا أقول من الوجهة الأدبية أو الشعرية ، فليس للمقارنة بينهما من سبيل ، وإنما أقول من هذه الوجهة التي تحبب إليك الرجل ، أو تبغضه إليك ، كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيئ الظن بالناس ، مسرفاً في سوء الظن ، لأنه كان مكفوف البصر ، ولكن أحدهما استساع أن يحمل مصابه راضياً مطمئناً ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خيراً خفيف الظل ، جذاباً محبباً إلى النفس ، يكاد يكون كله حباً ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ! بل هو لم يحتمل هذا المصاب ، وأكاد أحسب أنه لم يفترضه ، ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة إلى الفخر والتمدح ، وأسرف في ذلك إسرافاً شديداً ، فكان يحمد الله على العمى ، لأنه يحول بينه وبين رؤية الناس ، الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرماً شديداً ، وليس هذا شيئاً ؛ فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله ، والاعتذار عنه ، ولكن بشاراً تتجاوز الحد في ذلك ، فلم يكتف بحمد الله على العمى ، بل اتخذ العمى فخراً ، وزعم أن ذكائه النادر ، ونبوغه الفذ ، إنما هما أثر من آثار هذه المحنة ، وقال في ذلك كلاماً كثيراً . وكان من اليسير أيضاً أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل ، وشدة الذكاء ، وحدة الذهن ، ونفاذ البصيرة ، ومنحه إلى ذلك قوة الجسم ، ودقة الحس ولطفه ، ومنحه إلى هذا وذاك نفساً ثائرة مضطربة . شرهة إلى اللذة ، لا تقنع منها بالقليل ، ولا تظفر منها بحظ إلا استزادته ، وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول : ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى ، راضياً بها ، مطمئناً إليها ، وإنما المعقول أن يحدث ذلك في نفسه سخطاً شديداً على الحياة والأحياء ، لما يجر عليه ذلك من حرمان . . . أضف إلى هذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ،

ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب ، وإنما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به ، ويسرفون في ذلك ، حتى يبلغوا إعناته ، ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدراً لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق ، وشدة البغض للناس ، والموجدة عليهم ، وإضرار الشر لهم ، والإسراف في السخرية منهم . وماذا تقول في رجل لم يُخلص لإنسان ! وما نحسب أن إنساناً أخلص له ، وإنما كان سيئ الظن بالناس جميعاً ، منطلق اللسان في الناس جميعاً ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، وربما مدح وهو يضمن الهجاء ، بل لعله لم يمدح إلا وهو يزدري ممدوحه ! وكان مخلصاً إذا هجا ؛ لأنه كان يزدري الناس ، ويسرف في بغضهم ، وقد عظمت في نفسه هذه الخلة ، حتى استأثرت به ، وسيطرت عليه ، وأصبحت مقياس حياته ، وقانون ما بينه وبين الناس من معاملة ، وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويمنحونه الجوائز ، لا إعجاباً به ، ولا رحمة له ، ولا عطفاً عليه ، بل إشفاقاً منه ، لأذاه . وعرف هو منهم ذلك ، فنالهم من حيث ينال الضعيف ، مدحهم ولم يكره أن يُنذِر وهو يمدح ، وربما أعرض عن المدح ، واكتفى بالإندار ، وربما أعرض عن المدح والإندار جميعاً ، وسلك أقصر الطرق ، وهجا بالبيت أو البيتين ، فيشفق المهجو من المزيد ، فيتزل عندما أراد . ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح يقيناً عنده ، فأصبح بشار من أشد الناس إثارة لنفسه ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه ، وأن الشر يجب أن يعدوّه إلى غيره . ولم لا ! أليس يرى أنه أذكى الناس ، وأشعر الناس ، وأعلم الناس ! وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ، ويدعوا لهواه ؛ فإن فعلوا فذاك ، وإلا ففي لسانه تثقيف لا عوجاجهم ، وإصلاح لما فيهم من فساد . ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلاً أطول منه لساناً ، ولا أسرع منه إلى شر ، ولا أشد منه إمعاناً في الفحش إذا هجا ، ولا أقل منه احتفالاً بالعدل أو الظلم .

وأخرى من خلال هذا الرجل ، هي أنه أسرف في بغض الناس وازدراؤهم ، فأسرف لذلك في إثارة نفسه عليهم ، ومن اتصف بالإيثار فقد

اتصف بالحب ، لأن الإيثار في حقيقة الأمر شكل من أشكال الحب ،
ولون من ألوانه ، فليس شجاعاً ذلك الرجل الذي يعجز عن أن يأخذ نفسه
بما لا تحب ، وإنما الشجاع حقاً هو من بدأ بنفسه ، فأخذها بالخير ،
وحال بينها وبين الشر ، حتى إذا فرغ من نفسه عني الناس ، وكان بشار
من أشد الناس في عصره جبناً وفرقاً ، كان طويل اللسان ، سقيماً مسرفاً
في الهجاء ، إلا أن يبدو له ما يخيفه ، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر .
وكان يخاف كل شيء ، كان يخاف السيف ، وكان يخاف السوط ، وكان
يخاف اللسان ، وكان يخاف غير هذا كله ، وله في ذلك أحاديث . زعموا
أنه طلب إلى رجل مصور أن يتخذ له جاماً ، ويرسم فيه طيراً ، ففعل الرجل ،
وأقبل إليه بالجام ، فوصفه له ، فلم يرض ، وقال : كان يجب أن ترسم فيه
طيراً جارحاً يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت أني أعمى ، فاستخففت بي ،
فلأهجونك . قال صاحبه : لا تفعل ، فأنت نادم إن فعلت ، قال : أنتذرنى ؟
قال : نعم ، قال : وبم ؟ قال : أصورك على صورتك ، وأجعل من ورائك
قرداً . . . وأضع ذلك على بابي ، ففقهه بشار ، وصدق بيديه ، وقال :
قاتله الله ! أمازحه فيأبى إلا الجلد . فانظر إليه أشفق من هذه الصورة ، ولو
لم ينلوه بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طلب إلى صديق له تاجر ثياباً بنسيئة ،
فلم يوفق الرجل لما أراد ، فغضب بشار ، وكتب إليه بيتين من أقبح
الشعر ، ولم يكن هذا الرجل شاعراً ، ولكنه اغتاظ لهذين البيتين ، فرد عليهما
بشر منهما ، فانكسر بشار ، وأقسم لا يهجو مثله من سفلة الناس . قالوا :
وهجا بشار رَوْح بن حاتم ، فجاءه منه التذير ، فلم يحفل ، وألح في الهجاء ،
فأقسم روح : لئن رأيته لأضربه بالسيف ، ولو كان بين يدي الخليفة .
قالوا : فلما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره ، فدخل على المهدي ،
وعاذ به فأعاده ، وأرسل في طلب روح ، فكلمه في ذلك ؛ فأبى ، وقال :
إنه أقسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يميني ، فأحضر المهدي
الفقهاء ، ليتأولوا له مخرجاً ، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض السيف ،
وكان بشار وراء ستار ، فأخرج ، واستل روح سيفه ، وضربه بعرضه ،

قالوا : فلما أحس بشار السيف جزع ، وصاح أوّه باسم الله ! فتضاحك المهدي . وأحاديث بشار في الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى . وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته ، وهي أنه إذا كان أثراً شديداً للإشفاق ؛ فقد كان مسرفاً في النفاق أيضاً وليس يمثل إسرافه في النفاق أكثر من مكانه من الزنادقة ، ورأيه فيهم . وسيرته معهم . كان من أشد الناس إلحاداً في الدين ، وتهالكاً على اللذة ، وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم ، يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفي ، وإنما كان رجلاً له رأى وبصيرة : يفكر وينظر ويحاج عن رأيه ، وكان صديقاً لواصل بن عطاء ، ونفر من أصحاب الكلام في البصرة فكانوا يتناظرون في الدين ، ثم اختلفوا : فأما واصل فمضى في الاعتزال وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة في الكلام ، ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده ، وإنما ترك البصرة فراراً من أميرها ، وخافة أن يدل عليه أصحابه ومناظروه ، أما بشار فإنه لم يعلن شيئاً خاصاً ، وإنما مضى في سيرته ، يخيل للناس أنه يرى رأى الجماعة ، ويضمّر الزندقة والإلحاد ، ويزدري رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ذلك ، وكان واصل يعلمه ، وينكره عليه ، ويهتف به ، فهجاه بشار ، وأسرف في هجائه ، حتى سكت عنه واصل ، وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شراً ، ثم لم يكن يكتفي بهذا ، وإنما كان يدفع عن نفسه الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأندال الناس ، فيتهم بها غيره من خصومه ، ومن أصدقائه أيضاً ، وقد مر بك في أحاديثنا الماضية شيء من سيرته مع حماد عجرد ، فقد أسرف في اتهامه بالزندقة . وما نشك في أن حماداً كان من الإجابة بعيداً عن أن يبلغ حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير ، أو قل : كان لزندقته وجهان : أحدهما علمي نظري ، فيه ذكر لمذهبه ، ودفع عنه ، وحوار دونه ، والآخر عملي أدبي ، يشارك فيه حماداً ومطيعاً وغيرهما من المجان ، فكان بشار يدين بالرجعة ، ويكفر الأمة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها حادت عن طريق الدين ، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول

عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أم عمرٍ بصاحبك الذي لا تصحّينا

وكان يؤثر النار على الطين ، ويفضل النور على الظلمة ، فكان من هذه الناحية فارسي الزندقة ، ثم كان في حقيقة الأمر فارسياً في كل شيء ، كان فارسياً في زندقته ، يقدم النار التي يعبدّها الفرس ، وكان فارسياً في أهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ، ولا يرتاح إليهم ، وإنما كان يحتملهم احتمالاً ، وكان ينكر الولاء ، ويحث الموالى على أن ينكروه ، وكان يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب ، ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس ، وربما فاخر بنسبه الفارسي ، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدي ، ويقولون إن رجلاً من أشرف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه ، لأنه يفسد الموالى على العرب ، فهجاه ، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه .

كان بشار إذن زنديقاً ، ممعناً في الزندقة ، وكان شعوبياً ، متشدداً في الشعوبية ، وكان يحتمى بالنفاق أيضاً ، كما قدمنا ؛ فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشرف الناس أيام بني أمية ، وأيام العباسيين ، يطلب منهم المال ، ويطلب منهم الجاه أيضاً ، ولكنه لم يكن مخلصاً في شيء من ذلك ، وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق ، ويصبرون عليه ، أو يتغاضون عنه ، حلماً مرة ، وعفواً مرة أخرى ، وإشفاقاً في أكثر الأحيان .

فإذا أردت أن تتم شخصيته من حيث هو رجل ، فينبغي أن تضيف إلى كل ما قدمنا نخصلة أخرى ، وهي أنه كان شديد الولع بالنساء ، مسرفاً في التشبيب ، مفتناً فيه فنوناً لم يسبق إليها ، وكأنه لم يلحق فيها أيضاً . كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثاً على الفسوق ، وإفساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف ، وأوفرهن حظاً من الإحصاء ، وقد جزع لذلك الناس في البصرة ، فسعى إليه وعناظهم وأهل الصلاح منهم يهونه ، وهتف به خطباؤهم ، والمتكلمون فيهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ، ولم يردعه ، بل مضى

في نسيبه وتشبيهه ، وفي استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره ، والاستهتار به ، كما أكثرن من الاختلاف إليه ، ومجاذبته الحديث ، وكانت له معهن سيرة مرذولة ، فشكا الناس إلى المهدي ، فنهاه المهدي ، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشبيب ، وفي ذلك يقول :

يا منظرًا حسنًا رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني	برّد الشباب وقد طويته
والله ربّ محمد	ما إن غدرت ولا نويته
أمسكتُ عنك وربّما	عرض البلاء وما ابتغيته
إنّ الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضّب رخص البنا	ن بكى على وما بكيته
ويشوقني بيت الحبي	ب إذا أدكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه	فصبرتُ عنه وما قلّيته
وناني الملك الهما	م عن النساء وما عصيته
لا ، بل وفيت فلم أضع	عهدًا ولا رأياً رأيته

قالوا : ووفد بشار على المهدي ، فاشترط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة غزلاً ، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات ، ثم أنشده مدحاً لا غزل فيه ، فحرمه المهدي ولم يُجزّه ، وقال الناس لبشار : إنما حرملك لأنه لم يستحسن شعرك . فقال — وهذا يمثل إعجابه بنفسه — : لقد مدحته بشعر لو قيل في الدهر لأمن الناس صروفه ، ولكنه كذب أملى ، لأنني كذبت في القول ، ثم قال هذه الأبيات :

خليلي إن العسر سوف يُفريقُ	وإنّ يساراً في غدٍ لَخَلِيقُ
وما كنتُ إلّا كالزّمان إذا صحّا	صحوتُ وإنّ ماق الزّمان أموقُ
أأدماؤ لا أسطيعُ في قلة الثرى	خزوزاً ووشياً والقليلُ مَحِيقُ

خُذِي مِنْ يَدِي مَا قَلَّ إِنَّ زَمَانَنَا شَمُوسٌ وَمَعْرُوفُ الرَّجَالِ رَفِيقُ
لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا يَشْتَكِي بُخْلًا عَلَى رَفِيقُ
خَلِيلِي إِنَّ الْمَالَ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا لَمْ يَنْلُ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقُ
وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَى مُحَلَّةٍ تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَى تَضِيقُ
وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ لَهُ فِي التَّقَى أَوْ فِي الْمَحَامِدِ سُوقُ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرَّجَالِ تَضِيقُ

فإذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أقبح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم
الجسم ، ضخيم الخلق ، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل ، وأنه خلاب
للنساء ، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدَى جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَانْهَدَمَ

أقول : إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا ، تبينت صورة ليست بعيدة ولا
كاذبة من هذا الرجل ، الذي لم يكن جذاباً ولا خلاباً ، لا من الوجهة المعنوية ،
ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعراً مجيداً ، أجمع العلماء والرواة
في عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر ، وزعم هو لنا ذلك ، فتحدث ذات
يوم أن له اثني عشر ألف بيت من جيد الشعر ، فلما سئل عن ذلك قال :
إن له اثني عشر ألف قصيدة ، فويل له إذا لم يكن في كل قصيدة بيت
جيد . قالوا : ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر ،
وقد يكون هذا حقاً ، ولكننا في حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار
الضخم بجزء قليل نتخذه مقياساً لإجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ ألا نظفر
من شعر بشار بشيء يذكر . ومهما يكن من شيء فأنا أشك في قيمة هذا
الإجماع ، الذي انعقد على تقديم بشار ، وإثاره بالإجادة والتفوق ، وأزعم
أن شيئاً من هذا الإجماع يعود إلى سفه بشار ، فقد كان بشار يخيف العلماء
ويهجوهم ، هجا سيبويه ، لأنه أنكر عليه كلمات ، فاضطر سيبويه إلى أن
يستشهد بشعره ، وتملقه الأخفش لشيء كهذا ، وتملقه يونس بن حبيب ،

وكان مع ذلك يكرهه كرهاً شديداً ، ويقال إنه هو الذى وشى به عند المهدي ، واتهمه بالزندقة ، وتملقه الأصمعي من غير شك ، فقد كان بشار يهجو باهلة ، والأصمعي باهلي ، وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشاراً كان إذا جدّ متين اللفظ ، رصين الأسلوب ، مؤثراً لنحو أهل البادية في ألفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ، ولا يعيبه ، وكيف لا يجب علماء اللغة رجلاً يذهب هذا المذهب . ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن الناس أطبقوا على خوف بشار ، والإشفاق منه ، فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء ، ثم تعلمت عليه طائفة من الشعراء تقدمت في عصرها ، ثم أكثر من الغزل ، ورق فيه ، فأحبه الظرفاء ، وأصحاب الخلاعة ، وتغنى فيه المغنون ، وتحدثت الرواة أن نساء البصرة كن يلجأن إليه إذا احتجن إلى شعر يُنحَنّ فيه ، فهذا كله مصدر هذا الإجماع ، الذى يقدم بشاراً على غيره من الناس .

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه ، غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكماً صادقاً ، لو أتيح لنا الشرط الأساسى لهذا الحكم ، وهو مقدار ضخيم من شعره .

على أنى أشارك الرجل الواحد الذى استطاع فى ذلك العصر ألا يُعْجَبَ بشعر بشار ، وأن يشدد النكير عليه ، وهو إسحاق الموصلى . أشاركه ، لا فى إسرافه ، فقد تعصب على بشار ، كما تعصب غيره لبشار ، وأرى بشاراً لم يكن كما ظن القدماء ، ذلك الشاعر الذى لا يشق له غبار ، وإنما كان شاعراً كغيره من الشعراء ، له الجيد ، وله الرديء ، وربما قدمت على بشار رجلاً كأبى نواس ، أو كالحسين بن الضحاك . غير أنى لو أخذت أفصل هذا الحكم ، وأستدل عليه ، لم أفرغ منه فى هذا الفصل ، فالحير أن أرجىء ذلك إلى فصل خاص ، فى الأسبوع الآتى .

شعر بشار^{١١}

قلت في الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه ، وإثارة على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفهم في هذا الرأي ، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها ، ثم قلت : إنى أرى في بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء ، الذى استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار ، والإسراف في إثارة ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار ، غالباً في السخط عليه ، والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يُحاجُّه في ذلك ، فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلى في ما اندفع إليه من غلو وإسراف ، فأنا لا أزعـم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا أزعـم أن الجيد في شعره قليل ، وإنما أزعـم أن بشاراً كان شاعراً موفور الحظ من الإجابة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس ، وهنا أنخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلى أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدراؤه لبشار ، كان لا يعتد بأبى نواس ، ولعلنا نتحدث في يوم من الأيام عن إسحاق بن إبراهيم ، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة ، التى كان يراها في بشار وأبى نواس وغيرهما من الشعراء ، ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ، فلنحرص على ألا نتجاوزه إلى غيره .

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه ، وأن الغث في شعره لا يعدله غث ولا ردىء ، وكان يقول إن الذى يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد :

إِنَّمَا عَظُمُ سُلَيْمَى قَصَبٌ قَصَبُ السُّكْرِ لَا عَظُمُ الْجَمَلِ

(١) نشرت بالسياسة في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ - ١٢ أبريل ١٩٢٤ .

فَإِذَا أَذْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلاً غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ
 وفي الحق أن في هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً، ولكن أين الشاعر
 الذي يستطيع أن يبرأ من قول فجّ، ولفظ سخيّف؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف
 أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر، لأنه قال هذين البيتين؟
 وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً، منه الذي بلغ من الجودة منزلة رفيعة! فدونك
 الشاعر وشعره، فاقراً هذا الشعر وانقده، واحكم على جيده بالجودة، وعلى رديثه
 بالرداءة، واجتهد في أن تتبين الأسباب التي أتاح للشاعر أن يجيد، والأسباب التي
 اضطرتته إلى أن يسف. ولا تقل إن من قال هذا الشعر الرديء لا يستطيع أن يقول
 جيداً من الشعر. فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع
 أن يقول رديثاً من الشعر، وإذا انتهى بكما الحوار إلى هذا الحد، فلسما منتهين
 إلى خير، ولا بالغين حجة، وإنما أنما متعصبان، قد أسرف كل منكما في تعصبه،
 حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثاً، وأصبح من الحق أن تتركما وما أنتما فيه ...

نعم! إسراف أن تحكم على الشاعر بيت أو بيتين، وإسراف أن تحكم
 له بيت أو بيتين، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثّر أو عليه، بقصيدة
 أو قصيدتين أو قصائد، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد، فهي
 عتيقة معوجة، لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة، ولا سيما في هذا العصر،
 وإنما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته، وتحكم عليه أولاً بما تتبين
 منهما، ولست أدري أين قرأت أن رجلاً من نوابغ الموسيقى الغربية أراد
 أن يحكم على شاب موسيقى، فاستمع إليه وهو يوقع، فلما سمعه يوقع ألحاناً
 مختلفة، قال: الآن عرفت صوت نفسك، كذلك يجب أن نتبين أصوات
 نفوس الشعراء، لنحكم لهم أو عليهم، وأحسب أن صوت نفس بشار
 ليس بالرخيم ولا بالرقيق، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلو
 على ضخامته من حلاوة ولين، إنما هو صوت لاحظ له من الحلاوة،
 ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك، ومهما
 تكن لبشار الأشعار الجياد البارة، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه. والغريب
 أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحبه إلينا ولا يعطفنا عليه. فهو ثقيل،

حتى حين يضحك ، وهو ثقیل حتى حين يريد أن يضحك ويرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة فتضحك ، ولكنك لا تضحك ضحكاً صريحاً ، خالياً من كل شائبة ، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم ، محس شيئاً من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد ، أبغض الناس بغضاً شديداً فأصبح إليهم بغيضاً ، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ولم يبق بينه وبينهم إلا صلة الخوف والتهيب ، يستغلها هو ، ويتيحون له هم أن يسرف في استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشاراً عند ما ضربه المهدي الضرب الذي أماته ، لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تطف له ، وأرسل إليه الهدايا . ثم تقرأ أنه مات وأخرجت جنازته ، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد ، إلا جارية له سوداء ، سندية عجماء ، تصبح : واسيداه ! واسيداه ! فأين هؤلاء الأشراف الذين تطفوا له ، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حباً ولا عطفاً ، وإنما تطفوا له تملاً وإشفاقاً ، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً ، كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطناً . غير أنني أخشى أن أتهم بالإسراف في بغض بشار ، وتشويه شخصيته ، والله يعلم أنني ما أحب بشاراً ولا أكرهه ، ولا يعني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتهم بالإسراف ، فلأجتهد في أن أحملك على أن تشاركني في هذا الرأي الذي أراه ، وعلى أن تحس معي أن بشاراً كان بغيضاً ، حتى حين كان يتندر ، ويريد أن يضحك . قالوا : كان بشار بين يدي المهدي ينشده شعراً . فدخل يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد ، وسأله : ما صناعته ؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ . ولست أشك في أن جواب بشار بديع مضحك ، مفهم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدي أن يمتنع عن الضحك : ولكني لا أشك في أن هذا الجواب قاس ، يدل على حدة المزاج ، ومرارة الطبع ، وغضب المهدي ، فشم بشاراً ، أو قل لام بشاراً على أن تنذر على خاله . فلم يكن جواب بشار على لوم المهدي أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد ،

إذ أجاب : وماذا أصنع به ؟ يرى رجلاً أعمى بين يدي الخليفة ينشده شعراً ،
 فيسأله ما صناعته : . قالوا : ومر بشار بقاضي البصرة ، فسمعه يقول
 في قصصه : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرآ في الجنة ، صحنه
 ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته
 ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشار إلى قائده وقال : بثت والله
 الدار هذه في كانون الثاني ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة أنه خلا
 إلى امرأة في علو بيت ، وبشار تحته ، أو في أسفل البيت ، وبشار فوقه ،
 فنهق حمار في الطريق ، فأجابه حمار في الجيران ، وحمار في الدار ، فارتجت
 الناحية بنهيقها ، وضرب الحمار الذي في الدار الأرض برجله ، وجعل يدقها
 بها دقاً شديداً ، فسمعت بشاراً يقول للمرأة : نُفِّخْ - يعلم الله في الصور ، وقامت
 القيامة ، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور ، حتى يخرجوا منها !
 ولم يلبث أن فزعت شاة كانت في السطح ، فقطعت جبلها ، وعدت فألقت
 طبقاً وغضارة إلى الدار ، فانكسرا ، وتطاير حمام ودجاج كان في الدار لصوت
 الغضارة ، وبكى صبي في الدار ، فقال بشار : صح والله الخبر ، ونشر أهل
 القبور من قبورهم ، أزفت - يشهد الله الآزفة ، وزلزلت الأرض زلزالها ، فقال
 البصري : فعجبت من كلامه ، وغازني ذلك ، فسألت : من المتكلم ؟ فقبل
 لي بشار ، فقلت قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . . . ومر بشار
 برجل رمحه بغلة وهو يقول : الحمد لله شكراً . فقال بشار : استرده يزدك . . .
 ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذي مات له ، كان كلما
 أوجعه السوط قال : حسَّس ، وهي كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين : انظروا
 إليه لا يقول باسم الله ، فقال بشار : ويلك ! أتريد هو فأسمى عليه !
 ثم زعموا أن قوماً مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشي بها ، فقال بشار :
 ما لهم مسرعين ! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا ، فيؤخذ منهم ! . . .
 قالوا : وتوفى له ابن ، فجزع عليه ، فقيل له : أجز قدمته ، وفرط افترطته ،
 وذخر أحرزته . فقال : ولد دفتته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرته ،
 والله لئن لم أجزع للنقص ، لا أفرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رزين - وأنا

أعتذر من رواية هذا الحديث ، ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل — قال : أتينا بشاراً ، فأذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه ، فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست ، فكشف عن سواته ، فبال ، ثم حضرت الظهر والعصر ، فلم يصل ، فدنونا منه ، فقلنا : أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال : وما هي ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك ، فلم تدعنا إليه ، فقال : إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال : ثم ماذا ؟ قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبليت ونحن نراك . فقال : أنا مكفوف ، وأنتم بصراء ، وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، ثم قال : ومه ؟ قلنا : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فقال : إن الذي يقبلها تفارق يقبلها جملة .. أعتقد أن هذه الأحاديث التي تمثل ابتسام بشار وتندره ، وما كان الله قد وهب له من ظرف ونخفة روح ، لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ، ولا ذى الروح الخفيف ، وإنما تعطى منه صورة قاسية ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ، ولعله قد كره كل شيء وازدراه ، فهو لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه ، ولا يترك فرصة تتيج له السخر من الحياة والأحياء إلا انتهزها ، ولم يكن في سخريته هيناً ولا رفيقاً ، وإنما كان غليظاً فظاً قاسياً . ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك في الفصل الماضي ، من أخبار بشار تمثله منافقاً في سيرته ، يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ، ثم يندهم ويخيفهم لينعم ببعيشه ، ثم يسخر منهم متى أتبع له ذلك .

وإذن فهو أقل الناس حظاً من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه شعوره وعواطفه ، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه ، وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر ، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل ، ليس شعره شفافاً كشعر أبي نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع ، وحماة عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق ، لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب دائماً ، لا يحفل بالكذب ، ويغضب حين يلفته الناس إليه . إنه كان ضخماً فاحش الضخامة ، قوياً شديد القوة ، ثم لم يستح أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدَيَّ جِسْماً نَاحِلاً لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَانْهَدَمُ

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ، ولا حين يتغزل ،

ولا حين يرثى ، ولعله إن صدق إنما يصدق في موضوعين اثنين من شعره :
يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ، ويضع يده على
مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم ، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو ،
لأنه يصف نفسه ، ويمثل سخطه على الناس ، وما يضطره إليه هذا السخط
الشديد من ألوان الإسراف والظلم ، وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر
نفسه وسوء مكانه من الناس ، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم
إياه ، وبخلهم عليه بما كان ينتظر . هوفي هذا الموضوع من شعره صادق ،
وقد يبلغ التأثير أحياناً ، وما أحسب أنك تخالفني في استحسان هذه الأبيات ،
وصدق الشاعر فيها ، وهى التى قالها حين مدح المهدي ، وألح في مدحه ،
فحرمه المهدي ، وألح في حرمانه :

خَلِيلِيْ إِنْ الْعُسْرَ سَوْفَ يُفِيقُ	وَإِنْ يَسَارًا فِي غَدٍ لَخَلِيقُ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا	صَحَوْتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أَمُوقُ
أَأَدْمَاءُ لَا أَسْطِيعُ فِي قِلَّةِ الثَّرَى	خُزُوزًا وَوَشْيًا وَالْقَلِيلُ مَحِيقُ
خُذِي مِنْ يَدِي مَا قَلَّ إِنْ زَمَانُنَا	شَمُوسٌ وَمَعْرُوفُ الرِّجَالِ رَقِيقُ
لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ	وَلَا يَشْتَكِي بِخُلَاٍّ عَلَيَّ رَفِيقُ
خَلِيلِيْ إِنْ الْمَالُ لَيْسَ بِنَافِعٍ	إِذَا لَمْ يَنْلِ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقُ
وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَحَلَّةٌ	تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَيَّ تَضِيقُ
وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ	لَهُ فِي التَّقَى أَوْ فِي الْمَحَامِدِ سُوقُ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مَتَعَفِّ	وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

ألست تحس معي أن الشاعر صادق متأثر ، وأن تأثره هذا مؤثر أيضاً !
ولا تقل إنه يتكلف الكرم في هذه الأبيات ، فلم يكن بشار بن خيلا ، ولا
حبيباً للبخلاء ، وإنما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ، ويعطف عليهم
بكرمه وجوده ، بل لأنه يزدرى المال ، كما يزدرى الناس ، وله أخبار في
الكرم لا بأس بها ، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين ، فكان يبيحهم
ماله ، وكانوا يسرفون في الانتفاع بذلك ، حتى لقد كانوا يعدون على ثيابه

فيلبسونها ، وكانوا يتعاطون مهناً لا ينظف صاحبها ، فكانوا يتركون في هذه الثياب روائح لا تطيب ، وكان بشار يكره ذلك ، ويتبرم به ، ولكنه لم يزجر إخوته ، وإنما احتمل منهم ذلك . وزعموا أنه لبس في يوم من الأيام ثوباً من هذه الثياب ، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب ، فأنكر بعض الناس ذلك على بشار ، فقال : إنما ذلك صلة الرحم ! وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشَّمَقْمَق من صلة ؛ فقد كان بشار عوداً أن يمنحه مقداراً من المال في كل عام ، وطمع أبو الشَّمَقْمَق في ذلك ، حتى عده ديناً ، ولعل كرم بشار على أبي الشَّمَقْمَق لم يكن بريئاً ولا خالصاً لوجه الله ، فقد كان بشار جباناً كما قلنا ، وكان أبو الشَّمَقْمَق سيئ الهجاء ، فكان بشار يخافه ، ويتقيه بالمال ، وله في ذلك نوادر كثيرة . وتحدث بعض الناس أنه دخل على بشار ، فوجد بين يديه دنانير ، فقال له بشار : خذ منها ما شئت ، وقص عليه قصتها ، وهي أن أبياتاً من شعره أعانت شاباً على حب ، فحمل إليه مئة دينار . لم يكن بشار بخيلاً إذن ، وهو لا يتكلف الكرم في هذه الأبيات التي قدمناها ، وهو صادق حين يشكو ، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة ؛ فقد كان واسع العيش مترفاً ، منعماً في البصرة ، وإنما كان هذا كله يأتيه من الشعر ، ومدحه به أشراف الناس ، وهجائه به أشراف الناس أيضاً ، فليس غريباً أن يسوءه حرمان المهدي إياه ، وليس غريباً أن يحزنه هذا الحرمان ، فقد كان بشار لنفسه مكبراً ، ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدي : إنه لم يستحسن ما قلت فيه ، فأجاب : لا ! والله لقد قلت فيه كلاماً لو قيل في الدهر لأمن الناس صرفه ، ولكنه كذب أُملي ، لأنني كذبت القول فيه ؛ فانظر إليه كيف أبي أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدي : وكيف أكبر نفسه على هذا ، فازدري المهدي ، ولام نفسه ، لأنه مدحه بما ليس فيه !

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا ، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ، ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد ، الذي يستحق أن يروى ويبقى ، فأما غير

ذلك ، فقد كان يصدر عن بشار في غير تكلف ولا عناء ، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة ، التي امتلأت بالماء ، كأنها إسفنجة ، يكفي أن تمسها لينبجس منها الماء ، ولكن هذا الماء لم يكن عذبا في كل وقت ، فقد كان لا يخلو من مرارة وفجاجة ، وربما لم يخل من نتن أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة ، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجيد لا يقل عن اثني عشر ألف بيت ، وأنه غير مسرف في ذلك ، لأن له اثني عشر ألف قصيدة ، فيجب أن يكون في كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس ، أو في بلد غير تونس ، وأن من الأدباء من يعمل لنشره^(١) ، فإذا كان هذا الخبر صحيحاً فسنستطيع أن ندرس بشاراً ونحكم عليه من كتب ، وأنا لهذا أحفظ بحكمي عليه ، وأستبيح لنفسى تغيير رأيي فيه ، إذا ظهر هذا الديوان ، وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرني ديوان بشار إلى أن أغير رأيي في بشار وشعره . فليس بين يدي من شعره مقدار عظيم ، ولكن هذا المقدار القليل الذي أدرسه وأنقده ، يكفيني لأتمثله ، وأحكم عليه ، وسنرى يوم يظهر الديوان : أخطئ أنا أم مصيب .

بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير ، ولكنه ليس بالقليل أيضاً ، وهو سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تهالكاً على اللذة ، وإفحاشاً في هذا التهالك ، وافتناناً فيه أيضاً ، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ، ويكفي أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصري ومالك بن دينار جميعاً ، قد هتفوا به ، وشكروه بعد أن وعظوه ونصحوا له ؛ ويمثل رغبة في الفساد وإذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفي بأن يكون من أصحاب اللذة المتهاكين عليها ، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب ، وأدناها وأشدّها شيوعاً في النساء وفتيات الهوى ، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات ، وأن يتأثرن به ، والغريب أنك لا تجد بشاراً يسف في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر ،

(١) يطبع الآن في القاهرة وقد طبع منه الجزء الأول .

إلا الغزل والمجاء ، وهذا واضح ، فهو إذا تغزل أراد أن يفهمه النساء ، وأن يكون شعره ذائعاً ، يتناقله الشبان وأهل الخلاعة ، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذى من يهجو ، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مقذعاً ، وكان مع ذلك سهلاً يمكن فهمه وروايته . ولست أشك في أن المهدي لم يكن جائراً ولا مسرفاً حين نهى بشاراً عن الغزل ، وحين أنذره بالموت إن عاد إليه ، ويكنى أن أروى لك هذه القصيدة التي غضب لها المهدي ، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه :

قد لامني في خليلتي عمرُ	واللوم في غير كُنْهه ضَجَرُ
قالَ : أفق ، قلت لا، فقال: بلى	قد شاع في الناس منكما الخبرُ
قلت : وإذ شاع ما اعتذارك مِنهُ	أ ليس لي فيه عندهم عُدْرُ
ماذا عليهم ! وما لهم خرسوا	لو أنهم في عيوبهم نظروا
أعشَقُ وحدي ويؤخذون به	كالترك تغزو فتؤخذُ الخَزْرُ
يا عَجَباً للخلاف يا عَجَباً	بِفي الذي لام في الهوى الحَجَرُ
حَسبي وحسبُ الذي كَلِفتُ به	منى ومنهُ الحديثُ والنَّظَرُ
أو قبلةً في خلال ذاك وما	بأس إذا
أو عَصَّة في ذراعها ولها	فوق ذراعى من عضها أثرُ
أو لَمَسَةٌ دُونِ مِرْطِها بيدي	والبابُ قد حال دُونه السُّتْرُ
والسَّاقُ بَرَّاقَةٌ مُخَلَّخلُها	أو مص ريق وقد علا البُهرُ
واسترختِ الكف للعراك وفا	لت : إيه عني والدَّمْعُ مُنْحدِرُ
انهَضُ : فما أنت كالذي زعموا	أنتَ وربِّي مُغازِلُ أَشْرُ
قد غابت اليوم عنك حاضيتي	واللهُ لي منك فيك يَنْتَصِرُ
يا رَبُّ خذ لي فقد ترى ضرعي	من فاسق جاء ما به سُكْرُ
أهوى إلي مِعْضِدِي فَرَضَضَهُ	ذو قُوَّةٍ ما يطاق مُقْتَدِرُ

أَلَصَقَ بِي لِحْيَةً لَهُ خَشْنَتْ ذَاتَ سَوَادٍ كَأَنَّهَا الْإِبْرُ
أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا نَجَوْتَ بِهَا فَاذْهَبْ فَأَنْتَ الْمُسَاوِرُ الظَّفِيرُ
كَيْفَ بَأْسِي إِذَا رَأَتْ شَفَتِي أَمْ كَيْفَ إِنْ شَاعَ مِنْكَ ذَا الْخَبَرُ
قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتُلَيْتُ بِهِ مِنْكَ ، فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ
قُلْتُ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ : يَا سَكْنَى لَا بَأْسَ ، إِنِّي مَجْرِبٌ خَبِيرُ
قُولِي لَهَا : بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَا لَهُ ظُفْرُ

روى شيء من هذه القصيدة لطيع ، ولكن هذا من خطأ الرواة ، وأنت تقرأ هذه القصيدة ، فإذا أولها جيد متين مستقيم ، لا نكير فيه ، ولكن الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصيدة الخليعة ، حتى يفحش ، لا في اللفظ ، فليس في اللفظ فحش كثير ، بل في المعنى ، فالمعنى كله فحش . ولست أريد أن ألفتك إلا إلى بيتين اثنين من هذه القصيدة ، أحدهما يبين مهارة بشار في محاكاة النساء ، أو نوع من النساء حين يتفجعن في تهالك ولذة ، وهي قوله :
قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتُلَيْتُ بِهِ مِنْكَ فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ
وانظر إلى قوله (يا عبر) . والآخر يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التي تعبت بالناس ، وتسخر منهم في عنف وقسوة ، وأنا أعتقد أن نفس بشار وخلقه وقلبه ، كل هذا مختصر في هذا البيت .

قُولِي لَهَا بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَا لَهُ ظُفْرُ
ولست أروى لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار ، فهي تكنى ، وأظن أنها تقوم عذراً للمهدى في نهيها بشاراً عن ذكر النساء ، وللوعاظ وللعلماء في سعيهم ببشار إلى السلطان ، ولا سيما أن أمر بشار لم يكن قد وقف عند قول هذا الكلام الفاحش وإذاعته ، وإنما كان النساء يترددن إليه ويشاركنه في اللهو ، وكان هو يطلب إليهن المواعيد ، فنهن من كانت تسايه صادقة وفيه ، ومنهن من كانت تعبت به عبثاً منكراً ، وأخبار ذلك في الأغاني كثيرة ، وهي لا تشرف بشاراً ، ولا تدل على أنه كان يكرم نفسه ، ويتأدب بالآداب

التي كانت تفرضها عليه آفته ، وأقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً مفطوراً على الفجور .

هل أحب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن أتمس الجواب عليه في شعر بشار ، فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ، فقد قلت لك إن شعره كثيف صفيق ، لا يدل على عاطفة ، وإن الكذب فيه كثير ، والتكلف فيه لا حد له ، أريد تكلف المعاني ، وأنا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبدة ، وقال فيها شعراً كثيراً جداً ، تغنى فيه المغنون ، وأعلم أن عبدة ، مالت إليه ، وكان بينها وبينه مودة ، ولكني أقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبدة فلا أجد فيه شيئاً يمثل الحب الصادق القوي حقاً ، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب ، بها وتأثر لها وأحسب الشاعر صادقاً ، ولكني لا ألبث أن أضحك ، لأنني أعلم أن الشاعر كاذب ، وأن صاحبه تعلم منه هذا الكذب ، وما أشك في أنها كانت تضحك منه أيضاً ، وتقبله لجودته الفنية ليس غير ، وهذه الأبيات مشهورة بحفظها الناس جميعاً لبشار وهي :

لَمْ يَطْلُ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِ
رَفَّيْ يَا عَبْدَ عَنِّي وَاعْلَمِي أَنَّنِي يَا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمِ
إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْماً نَاحِلاً لَوْ تَوَكَّاتِ عَلَيْهِ لَانْهَدَمِ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجْتُ بِالصَّصْتِ عَنْ لَا وَنَعَمِ

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار ، لخدعنا الرجل عن نفسه ، فصدّقناه ، وخيل إلينا أنه كان لحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا أنه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذّه ، ثم يزعم السهر والأرق ، كما كان يزعم النحافة والنحول !

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها، وهي لا تخلو من جودة ، وأنا أرويهما ، لأن قصتها لا تخلو من عجب :

أَبُهَا السَّاقِيَانِ صُبًّا شَرَابِي وَاسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِ بَيْضَاءِ رُودِ
إِنَّ دَائِي الظَّمَا وَإِنَّ دَوَائِي شَرِبَةٌ مِنْ رُضَابِ ثَغْرِ بَرُودِ

وَلَهَا مَضْحَكٌ كَفَرُ الْأَفَاحِي وَحَدِيثٌ كَالْوَشْيِ وَشْيِ الْبُرُودِ
 نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَلَا ب ، وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمُسْتَزِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ : نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيْالٍ وَاللَّيَالِي يُبْلِغُنَّ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي ، وَعِنْدِي زَفَرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ
 قَالُوا : فَطَرِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ : مَنْ لِي بِمَزَاجِ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقٍ سَلْمِي ،
 فَيُرَوِّى ظَمْئِي ، وَتَطْفَأُ غُلَّتِي . ثُمَّ بَكَى حَتَّى مَزَجَ كَأْسَهُ بَدَمِهِ ، وَقَالَ : إِنْ
 فَاتَنَا ذَلِكَ فَهَذَا ..

فِي هَذَا الشَّعْرِ مِثَالَةٌ وَجُودَةٌ وَرَقَةٌ ، وَلَكِنِّي لَا أَحِبُّ أَوَّلَهُ ، وَرَبَّمَا اسْتَسْخَفْتَهُ ،
 وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَطِيعُ السَّاقِيَانِ أَنْ يَسْقِيَا بِشَارًا مِنْ رِيْقٍ صَاحِبَتِهِ ! . . .
 وَأَحْسِبُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ صِنَاعَةُ السَّقَاةِ . وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ
 صَحِيحَةً ، فَهِيَ لَا تَمَثِّلُ رَقَةً هَذَا الشَّاعِرِ ، الَّذِي أَحَبَّهُ وَأَعْطَفَ عَلَيْهِ ،
 وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ ، الَّذِي فَاتَهُ رِيْقُ سَلْمِي ، فَزَجَّ كَأْسَهُ بِالْدمِ ، يَسْفَحُهُ
 الْبُكَاءُ عَلَيْهَا ..

وَلَنَتْرِكْ غَزَلَ بِيْشَارٍ ، وَنَسْتَقِلْ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ مِنْ فَنُونِ شَعْرِهِ ، وَلَكِنِّي قَدْ
 إِجْازَ فَقَدْ أَظَلَّنَا ..

لَبِشَارٍ قَصِيدَتَانِ اشْتَهَرَتَا بَيْنَ الرُّوَاةِ اشْتِهَارًا عَظِيمًا ، لِأَحَدَاهُمَا مِيمِيَّةٌ ، قَلَمُهَا
 أَبُو عِيْلَةَ عَلَى مِيمِيَّاتِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ، وَتَمَثَّلَتْ بِهَا الْأَصْمَعِيُّ ، وَتَنَاقَلَهَا أَهْلُ
 بَغْدَادَ ، وَأَعْجَبُوا بِهَا إِعْجَابًا عَظِيمًا ، وَلِهَذَا الْقَصِيدَةُ قِصَّةٌ ، تَمَثَّلَتْ لَنَا تَقَسُّمُ بِيْشَارٍ
 أَيْضًا ، قَالَهَا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ يَمْلَحُهَا بِهَا ، وَيَحْرُضُ فِيهَا عَلَى
 الْمَنْصُورِ ، وَيَهْجُو فِيهَا الْمَنْصُورَ . فَلَمَّا قَمَعَتْ ثَوْرَةَ إِبْرَاهِيمَ وَقَتْلَ ، خَافَ بِيْشَارٌ ،
 فَحَوَّلَ الْقَصِيدَةَ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَمْلَحْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ ، وَلَمْ يَهْجُ بِهَا الْمَنْصُورَ ، وَكَأَنَّهُ هَجَا
 بِهَا أَبَا مُسْلِمٍ الْخُرْسَانِيَّ ، فَوَضَعَ أَبَا مُسْلِمٍ مَوْضِعَ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَحَذَفَ مِنْ آيَاتِ
 الْقَصِيدَةِ مَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلَ إِلَى تَحْوِيلِهِ ، وَهِيَ :

أَبَا جَعْفَرٍ مَا طَوَّلُ عَيْشٍ بِدَائِمٍ وَلَا سَالِمٌ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَالِمٍ
 عَلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَفْتَحُ الرَّدَى وَيَضْرَعُهُ فِي الْمَازِقِ الْمُتَلَاخِمِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِقَتْلِ مُتَوَجِّحٍ
تَقَسَّمَ كِشْرَى رَهْطُهُ بِسُيُوفِهِمْ
وَقَدْ كَانَ لَا يَخْشَى انْقِلَابَ مَكِيدَةٍ
مُقِيمًا عَلَى اللَّذَاتِ حَتَّى بَدَتْ لَهُ
وَقَدْ تَرِدُ الْأَيَّامُ غُرًّا وَرَبَّمَا
وَمِرْوَانُ قَدْ دَارَتْ عَلَى رَأْسِهِ الرَّحَى
فَأَضْبَحْتَ تَجْرَى سَادِرًا فِي طَرِيقِهِمْ
تَجَرَّدْتَ لِلْإِسْلَامِ تَعْفُو سَبِيلَهُ
فَمَا زِلْتَ حَتَّى اسْتَنْصَرَ الدِّينُ أَهْلَهُ
فَرُمَ وَزَرًا يُنْجِيكَ يَا بَنَ سَلَامَةٍ
لَحَى اللَّهُ قَوْمًا رَأْسُكَ عَلَيْهِمْ
أَقُومُ لِبَسَامٍ عَلَيْهِ جَلَالَةٌ
مِنَ الْفَاطِمِيِّينَ الدُّعَاةَ إِلَى الْإِهْدَى
سِرَاجُ لَعِينِ الْمُسْتَضَى وَتَارَةٌ
إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنَ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أَخْتَهَا
وَحَلَّ الْهُوَيْنَى لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ
وَحَارِبُ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً

عَظِيمٍ ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِفَتْكَ الْأَعَاجِمِ
وَأَمْسَى أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْلَامَ نَائِمٍ
عَلَيْهِ ، وَلَا جَرَى النُّحُوسِ الْأَشَائِمِ
وَجُوهُ الْمَنَايَا حَاسِرَاتِ الْعَمَائِمِ
وَرَدْنَ كُدُوحًا بِأَدْيَاتِ الشُّكَاثِمِ
وَكَانَ لِمَا أَجْرَمْتَ نَزَرَ الْجَرَائِمِ
وَلَا تَتَّقِي أَشْبَاهَ تِلْكَ النِّقَائِمِ
وَتُعْرِى مَطَاهِ اللَّيُوثِ الضَّرَاجِمِ
عَلَيْكَ فَعَاذُوا بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ
فَلَسْتَ بِنَاجٍ مِنْ مَضِيمٍ وَضَائِمِ
وَمَا زِلْتَ مَرُوسًا خَبِيثَ الْمَطَاعِمِ
غَدَا أَرْيَحِيًّا عَاشِقًا لِلْمَكَارِمِ
جِهَارًا وَمِنْ يَهْدِيكَ مِثْلُ ابْنِ فَاطِمِ
يَكُونُ ظَلَامًا لِلْعَدُوِّ الْمُزَاجِمِ
بِرَأْيٍ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمِ
فَرِيشُ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُوَيْدُ بِقَسَائِمِ
نَوُومًا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
شَبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ما قال بشار ، وهو صادق العاطفة
فيها ، والناس صادقون حين استحسوها ؛ هو صادق لأنه كان يكره بني
العباس كرهاً شديداً ، ويؤثر بني علي إثاراً شديداً ، ولم يكن يكره

بنى أمية ، ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجيباً أن يفرح لثورة العلويين ،
 ويغريهم بالعباسيين في هذه الأبيات المضطربة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء
 الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً ، كعامة أهل العراق ، يظهرون
 لبني العباس غير ما يضمرون ، ثم كان الناس جميعاً ينقمون من بني العباس
 ظلماً واستبداد بالأمر ، وازدراء للزعماء من العرب ، ومن الموالى أيضاً ؛ فليس
 عجباً أن يحبوا شعر بشار وأبياته في الشورى ، فهذا الحب وهذا الإعجاب
 يمثلان قبل كل شيء ما تضرع الشعوب للملوك المبعّضين إليها . على أن صدق
 بشار ليس وحده الذى يحلى هذه القصيدة ، فلفظها متين كما ترى ، ومعانيها
 جياذ ، وإن كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة
 من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة .

أما القصيدة الأخرى فهي البائية التى مدح بها ابن هبيرة ، وقال فيها :
 إِذَا الْمَلِكُ الْجُبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
 وفيها هذا البيت المشهور ، الذى أعجب به الناس إعجاباً شديداً واستكثروه
 على شاعر ضرير ، وهو :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَمْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وليس البيت كثيراً على بشار ، فبشار نفسه يثبتنا بأنه قلد فيه قول
 امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

فأما تشبيه السيوف بالكواكب ، وتشبيهة مثار النقع بالليل ، فشئ مألوف
 تحدث عنه الشعراء كثيراً ، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية ، التى
 لم يبتدعها كلها ، وإنما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى .

وجملة القول فى بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جداً ، ولكن الجيد
 فى هذه المادة لم يكن صادقاً فى شعره ولا مخلصاً ، وإنما كان يتكلف المعانى
 فى أكثر الأوقات ، وكان يتكلف الألفاظ والأوصاف أيضاً ، ولم يكن

عجباً ولا جذاباً ، ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، وإنما كان قوياً جباراً ، مبغضاً إلى الناس ، مبغضاً لهم . وإذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقاً ، فهو فن الهجاء ، وقد عللنا هذا . وفى الحق أنه قتل الهجاء ، وأن الهجاء قتله أيضاً ، فقد كان فاسقاً ، بل كان زنديقاً ، ولم ينفعه تسره ولا تكتمه ، ولكن الزندقة لم تقتله ، وإنما اتخذت وسيلة إلى قتله . والذى قتله إنما هو هجاءه للمهدى بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاءه ليعقوب بن داود وزير المهدى ، ولأخيه صالح بن داود ، قال الرواة إن بشاراً وجد على المهدى وجداً شديداً حين حرمه ، وأعطى غيره من الشعراء ، فذهب ذات يوم إلى حلقة يونس بن حبيب النحوى ، فسأل هل هنا من يُحتشم ؟ فقيل : لا ، فانشد بيتين شنيعين فى المهدى ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوهما إلى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدى فى تحفظ وتملق وإغراء ، قالوا : فغضب المهدى غضباً شديداً ، وقال له يعقوب إنه زنديق ، قد قامت عندى البينة عليه ، فأمر المهدى أن يُضربَ ضربَ التلف ، فضرب سبعين سوطاً مات لها . قالوا : وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدى أنه لم يكن زنديقاً ولا كافراً ، فندم المهدى لقتله . وسواء أصبح هذا الخبر أم لم يصبح ، فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار ، يعلن فى المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

والبة بن الحباب^(١)

أبان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في أنه كان أبعد الشعراء أثراً في عصره ، ولا شك في أنه كان من أنبههم ذكراً ، ولا أشك في أنه كان من أشدهم إمعاناً في المحجون ، وإسرافاً في الفسق والفجور ، وهو والبة ابن الحباب . ولكنني مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيء ذي غناء ، لأن الله لم يقدر لشعره البقاء ، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة ، فذهبت حياته كما ذهب أدبه ، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل ، إلا أن تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار ، فيه طرف من أخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون إلى أن نُعَرِّض عن درسه الآن ، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين ، الذين ندرسهم في هذه الفصول . نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر ، لأننا واثقون بأنه قد كان منهم ، ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في القول والعمل أيضاً ؛ فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لأبي نواس ، تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمحجون ، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان ، ويظهر أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة ، لم يتخرج من روايتها أبو الفرج ، ولم يتخرج من روايتها أبو نواس نفسه ، ولعل والبة هو الذي مهد لأبي نواس هذه السبيل المنكرة ، التي سلكها طول حياته ، فجعلته مبغضاً ، وجعلته محبباً إلى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته ، وجعلته محبباً لحسن شعره ، وشدة ظرفه ، وتقدمه في الأدب إلى حد لم يبلغه كثير من معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عريباً صميماً ، من بني أسد وكنا نود لهذا السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره ، لنعرف كيف كان بلاء العرب

(١) نشرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ - ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤ .

الصريحين في الزندقة والمجون ، وهذا اللون من ألوان اللعب . فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالي ، أو من يشك في عريبتهم ، أما والبة فلم يكن مولى ، ولم يكن نسبه موضع شك ، ومع ذلك فتجن متعظرون إلى أن نكتفي بهذه الأخبار القصيرة المبتورة التي نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة . وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من أبي نواس ، ولا من مطيع ، ولا من حماد ، وربما كان أشد منهم صراحة في القول ، وإسرافاً في الفحش ، فالناس يتحدثون أن المهدي أو الرشيد كره لقاء منادمته ، لبيتين قالهما ، فجعل منادمته شراً على كل نديم . أما شعره فلا نستطيع أن نتحكم عليه ، لأننا لا نحفظ منه إلا أبياتاً ، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعاً في وصف الخمر وما يتصل من اللعب والغزل والمجون . وإذا ذكرنا الغزل ، فإنما نذكر الغزل بالغلما ، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر ، وأنه حاول أن يهاجي أبا العتاهية ، فلم يستطع أن يتال منه شيئاً ، بل لم يستطع أن يثبت في بغداد ، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هارباً أو كالفار .

فلندع والبة إذن ، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر ، وإلى من تنصرف ؟ تنصرف إلى أبيان بن عبد الحميد اللاحقي ، فهو خليق أن تقف عنده حياءً ، لا لأنه يمكن أن يقرن إلى بشار ، أو إلى مطيع ، أو إلى أبي نواس ، فهو أقصر باعاً ، وأضيق ذراعاً من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته ، واختلاف قوته ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه ، وصدق لهجته ، لا يستطيع أبيان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الحلال ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى ، ويفوقهم في بعضها ، وله نواح تستحق العناية ، وتدعو إلى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ، ولا محبباً إلى الناس ، وإنما كان فيه شيء من الثقل ينفر منه ، ويصرف عنه ، وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه ، قلنا إنه يثبت هؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها ، يثبت لهم في الزندقة ، فلم يكن أقل منهم عبثاً

ولا مجوناً ، أو قل : لعله كان أقل منهم عبثاً ومجوناً في اللفظ ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمايرهم ، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً ، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة ، لاعن شك أو رغبة في اللذة ، والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة ، تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين ، أحدهما يكره العرب ودينهم ، ويزدرى دينهم ، ويضمر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يُظهر ، الإسلام ويتكلفه ، ويتمدح به ، ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه . من هذه الناحية هو قريب من بشار ، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه ، فكان إلى العبث اللفظي ، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والجحود ، يقومان على عقيدة ثابتة ، وعلى رأى سياسى بعينه .

كان أبان يكره العرب ويزدرىهم ، ولكنه كان في الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم ، ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم ، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسياً قبل كل شيء ، يريد أن يثار للفرس . ويعيد سلطانهم إلى الأرض ، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر ، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور في العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب ، ويقوم مكانه سلطان فارسى ، فلم يكن يطمع في ذلك ، ولا يسمو إليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ في الانتقام للفرس ، ورد السلطان الفعلى إليهم ، إذا أخطأهم السلطان الشرعى والفظى ، وهى التقرب إلى الخلفاء ، وأخذهم من مواضع الضعف ، والسيطرة عليهم ، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور ، ويعتمدوا عليهم في ذلك ، فتركوا السلطان الفعلى للفرس ، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة ، واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول في ذلك العصر ، بعد أن أخفقت تجربة أبى مسلم ، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت ، ولا لحزبه إلا الشر كله ، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة ، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فأحسنوا العمل والتدبير ، وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة ، والأمل

البعيد ، يسعى إليه في رفق وثبات ، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة ، فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم ، وأصابتهم تلك النكبة ، التي كانت أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة ، متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدها وهزلها ، صعبها وهيئها ، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك ، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء ، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات ، فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضباً أبو نواس ، الذي كان يكره البرامكة كرهاً شديداً ، كما قلت لك ، حينما كنت أدرس أبا نواس ، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ، تستحق أن نقف عندها حيناً ، لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه ، ولا سيما أن أباناً قد عجز عن أن يرد على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس ، فقد هجاه أبو نواس ، فاتهمه بالكفر والزندقة ، اتهاماً صريحاً منكراً ، لا يخلو من فحش ، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية ، فردّ ردّ الضعفاء ، فشمّ أبو نواس ، وناله في أمه وأبيه . . . ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ، ولا يعنى من إثم ، وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس يهجو بها أبان بن عبد الحميد ، وهي تمثل رأى أبان حقاً .

شهدتُ : يوماً أباناً لا درُّ درُّ أبانِ
ونحنُ حُضْرُ رِواقِ الـ أميرٍ بالنَّهْرَوَانِ
حتى إذا ما صلاةُ الـ أولى دَنَتْ لِأَوَانِ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَكُلَّمَا قَالَ قُلْنَا إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ
فَقَالَ : كَيْفَ شَهِدْتُمْ بِذَا بَغْيِ عِيَانِ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى تُعَايِنَ الْعَيْنَانِ

فَقُلْتُ : مُسِيحَانِ رَبِّي !	فَقَالَ : مُسِيحَانِ مَانِي !
فَقُلْتُ : عَيْسَى وَرَسُولُ	فَقَالَ : مِنْ شَيْطَانِ
فَقُلْتُ : مُوسَى نَجِيٍّ أَلَا	مُهَيِّمِنِ الْمَنَانِ
فَقَالَ : رَبُّكَ قُوَّ مَعْدُ	لَمَّةِ إِذْنِ وَلِسَانِ
أَنْفُسُهُ خَلَفْتُهُ	أَمْ مِنْ؟ فَقُمْتُ مَكَانِي
وَقُلْتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ	وَذُو عَفْرَانِ
وَقُمْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي	عَنْ هَا زِلِ بِأَقْرَانِ
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى	بِالْكُفْرِ بِالرَّحْمَنِ
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى	بِالْعُصْيَةِ الْمُجَانِ
بِعَجْرَدٍ وَعِبَادِ	وَالْوَالِيِّ الْهَجَانِ
وَابْنِ الْإِيَّاسِ الَّذِي نَا	حَ نَحَطِّي حُطَّوَانِ
وَابْنِ الْخَلِيعِ عَلَى رَدِ	حَانَةِ النَّدْمَانِ
إِنِّي وَأَنْتَ

فهذه القصيدة تمثل لا رأى أبان وحده، بل تمثل أيضاً رأى هذه الطائفة من الفرس، الذين أظهروا الإسلام ديناً ، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم ، ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضاً ، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي ، لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهباً في السياسة . ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأى أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية ، فهو يكره أن يقرنه إلى مطيع ، وحامد ، والحسين بن الضحاك الخليع ، ووالبة بن الحباب ، وفي الحق أنه لا يقرن إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا ، ولكنه يفوتهم في الزندقة والإلحاد ، لأنه كان يتخذ الكفر رأياً ، لا وسيلة إلى اللذة . ولست أروى لك رد أبان على أبي نواس ، فهو فحش كله ، وتستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت ، على أنه لا يدفع حجة ، ولا يبريء من تهمة . وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها

أبونواس في هجاء أبان ، دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وإنما أراد أن يجزى
شما بستم ، وسباً بسب. ولست أروها كلها ، وإنما أترك منها ما فيه فحش .

صَحَّفَتْ أُمُّكَ إِذْ سَمَّيْتُكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرْتُ بَاءً مَكَانَ التَّاءِ تَضَحِيْفًا عِيَانَا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تُرِدْ إِلَّا أَنَا

.....

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التي أعطاها هو من نفسه
حين أراد أن يتصل بالبرامكة ، فكتب إليهم هذه القصيدة ، وستقرؤها
فترى أن الرجل معجب بنفسه ، مُدَلِّجٌ بعلمه وأدبه ، تَبَاهٍ لا حَدَّ لِنَبِيهِ
وغروره ، وهي :

أَنَا مِنْ بُغْيَةِ الْأَمِيرِ وَكَتَرُ
كَاتِبٌ ، حَاسِبٌ ، خَطِيبٌ ، أَدِيبٌ
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَخْفُ مِنَ الرَّبِّ
لِي فِي النُّحُوِّ فِطْنَةٌ وَاتِّقَادُ

ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ لِلَّهِ
ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ لِلَّهِ
وَزَظْرِيْفُ الْحَدِيثِ مِنْ كُلِّ فَنٍّ
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَأَتْ عِنْدِي حَدِيثًا
فِي مِثْلِي تَخْلُو الْمُلُوكُ وَتَلْهُو
أَيَّامُنُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدٍ
أَبْصَرُ النَّاسَ بِالْجَوَارِحِ وَالْخَيْلِ
كُلُّ ذَا قَدْ جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمُشْمَرِ ثَوْبِي

لَمْ يَقُولِ مُنَوَّرُ الْإِفْصَاحِ
عَرِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ
وَبَصِيرُ بَيْتْرَهَاتِ الْمَلَّاحِ
هُوَ عِنْدَ الْمُلُوكِ كَالْتَفَّاحِ
وَتَنَاجِي فِي الْمَشْكَلِ الْفَدَّاحِ
لَغْدُو دَعِيْتُ أَوْ لِرَوَّاحِ
لِوَالْخُرْدِ الْحِسَانِ الصُّبَّاحِ
عَلَى أَنْبِي ظَرِيْفُ الْمَزَاجِ
وَالْمَاجِنِ الْخَلِيعِ الْوَقَّاحِ

لَوْ رَمَى بِي الْأَمِيرُ - أَضْلَحَهُ الدَّ
 مَا أَنَا وَاهِنٌ وَلَا مُسْتَكِينٌ
 كَسْتُ بِالضُّحْمِ يَا أَمِيرُ وَلَا الْقَرْ
 لِحْيَةُ جَعْدَةٍ وَوَجْهُ صَبِيحٍ
 إِنْ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَائِنَ مِنِّي
 أَرَأَيْتَ شَاعِرًا أَشَدَّ غُرُورًا وَافْتِنَانًا
 بِنَفْسِهِ مِنْ هَذَا الشَّاعِرِ ! عَلَى أَنَّهُ
 لَمْ يَلْبِثْ فِيهَا ذِكْرَ الرِّوَاةِ أَنْ أَخَذَ يَسْعَى بِأَبِي نَوَاسٍ عِنْدَ الْبَرَامِكَةِ ، فَاغْتَاظَ
 أَبُو نَوَاسٍ ، وَنَقَضَ عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ ، فَقَالَ :

أَنْتَ أَوَّلِي بِقِلَّةِ الْحِظِّ مِنِّي
 قَدْ رَأَوْا مِنْهُ حِينَ غَنَى لَدَيْهِمْ
 ثُمَّ بِالرُّيْشِ شَبَّهَ النَّفْسَ بِالْخِفِّ
 فَإِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيخِ رَضْوَى
 لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنْ صِفَاتِكَ شَيْءٌ
 لِحْيَةُ نَطَّةٍ وَوَجْهُ قَبِيحٍ
 فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمُلُوكُ عَلَى الْخُرِّ
 فِيكَ نَبِيٌّ وَفِيكَ عُجْبٌ شَدِيدٌ
 بَارِدُ الظَّرْفِ مُظْلِمُ الْكِذْبِ دُخْرٌ
 فَالَّذِي قُلْتَ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ
 يَا مَسْمَى بِالْبَلْبَلِ الصَّبَّاحِ
 أَخْرَسَ الصَّوْتِ غَيْرَ ذِي إِنْصَاحِ
 مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
 عِنْدَهُ خِفَّةٌ نَبْوَى الْمِسْبَاحِ
 غَيْرَ خَلْقٍ مُحَجَّدٍ دَخْدَاحِ
 وَانْتِنَاءٍ عَنِ النَّهْيِ وَالصَّلَاحِ
 قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ
 وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحِ
 قِ مُعِيدُ الْحَدِيثِ نَزْرُ الْمُزَاحِ
 وَالَّذِي قُلْتَ ذَاهِبٌ فِي الرِّيَّاحِ

كَانَ أَبَانُ إِذْنٌ مُسْرِفًا فِي حُبِّ نَفْسِهِ ، وَالْإِعْجَابُ بِهَا ، وَكَانَ لِذَلِكَ
 هِجَاءُ قَبِيحِ اللِّسَانِ ، اتَّصَلَ الْهَجَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي نَوَاسٍ ، كَمَا اتَّصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 رَجُلٍ آخَرَ ، كَانَ صَدِيقًا لَهُ ، وَهُوَ الْمَعْدِلُ ، وَلَكِنْ هِجَاءُهُ قَبِيحٌ ، لَيْسَ مِنْهُ
 مَا يَصْلُحُ لِلرِّوَايَةِ ، عَلَى أَنَّ الْمَثَانَةَ تَنْقُصُهُ ، وَهُوَ مِنْ هَذَا الْهَجَاءِ الَّذِي تَسْمَعُهُ ،
 فَتَنْفَرُ مِنْ قَائِلِهِ ، لَا مِنْ قِيلٍ فِيهِ . وَلَمْ يَكُنْ أَبَانُ مَغْرُورًا وَلَا مَفْتُونًا بِنَفْسِهِ ،

ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريراً قاسياً ، يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة .
وقد روى له أبو الفرج قصتين ، كلتاهما تمثل نصيبه من القسوة وحب
الشر ، كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره ، ومن الحياة في عصره .
قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقي يقال له محمد بن خالد ، وكان
عدواً لأبان ، فتزوج محمد هذا ثقيفة معروفة ، هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
مولاة جنان ، التي كلف بها أبو نواس ، وأكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة
غنية موفورة الثروة ، فاغتاز أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة ، التي
بلغت عمارة ، فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَهَ	وَالْفَرَشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَهَ
وَاللَّوْزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ	مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَهَ
وَأَحْضَرُوا الْمُلْهَمِينَ لَمْ يَتْرُكُوا	طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَارَهَ
قُلْتُ لِمَذَا ؟ قِيلَ : أُعْجُوبَهَ	مُحَمَّدُ زَوْجَ عَمَّارَهَ
لَا عَمَرَ اللَّهُ بِهَا بَيْنَهُ	وَلَا رَأَتْهُ مُذْرِكًا ثَارَهَ
مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ	وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَهَ
أَسْوَدُ كَالسَّفُودِ يُنْسَى لَدَى النَّ	نُورِ بَلْ مِخْرَاكَ قِيَارَهَ
يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَهَ	أَرْغَفَهَ كَالرِّيشِ طَيَّارَهَ
وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوْفِهِ	إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَهَ
وَيَنْحَكِ فِرْيَ وَأَعْصَبِي ذَا بِهِ	فَهَذِهِ أُخْتُكَ فَرَّارَهَ
إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقَظِي	ثُمَّ اطْفِرِي إِنَّكِ طَفَّارَهَ

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت ، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه
الآيات :

فَصَعِدَتْ ذَائِلَهَ سُلْمًا	تَخَافُ أَنْ تَضَعَهُ الْفَارَهَ
«سُرُورُ» غَرَّتْهَا فَلَا أَفْلَحَتْ	فَإِنَّمَا لَخْنَاءُ غَرَّارَهَ
لَوْ نِلْتُ مَا أَبْعَدْتَ مِنْ رِيْقِهَا	إِنَّ لَهَا نَفْثَهَ سَحَّارَهَ

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونكراً ، وأقبح منها عاقبة وأثراً ، قالوا : كان لأبان جار ، وكان يعاديه ، فاعتل علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صبح من علته ، وخرج ، فجلس على بابه ، فكانت علته من السل ، وكان يكنى أبا الأطول ، فقال له أبان :

أبا	الأطول	طَوَّلْتَ	وما يُنْجِيكَ	تَطْوِيلُ
بِكَ	السلُّ	وَلَا وَاللَّ	ما يَبْرَأُ	مَسْلُوكُ
فَلَا	يَغْرُزُكَ	مِنْ ظَنِّ	كَ أَقْوَالُ	أَبَاطِيلُ
أرى	فيكَ	عَلَامَاتِ	وللأشياء	تَأْوِيلُ
هَزالاً	قَدْ بَرَى	جِسْمَهُ	كَ وَالْمَسْلُوكُ	مَهْزُولُ
وَذِبَاناً	حَوَالِكَ		فَمَوْقُودُ	وَمَقْتُولُ
وَحُمَى	مِنْكَ	فِي الْعَظَمِ	فَأَنْتَ الدَّهْرُ	مَمْدُولُ
وَأَعْلَاماً	يَسْوَى	ذَلِكَ	تَوَارِيهَا	السَّرَاوِيلُ
وَلَوْ	بِالْفِيلِ	مِمَّا بـ	كَ عُسْرُ	مَا نَجَا الْفِيلُ
غَمّاً	هَذَا	عَلَى	فِيكَ	قُلَاعُ أَوْ دَمَامِيلُ
وَمَا	بِالْ	مُنَاجِيكَ	يُوَلِّي	وَهُوَ مَعْلُولُ
فَإِنْ	كَانَ	مِنْ الْخَوْفِ	فَقَدْ سَالَ	بِكَ النِّيلُ
وَذَا	دَاءُ	يُزَجِّيكَ	فَلَا قَالَ	وَلَا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ، ودخل منزله ، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات .

قلت : إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر ، التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نغني أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ،

وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ، ولا سبباً في العصور المتحضرة ، كعصر العباسيين ، وإنما قيمته في تلك العصور التي لاحظ لها من علم ولا من حضارة ، والتي لا تنتشر فيها الكتابة ، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد ، لأنه أيسر حفظاً من النثر ، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني «هسيود» ، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح ، ونظم طائفة من القصائد ، فيها جمال شعري لا بأس به ، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة ، مما كان اليونان يرونه علماً في ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة ، التي تعرف بالأعمال والأيام ، والتي بين فيها فصول السنة ، وما يلائمها من ضروب الزراعة ، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك ، مما تجده في هذه القصيدة الجميلة .

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي . فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة ، من العلم والحكمة والدين ، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف ، واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتاً أربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لي دلى على كتاب ، أو قطعة من كتاب مخطوط ، توجد في دار الكتب المصرية ، وهو كتاب الأوراق للصولي ، وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ولست أريد أن أروى لك منه إلا شيئاً قليلاً جداً ، فهو لا يستحق الرواية ، ولا العناية في مثل هذا الحديث ، الذي نغنى فيه بالأدب والفن ، أكثر مما نغنى بالكلام المنظوم ، وهذا أول النظم :

هذا كِتَابُ أدبٍ ومِخْنَةٌ وهو الذي يُدْعَى كَلِيلَهُ دَمْنَةٌ
فيه ضَلَالَاتٌ وفيه رُشْدٌ وهو كتاب وَضَعَتْهُ الهِنْدُ
فَوَصَفُوا آدابَ كُلِّ عَالِمٍ حِكَايَةً عَنِ السُّنَنِ الْبَهَائِمِ

فالحكماء يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ
وهو على ذاك يسيرُ الحفظِ لَدُّ على اللِّسَانِ عند اللفظِ
وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور :

وإنَّ مَنْ كَانَ دَنَى النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
كمثل الكلب الشقيِّ البائسِ
وإنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يُرْضِيهِمْ
كالأسدِ الَّذِي يَصِيدُ الْأَرْنبَا
فِيُرْسِلُ الْأَرْنَبَ مِنْ أَظْفَارِهِ
والكلبُ مِنْ دِقَّتِهِ تُرْضِيهِ
يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
يفرحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يُغْنِيهِمْ
ثُمَّ يَرَى الْعَيْرَ الْمُجِدَّ هَرَبًا
وَيَتَّبِعُ الْعَيْرَ عَلَى أَذْبَارِهِ
بِلُقْمَةٍ تَقْدِفُهَا فِي فِيهِ

وعلى هذا النحو العادى الذى لا جمال فيه ، إلا أنه برىء من الركة ،
يمضى أبان فى نظم كتابه . على أنه فى هذا ناظم لكتاب معروف ، ولكنه
قد تجاوز نظم الكتب المعروفة ، إلى تأليف كتب منظومة ، فنظم
قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة ، روى منها الصولى طرفاً ، وهذا
أولها :

هذا كتابُ الصَّوْمِ وهو جامعُ
من ذلك المنزَلُ فى القرآنِ
ومنه ما جاء عنِ النَّبِيِّ
صَلَّى إِلَهُ وَعَلَيْهِ سَلَامًا
وبعضُهُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ
والجامعُ الَّذِي إِلَيْهِ صَارُوا
قَالَ أَبُو يُونُسَ : أَمَّا الْمُفْتَرَضُ
وَالصَّوْمُ فى كَفَّارَةِ الْإِيمَانِ
لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
فضلاً عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانٍ
مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبَعِ الْمَرْضَى
كما هدى الله بهِ وَعَلَمًا
مِنْ أَثَرِ مَاضٍ وَمِنْ قِيَاسِ
رَأْيِ أَبِي يُوسُفَ مِمَّا اخْتَارُوا
فَرَمَضَانُ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضَ
مِنْ حِنْثٍ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ

وَمَعَهُ الْحَجَّ وَفِي الظُّهَارِ الصَّوْمُ لَا يُدْفَعُ بِالْإِنْكَارِ
 وَخَطَأُ الْقَتْلِ وَحَلَقُ الْمَحْرَمِ لِرَأْسِهِ فِيهِ الصِّيَامُ فَافْهَمَ
 فَرَمَضَانُ شَهْرُهُ مَعْرُوفٌ وَصَوْمُهُ مُفْتَرَضٌ مَوْصُوفٌ
 وَالصَّوْمُ فِي الظُّهَارِ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ مُظَاهِرٌ يَوْمًا عَلَى مُحَرَّرٍ
 وَالْقَتْلُ إِنْ لَمْ يَكُ عَمْدًا قَتْلُهُ فَإِنَّ ذَاكَ فِي الصِّيَامِ مِثْلُهُ
 شَهْرَانِ فِي الْعِدَّةِ كَامِلَانِ مُتَّصِلَانِ لَا مُفْرَقَانِ
 وَالْحِنْثُ فِي رَوَايَةٍ مَقْبُولَةٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مَوْصُولَةٍ
 وَمِثْلُهَا فِي الْعِدَّةِ الْأَيَّامِ لِلْمَحْرَمِ الْحَالِقِ فِي الْإِحْرَامِ
 ثَلَاثَةُ نَصُومِهَا إِنْ حَلَقَا لَا بِأَسْ إِنْ تَابَعَهَا أَوْ فَرَّقَا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله ، وأمعنا في الفقه إمعاناً ، وكأنما نروى هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا .

ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين ، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم قصيدة طويلة سماها ذات الحلل ، تناول فيها تاريخ الخليفة ، وغير ذلك من موضوعات العلم ، وانتهى فيها إلى المنطق ، فألم به ، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شيء .

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن ؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلاً . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة ، حينما نظم كليله ودمته ، قد أطمعته ، فنظم القصائد الأخرى ، ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال ، يضحى في سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى وكان يحسد مروان بن أبي حفصة ، لمكانه من الرشيد ، ولظفره بالصلوات الضخمة ، والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر بيني العباس مع مروان بن أبي حفصة ، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ

ذلك أبان بن عبد الحميد ، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة ؟ فعاتب اليرامكة ، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتباه به إلى الرشيد ، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان ، فقالوا له : يجب أن تذهب مذهب مروان ، فتقدم آل علي[ؑ] ، فقال : والله ما أستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله ، وقال قصيدة طويلة ، أثر بها بني العباس على بني أبي طالب ، وأثبت فيها حق بني العباس في وراثته الخلافة دون بني علي ، ودفعها إلى الفضل ابن يحيى ، فركب بها إلى الرشيد ، فنالته صلاته وجوائزه . وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة . فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أَنْنَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
وأول القصيدة :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا	أَعْمُ بِمَا قَدْ قَلْتَهُ الْعُجَمُ وَالْعَرَبُ
أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُفَّةً	لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ ؟	وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّرَاثِ بِمَا وَجِبَ ؟
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ	وَكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ
فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ	كَمَا الْعَمُّ لِابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ

وهي طويلة ولكنها تخلوا من كل جمال أدبي ، وقد أجازها الرشيد مع ذلك ، فأحسن جائزتها ، لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة .

وقد انتهى بنا القول في أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبي حفصة الشاعر السياسي لبني العباس خاصة ، والثاني السيد الحميري ، وهو الشاعر السياسي لبني علي[ؑ] خاصة ، وإن كان قد مدح بني العباس ، وظفر بجوائزهم . وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية ، فسننتهي إلى هذه النتيجة : وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً ، وأكثرهم اتجاراً

برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ، ثم طمع في أموال الرشيد ، فأنكر العلويين ، وآثر عليهم بني العباس ، وهو يُقسم ما يستحل ذلك ! وفي الحق أنه لم يكن يحب آل علي ولا بني العباس ، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس ، الذين يذهب البرامكة ، يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، يخفى أطماعه وآربه الفارسية . أما مروان بن أبي حفصة فأسرته كلها من أتباع بني أمية وأنصارهم ، والغلاة في مدحهم وتأبيدهم ، ولكن الله أدال من بني أمية لبني العباس ، فدار مع الأيام ، ووجد في ذلك مغناً ، فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء . وأما السيد الحميري فعلمى المذهب ، صادق في علويته ، مسرف فيها إسرافاً لا يعدله إسراف ، ولكن الله أدال من بني أمية لبني هاشم ، وكان السيد كغيره من الناس ، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين ، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين ، انقسمت شيعة العلويين ، فمنهم من أعلن حقه ونخطه على بني العباس ، فاشترك في فتن العلويين وثوراتهم ، ومنهم من اتقى ، فحفظ الود لآل علي ، وجامل العباسيين وأخذ أموالهم ، ومن هؤلاء السيد الحميري ، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية ، ونحسب أن الخير في إرجائه إلى الأسبوع الآتي .

مروان بن أبي حفصة (١)

السيد الحميرى

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد ، فى آخر حديث الأربعاء الماضى ، ولم أجمعهما إليه عبثاً ، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة ، تجعل التفكير فى أحدهم وسيلة إلى التفكير فى الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية ، فهم يتفاوتون فى الشعر تفاوتاً شديداً ، لكل منهم فيه مذهب وسبيله كما سرى . وليست هذه الصلة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، فقد كان أبان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة ، يستر ذلك ويخفيه ، حتى خدع الناس عن نفسه ، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان ، ولم يكن مروان بن أبي حفصة ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً ، وإنما كان أشد الناس انصرافاً عن اللغو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجدل وحسن السيرة ، لأسباب سنبينها بعد حين . أما السيد الحميرى فلم يكن من المسرفين فى الاستهتار والتهتك ، ولا من الذين يتخذون العبث واللغو سيرة وديناً ، وإنما كان رجلاً كغيره من الشعراء الذين عاشوا فى العصر الجاهلى والأموى ، يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً فى ذلك حدّاً ، ولا مستهتراً فيه ، ولا متحدياً غيره من أهل التقى والدين ، كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والأعشى ، ولكنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبي نواس . ولم يكن يتغناها أو يُشيد بذكرها ، كانت سيرته فى ذلك سيرة الشعراء من العرب ، لا من الموالى ، فسرى فى غير هذا الحديث أن هناك فروقاً جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالى ، تفسر لنا هذا المجون الكثير ، الذى نجده فى صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، ولا تشابهاً فى المذهب الشعرى والأدبى ، وإنما الصلة بينهم سياسية ، الصلة

(١) نشرت بالسياسة فى ١ من ذى القعدة سنة ١٣٤٢ - ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ .

بينهم هذا المذهب السياسى الذى ذهبه جميعاً ، دون أن يكونوا فيه جميعاً ، مخلصين ، فكلهم مدح بنى العباس ، وتقرب إليهم ، وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بنى العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل . رأينا فى الحديث الماضى أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبنى العباس ، ولكنه كان مخلصاً لمال بنى العباس ، يشبهه ويحرص عليه ، فعاتب البرامكة ، لأنهم لم يقدموه إلى الرشيد ، فلما قال البرامكة إن الحق عليه فى ذلك أن يهجو العلويين ، ويؤثر عليهم بنى العباس ، أظهر تردداً ، وقال إنه لا يستحيل ذلك ، ثم أصبح فاستحله كما قلنا ، وأنشأ قصيدته المعروفة ، يثبت فيها أن بنى العباس أحق بوراثنة الخلافة من بنى على ، ولم يكن أبان علوياً مخلصاً ، وإنما كان قبل كل شيء فارسياً مخلصاً ، وكان كغيره من هؤلاء الفرس ، يتخذ التشيع لعلى وآل بيته لوناً سياسياً ، إذا كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى ، وحریتهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام ، فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد طوال أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفًا سياسية خاصة ، تدرس فى التاريخ لا فى هذه الصحيفة الأدبية ، دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى على ؛ فلان الفرس ومرنوا ، وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم فى مذهبهم العلوى قوم ، لقوا فى سبيل هذا المذهب منايهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً . وقد حدث فى ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث فى فرنسا أيام الثورة التى ظهرت سنة ١٨٣٠ ، فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيثوا أسبابها لى ، وانتهوا بها إلى الفوز ، حتى أزالوا سلطان « بوربون » ، ولكن ظروفًا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل « أورليان » ، فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذى عملوا وضحوا ، وفازوا ، ثم قسم أنصار « أورليان » الذين اجتنوا

ثمّار الفوز ، وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختلسوا الجمهورية (Examoter la Rêpuplique) وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فمنهم من مال إلى الدولة الفائزة ، فانصرف من الحكم الجمهوري إلى الحكم الملكي الحر ، ومنهم من تشدد في مذهبه الجمهوري ، ومضى يأتمر ويدبر الثورات ، حدث هذا أوشىء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لتقضى السلطان الأموي . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم ، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة ، لم ينتصر العلويون ، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بني أمية ، واستأثر بالحكم من بني هاشم آل العباس ، دون آل علي ، فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ، ومنهم من أيد العلويين ، فمضى يأتمر ويثور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضاً ، فاطمأن بعضهم إلى السلطان القائم ، وأرجأ الثورة إلى سنوح الفرصة . وأبى بعضهم إلا أن يثور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين في ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « أورليان » سنة ١٨٣٠ .

أما الفرس فقد ذهبوا هذا المذهب نفسه ، وانقسموا هذا الانقسام نفسه ، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا في الحكم ، فأبوا أن يظهروا النصر لبني العباس ، كما أبوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التي يفيدها مروان بن أبي حفصة من خلفاء العباسيين ، فطمع وعدل عن مذهبه السياسي . فلم يبق علويّاً معتدلاً ، بل أصبح عباسيّاً متطرفاً ؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد .

أما السيد الحميري فقد استطاع أن يكون علويّاً متطرفاً ، وعباسيّاً معتدلاً ، واستطاع ذلك في وقت واحد ، فكان من أشد الناس إخلاصاً لآل علي ، يجهر بذلك ويعلنه ، ولا يتحرج منه . وكان في الوقت نفسه مسروراً بفوز بني العباس ، لا لأنهم فازوا على العلويين ، بل لأنهم يمثلون بني هاشم ، الذين فازوا على الأمويين كان يجمعه إلى أنصار بني العباس الفرع بسقوط الأمويين ، وكان يعلن هذا الفرع ، وينتظر أن يأتي يوم آل علي ، وهو لا ينتظر حادثاً ولا صامتاً ، وإنما كان يبث الدعوة لآل علي ، ويبدل في ذلك من الجهد والقوة ما استطاع . ثم لم يكن فرحه بسقوط الأمويين وحده هو الذي يدنيه من بني العباس ، وإنما كان هناك شيء آخر يدنيه منهم ، وهو الرغبة والرغبة ، كان يطمع في أموال بني العباس ، ويفيد

منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم ، فيتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس ، بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل عليّ .

أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، وكان رجلاً يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما إلا في شيء واحد ، هو مدح بني العباس وتأبيدهم . كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الأدب التاريخ متصلة ببني أمية ، محسوبة عليهم ، إن قبلت هذا التعبير ، فقد كان أبو حفصة جده الأعلى عبداً فارسياً لمروان ابن الحكم ، شهد معه حصار عثمان في داره ، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكرأ في حماية مولاه مروان ، وإنقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قبل خلافته ، ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالات القوية المتينة ، بين آل أبي حفصة وآل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل أبي حفصة على العرب ، وعلى أشرف العرب أيضاً ، وحتى لقد أبى خليفة مرواني أن يسمع لنفر من أشرف العرب ، أقبلوا يشكون إليه أن رجلاً من آل أبي حفصة قد أصهر إلى العرب ، وخالف الحكم الشرعي ، الذي لا يبيح للموالي تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى ، بل زجر الشاكين زجراً شديداً ، واضطر الخفصى إلى أن يسعى لدى الخليفة في الرق بهم ، والعطف عليهم ، وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصروا الأمويين مناصرة شديدة ، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج ، وزعم في شعر له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج ، فاضطربت أمور العراق ، وظهر فيه الثائرون ، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الأمويين وبين آل أبي حفصة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر ، هو الذي نقصد إليه في هذا الحديث ، وهو ، خلق مروان بن أبي حفصة .

فما كان الحظ يدل من بني أمية لبني العباس ، حتى انتفض مروان ابن أبي حفصة ، فإذا هو شاعر بني العباس ، ولسانهم السياسي ، وإذا هو أشد الناس انتصاراً لهم ، وأبلغ الناس دفاعاً عنهم ، وإذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه : إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثته الملك ، وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً ، فقال :

أَنْتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لَبْنَى الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ

يريد أن العباسيين أحق بوراثة النبي ، لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق بوراثة ابن أخيه من الأسباط ، وذلك بحكم الفقه والميراث . وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة ، فاضطربوا له اضطراباً شديداً ، واشتد سخطهم على مروان ، وأضمرُوا له الشر ، وأظهروا له اللعنة ، وما زالوا به حتى قتلوه ، كما سنرى . أما موقع البيت مع العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه ، حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدي والهادي والرشيد ، وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة ، ثم كانت له عليهم دالة ، وكانت له عندهم عادات ، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون ألفاً ، تعدل أبيات قصيدته عدداً فكان إذا بلغ بقصيدته المئة ، بلغت جائزته مئة ألف . وهذا هو الذي غاظ أبان ابن عبد الحميد ، فكان منه ما كان ، على أن أبان بن عبد الحميد حين أراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطع أن يكون شاعراً ، وإنما كان فقيهاً ، يناضل عن رأى في الفقه ، ففصل النظرية العباسية تفصيلاً ، ودافع ، عن كلياتها وجزئياتها ، كما يقول أصحاب المنطق ، دفاع الفقيه . فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن ينكر ماضيه وماضى أسرته ، وأن يجحد ولاء الأمويين ، وينتفض فإذا هو عباسي أكثر من العباسيين ؟ ليس الجواب عليه عسيراً ، ولا في حاجة إلى بحث وتدقيق ؛ فقد كان مروان بن أبي حفصة محباً للجمال ، شرهاً إليه ، لا يشبع منه ، ولا يقنعه منه الكثير كان محباً للمال ، هذا التعبير ضعيف ، لا يصف مروان ولا خلقه ، وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ، ويقدسه تقديساً ، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الأمويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأنه يفوز بأموال العباسيين ، فلو أدال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ، ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدسه . لم يكن إذن عباسياً مخلصاً ، بل لم يكن شاعراً من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح ، لم يكن من هذه الألسنة السياسية الحزبية ، التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، التي لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس على الموت ، في سبيل الرأى السياسي . لم يكن مروان من هؤلاء ، وإنما كان شاعراً مجيداً ، يستطيع أن يكسب المال بشعره ، وقد رأى فرصة سانحة ، فأحسن انتهازها ، وقدّر له التوفيق ، فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر

من قبله وأمثال مروان بن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي ، والجهد العنيف بين الأحزاب ، تجدهم في كل مكان وفي كل زمان ، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قلياًون جداً

كان مروان شراً إلى المال ، ولكن الغريب من أمره أنه لم ينتفع بهذا المال ، ولم يستمتع بشيء منه ، وإنما عاش عيشة بؤس وحرمان ، فكان من أبخل الناس ، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر عرفته العرب إلى ذلك الوقت . وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان ، ويتندرّون به في مجالسهم وأحاديثهم ، فهم يقولون مثلاً إنه كان إذا قدم بغداد ، يمدح خليفة من الخلفاء . ويظفر بجائزته ، لم يأكل إلا الرأس ، يبعث غلامه ، فيشتري له رأساً ، فيعيش عليه حيناً ، وقد كلف في ذلك ، فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبعاً ولا تهية ، فهو إذن يكفيه بعض المؤونة ، بم إنه لا يحتمل زيادة ولا نقصاً ، فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه ، فهو إن أكل أذنّاً أو عيناً أو نحو ذلك ، ظهر سيده على ما أكل ، ثم إن له في الرأس مرافق ، فهو يتخذ منه ألواناً مختلفة ، دون أن يتكلف لذلك الأثمان ، التي يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألواناً مختلفة ، فهو يأكل الأذنين لوناً ، والعينين لوناً آخر والغلصمة لوناً آخر ، وعلى هذا النحو .

وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان ، فترلوا عنده في الإمامة ، فأطعمهم لحماً ، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلساً وآنية ، ليشتري له شيئاً من الزيت يطعم منه ، فذهب الغلام وعاد بالزيت ، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والخيانة ، فجعل الغلام يسأله كيف أخونك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب : أخذت الفلس ، واستوهبت الزيت . ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال : ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوماً وقد أجازني المهدي بمئة ألف دينار ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشترت به لها ويقولون إنه : مر بامرأة فأضافته ، فلما أراد الانصراف وعدّها إن بلغت جائزته مئة ألف أن يهب لها درهما ، فلم تبلغ جائزته إلا ستين ألفاً ، وكان يريد معن بن زائدة ، فوهب للمرأة أربعة دنانق ، وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي مئة ألف .

وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة ، روينا لك منها هذا الطّرف ،

لنصور لك حبه للمال تصويراً كافياً ، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن نتمه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ، ولها قيمتها ، لأنها تمس شعر مروان ، وهي أنه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له ، كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الأموي ، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الحليفة بقصيدته ، فاستمع مروان لهذه القصيدة ، فأعجبته ، وكان أولها :

مَرْوَانُ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرْفًا بَنُو مَرْوَانَ

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته ، تبعه صاحبنا إلى بيته ، وقال له : إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد ؛ فقد قتل مروان ، وذهبت دولته ، فبغني هذه القصيدة ، لأنتحلها لنفسى ، وتفوز أنت بشيء من المال ، قال الرجل : قد فعلت . فساومه مروان ، وانتهيا إلى ثلاث مئة درهم ، ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والأيمان المخرجة ألا يذكر هذه القصيدة ، ولا يرويها ، ولا ينسبها إلى نفسه ، فحلف الرجل ، وانصرف مروان إلى بيته ، فغير القصيدة . وزاد فيها ، ونقص منها ، وحولها إلى معن بن زائدة ، فقال :

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرْفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُوا شَيْبَانَ

ووفد بها على معن ، فلأ يديه ، وأقام عنده مدة ، حتى أئثرى . على أننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبي حفصة ببني العباس ، فبلغ عندهم من الخطوة ما بلغ ، وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال . يظهر أنه في أول أمره لم يكن يفكر في الاتصال بهم ، ولا في الارتقاء إلى هذه المنزلة ، منزلة الشعراء الذين يبلغون قصور الخلفاء ، وينشدونهم فيها الشعر ، وكأنه كان قد ترك ذلك لأهل العراق ، واكتفى بحظه من معن بن زائدة ، وقد كان هذا الحظ عظيماً موفوراً ، فجود معن معروف ، وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره . لكن معن مات ، فحزن عليه مروان ، ورثاه رثاء كثيراً جيداً ، منه هذان البيتان :

أَقْمَنَّا بِالْيَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ مُقَاماً لَا نَرِيدُ بِهِ زَوَالاً

وَقُلْنَسَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالاً

ثم بداله ، فوفد على المهدي فيمن وفد عليه من الشعراء ، وكان اسمه وشعره قد سبقاه إلى المهدي ، كما سبقاه إلى المنصور من قبل ، ولعل اسم معن هو الذي

رفع مروان ، حتى انتهى به إلى قصور الخلفاء .

وقد على المهدي ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله المهدي : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك ، مروان بن أبي حفصة ، قال المهدي ألسن القائل ، وذكر البيتين السابقين ، ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت ، فلا نوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله ، حتى أخرج . ومن قبل المهدي وجد المنصور على مروان ، لأنه أحسن مدح معن ، ووجد على معن ، لأنه أكثر العطاء لمروان ، حتى إنه لام معنًا في ذلك ، ولكن معنًا عرف كيف يخلص من لوم المنصور .

كان المهدي إذن واجدًا على مروان ، حاسدًا لمعن بن زائدة ، ولهذا حرم مروان وأهانه ، وكان مروان قد فهم هذا ، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه ، فعرف الميول السياسية حول الخليفة ، واستفاد مما عرف ، فأقام عامه في بلده اليمامة ، ثم استأنف الرحلة ، فدخل على المهدي مع الشعراء ، وأنشده ، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره ، وكان من حقها أن تخلصهم ، فإنها آية من آيات الشعر السياسي ، وآية الجودة في اللفظ والمعنى ، وصفاء الأسلوب ورقته ، في غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ، ومطلعها :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَى خَيَالِهَا بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا

قَادَتْ فَوَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصُّبَا فَأَمَالِهَا

فلم يكذب يبدأ في إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم ، فاستمعوا له معجبين ، وبلغ بهم ذلك أنهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر ، حتى إذا هجم على الموضوع السياسي ، وأخذ يحاج العلويين ، ويخاصمهم عن حق بني العباس في وراثة الخلافة ، أخذ المهدي يزحف من صدر مصلا ، حتى صار على البساط ، إعجاباً بما يسمع ، وإليك هذه الأبيات التي استخفت المهدي ، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نَجْوَمَهَا بِأَكْفُكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هَيْلَالَهَا

أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةً عَنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

شَهِدْتُ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرَ آيَةٍ بَتَرَاهُمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدي عن القصيدة كم هي ؟ قال : مروان : مثـ

بيت ، فأمر له بمئة ألف درهم ؛ وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس . قال الفضل بن الربيع ، وهو الذي شهد هذه القصة : فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله : ومن أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة ، فذكر له ذينك البيتين ، اللذين رثا بهما معن بن زائدة ، وقال له مثل مقالة المهدي ، وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع : فلما كانت أيام تطف مروان ، حتى دخل على الرشيد ، فأنشده قصيدته التي أولها :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخصب

وقد صدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكباً بعد موكب

طرب الرشيد ، وسأله عن قصيدته كم هي ؟ قال : ستون أو سبعون ، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً ، وكان ذلك رسم مروان في القصر حتى مات .

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف الأسف كله ، لأننا لا نستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا عن بصيرة ، إذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتاً قليلة متفرقة ، ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح .

لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر ، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين ، فلسنا نعرف له غزلاً ، إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون ، حين يدافعون عن مذهبهم ، ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً ، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية ، فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوم في حرية ، وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية ، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم ، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً ، كان الدين يأباه في ذلك الوقت . وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً ؛ فالعلويون من بني هاشم ، وهجاؤهم هجاء للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين ، الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين ، مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة ، البريئة من الشتم والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك

الشتامين المسرفين في الشتم ثم لا نعرف لمروان مجوناً ولا عيباً ، فلم يكن كما قلنا مابجناً ولا عابثاً ، وإنما كان بخيلاً ، والبخل والعبث شيان لا يتفقان ، ومن ضمن على نفسه باللحم وطيبات الطعام ، لم يستبح لنفسه خمرأ ولا ما تستبعه الخمر . ثم لا نعرف لمروان فخراً ، وما نحسب أنه فاخرأ أو مال إلى الفخر؛ فقد كان رجلاً عملياً ، يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة ، وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد .

لم يعرض إذن إلا لفنين اثنين : المدح والرثاء ، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء ، وهذا طبيعي ، فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ، ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يجيد ، وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً ، أما في الرثاء فهو لا يرغب ، ولا يطلب مالا ، وإنما يني بعهد ، ويشكر صنيعة . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة ، إلا أن يكون حساساً ، دقيق الشعور ، راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء ، وإنما كان ، كما قلت لك ، رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء ، وكذلك رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء ؟ هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذكر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه . وفيه المثوبة والعطاء ؛ فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء . أما مدح مروان فن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ، ولكنها تكني لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح ، وبرع فيه ، بل نحسب أنه تفوق في هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متميزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يفتن في وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب ، ثم يفتن في مدح بن شيان الذين ينتمى إليهم معن ، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله ، ولكنه جيد المعاني متقها ، حسن الألفاظ صافيا .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان ينشده الخلفاء من بني العباس ، وهو مدح إن شئت ، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف ، بما فيه من هذا النضال السياسي ، الذي كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ، ودقة وخفة ، والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم . وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين ،

لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصماً قوياً عنيداً ماهراً في الخصام ، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته ، وقوة حجته في الخصومة .

ثم هناك شيثان لا بد من الإشارة إليهما ، ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكماً مُعلّلاً ، إن صح هذا التعبير .

الأول أن مروان لم يكن عراقياً ، ولم يرص الإقامة في العراق ، ولم يُطِل عشرة العراقيين ، من أهل الحجون والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة ، أقام فيها ، لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة ، فإذا أنشد قصيدته ، وظفر بجائزته ، عاد إلى اليمامة ، وأقام فيها عامه ، ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ؛ فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين ، منه إلى شعر المحدثين ، من شعراء الحضارة العباسية ، تقرأه فتجد عليه هذه المسحة ، التي تخلو ، أو تكاد تخلو من الدُّعابة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، وهو يمثل البادية تمثيلاً صحيحاً . ولهذا أثره في وجهة أخرى . فقد رضى علماء اللغة جميعاً عن مروان ، وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نواس ، لأنه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس ، فاضطروا إلى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار ، وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين ، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة . وهى وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يقاس إلى مروان في هذا أحد من شعراء العراق . أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس ، والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس إلى بشار ، ولا إلى أبي نواس بنوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في فنه ، لا يخاف ولا يهاب ، فصدق نفسه ، وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ؛ وهذا العالم اللغوى هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان ، وأبى أن يدوّن لأحد من المحدثين بعده ، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان ، وهى :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السما كين منزل
لها ميم في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا ، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابي يقول : لو أن معنأ أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه .

والآخر أن مروان لم يكن سريعاً في الشعر ، ولا متعجلاً ، ولا مسترسلاً مع الطبع ، وإنما كان بطيئاً متمهلاً . كان يجيد الشعر ، لأنه كان يجوده . وكان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها ، في هذه القصائد التي يسمونها الحوليّات . كان ينفق أشهراً في إنشاء القصيدة ، وأشهراً في إصلاحها ، وأشهراً في عرضها ، حتى إذا استقام له هذا كله ، أنشد قصيدته لمملوحه ، خليفة كان أو وزيراً أو أميراً ، فليس عجباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر ، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً .

ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء ، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار ، فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ، ويسأله رأيه فيها ، فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة مالياً ، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا . . . وقد صدق بشار مرتين ، فأظهر له مروان العجب من ذلك ، فقال ، بشار : ألم أقل لك إني أعلم الغيب ! ولم يكن يعلم الغيب ، وإنما كان يفهم مروان ، ويفهم الخلفاء ، ويفهم الميول السياسية ، التي كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضاً ، ولكنه تناقض مفهوم ، كان شديد الحرص على الإجابة فكان يشك في شعره ، ويستشير فيه الشعراء والنحاة ، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه ، لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجريبر . واسمع رأيه فيهم وفي نفسه ، فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول :

ذهب الفرزدق بالفَخَّار وإنما حُلُو القريض ومُرّه لجريـر
ولقد هجا فأمضَ أخطلُ تغلبٍ وحوى اللّهُى ببيانه المشهور
كلُّ الثلاثة قد أجاد فمدحه وهجاؤه قد سار كل مَسِير
ولقد جريتُ ففتُّ غير مهلِّل بجراء لا قَرَفٍ ولا مَبْهور
إني لآنف أن أُحَبِّر مدحة أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرّني حسدُ اللّثام ولم يَزَلْ ذو الفضل يحسده ذوو التقصير
أما رأى مروان في النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ، ويقول
هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الأعشى ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد
شعر زهير ، ويقول هو أشعر الناس ، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء ،
فرآهم جميعاً أشعر الناس ، قال ضاحكاً : الناس أشعر الناس .
ولست أعرف رأياً كهذا الرأى ، يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين
والسخرية بهذا النقد .

أظن أنى قد صورت لك مروان بن أبى حفصة تصويراً مقارباً ، إن لم يكن
صحيحاً . وكنت أريد أن أتحدث معه عن السيد الحميرى ، كما ترى في عنوان هذا
الحديث ، ولكنى أطلت فأرجئ السيد إلى الحديث الآتى ، وأختم هذا الفصل
بموت مروان يقصّه قائله .

روى صاحب الأغانى عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم ، أنه قال :
لما قال مروان :

أننى يكونُ وليس ذاك بكائن لبنى البناتِ وراثَةُ الأعمام
لزمته ، وعاهدت الله أن أغتاله ، فأقتله أى وقت أمكننى ، وما زلت ألافه
وأبرّه ، وأكتب أشعاره ، حتى خُصصت به ، فأنس بى جداً ، وعرفت ذلك بنو
حفصة جميعاً ، فأنسوا بى ، ولم أزل أطلب غرّة ، حتى مرض من حمى أصابته ،
فلم أزل أظهر له الجزع عليه ، وألازمه وألاطفه ، حتى خلا لى البيت يوماً ، فوثبت
عليه ، فأخذت بحلقه ، فما فارقت حتى مات ، فخرجت وتركته ، فخرج إليه أهله
بعد ساعة ، فوجدوه ميتاً ، وارتفعت الصبيحة ، فحضرت وتباكيت ، وأظهرت
الجزع عليه حتى دفن ، وما فطن بما فعلت أحد ، ولا اتهمنى به .

(١) السيد الحميري

علويون ، وعباسيون

اضطربنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسي في صدر أيام العباسيين ، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه ، ورأينا مذهبه ، وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، كساداته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين ، كساداته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصره شعره السياسي على بني العباس ، فدافع عنهم وناضل ، حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة ، وهو مروان بن أبي حفصة ، الذي كان خليفاً أن يكون أموي النزعة ، ولكن حبه للمال ، وتهالكه عليه ، قطع الصلة بينه وبين قديمه ، وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسياً ثالثاً ، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين ، اللذين رأيناها ؛ فهو لم يكن فارسياً ، ولا ميالاً إلى الفرس ، ولا متصلاً بزعمائهم ، ولا متأثراً بمحضرهم تأثراً خاصاً . وإنما هو رجل عربي خالص ، لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وهو إسماعيل ابن محمد ، المعروف بالسيد الحميري .

ليس فارسياً ولا متصلاً بأحد من زعماء الفرس ، وإذن فلم يكن تشيعه طلاء سياسياً كاذباً ، يستر الشُعوبية وبُغض العرب ؛ ولم يكن أموي النزعة ، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة ، كما كانت الحال بين آل أبي حفصة والمرأونة ، وإنما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى السيد الحميري ، فإن جده يزيد بن مَفَرَّغ هجا زياداً وآل زياد ، وعرف سجن عبيد الله بن زياد . وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ، كما كان يكرهان بني هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ، كما كانا يشتمان علياً ، ومع ذلك فقد كان السيد الحميري شيعة لعليٍّ وأبنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ - ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤ .

في حياتهم السياسية كلها ، وقف عليهم عمره وجهده ، وكاد يقف عليهم مدحه وثنائه ، مخلصاً في ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص . ولم يكن السيد الحميري نفسه يعرف كيف وصل التشيع إليه ، بل كان إذا سئل عن ذلك قال : غاصت رحمة الله على غوصاً ، وكان يسمع أبويه يشتان علياً ، ويبالغان في شتمه فكان يكره ذلك ، ثم صح له مذهبه في التشيع ، وظهر منه أبواه على هذا الرأي ، فيقال لهما هما بقتله ، فاستجار منهما بعقبة بن سلكم ، فأجاره حتى ماتا ، وتم له ميراثهما .

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد ، في أنه لم يكن فارسياً ولا ميالا إلى الفرس ، ويخالف مروان بن أبي حفصة ، في أنه لم يكن أمويا ولا ميالا إلى بني أمية ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين ، في أنه لم يتعيف عن أموال بني العباس ، بل تقرب إليهم ، وأثنى عليهم ، وأنشدهم شعره ، وأخذ من أموالهم ما استطاع ، مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم ، وإنما كان هواه مع قوم آخرين ، هم آل علي . على أن أمر السيد الحميري يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً ، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين ، وظفر بجوائزهم ، وهو لم يقل كما قال أبان بن عبد الحميد : لا أستحل ذلك ، ثم استحله ، وإنما كان السيد الحميري يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضر ، وأن يمدح بني العباس بلسانه ، ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بمالهم ، ويتقى شرهم ، كان يستحل ذلك كما كانت تستحلها عامة الشيعة ، الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة ، ويستبيحون لأنفسهم أن يروا في السياسة والدين رأين ، رأياً تجارياً ، إن صح هذا التعبير ، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ، ليعيشوا ويأمنوا ، ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن . ورأياً آخر يخفونه على الناس جميعاً إلا أنصارهم وأولياءهم ، وهو الرأي الذي يصطنعونه فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين ، وعليها سارت أيضاً أيام العباسيين ، وهي معقولة ، ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان المحن أيام بني أمية ، ما لم يلقه حزب سياسي آخر ، إذا استثنينا الخوارج ، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها ، وكانت شيعة على من وجوه الناس وأشرافهم ، وذوى الثروة والمكانة فيهم ،

فلم يكن لهم بُد من أن يداروا الناس ويتقوهم ، ليحفظوا بثرانهم ومكانتهم ، حتى إذا سنحت لهم الفرص ، أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم ، فطالبوا به ، ودافعوا عنه ، وعلى هذا النحو استطاع الكُمَيْت بن زيد ، وهو الشاعر الذي يمكن أن يوضع مع السيد الحميري ، أن يمدح بني أمية ، ويفيد من أموالهم ، وعلى هذا النحو استطاع «كُثَيْرٌ» أيضاً أن يمدح الأمويين ، ويصيب من جوائزهم ، بل على هذا النحو استطاع «الفرزدق» أن يُضمر ميله إلى العلويين ، ويكتمه كتماناً ، وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بني أمية .

فليس غريباً أن نرى السيد الحميري يمدح بني العباس ، ويتقرب إليهم ، مع أنه كان من غلاة العلويين ، الذين أسرفوا في علويتهم ، حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميري علوياً غالباً ، وكان من الرافضة ، وقد جنى عليه غلوّه ورفضه هذان جناية عظيمة ، هي التي تعيننا ، وإن كانت لم تكن ، ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة ، فلم ينله أذى ، ولم يتعرض لخطر ، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ، ولكن رفضه وغلوّه بغضاً شعره إلى الناس ، وحملهم على أن يُعرضوا عنه الإعراض كله ، إما لأنهم كانوا يكرهون أن يروا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه ، وإما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رويوا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء ، فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر ، ولم يتقدمهم في ذلك أحد ، في جاهلية أو إسلام ، وهم بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد . فأما بشار فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حُفِظ له ديوانه ، لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من شتم السلف ، والظعن عليهم ، والإسراف في الزرابة بهم . ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً ، وتخرج تحرجاً عظيماً ، في رواية ما روي من أخباره وأشعاره القليلة ، ولو استطاع لأعرض عن ذلك إعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتخرجون من شعره ، ويختلسون الفرص اختلاساً يتلون فيها شيئاً من شعره ، خفية دون أن يظهر عليهم الناس ، وكان منهم من يأسف ويأسى ، لأنه فيما بينه وبين نفسه يُكبر هذا الشاعر ، ويقدر شعره ، ولكنه لا يستطيع ، لخوف أو لدين ، أن ينزله منزله

الصحيحة من الشعراء ، كان الأصمعي يُقدِّمه على طبقته ، لولا إسرافه في شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة ، وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما .

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم ، الذي كان يشتمل على الناس إذا ذكر السيد الحميري أو شعره ، والذي كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به ، على أن يتناقلوا شعره سرّاً فيما بينهم ، فمصدر هذا الخوف شيثان : أحدهما الدين ، والآخر السياسة . وما رأيك في رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مآثمة من المآثم ، ولا لوناً من ألوان العيب ، إلا رى بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا بني هاشم وشيعتهم ! فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي ، مهاجرين وأنصاراً ، فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفنظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصور والمهدي ، على قرب عهدهم بالسلف ، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه ، كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه ، دون أن يأخذهم الألم ، وينالهم الاشتزاز ، ويصيبهم شيء من الحرج في دينهم ، يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً !

أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة ، لأبين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل علي ، أيام السيد الحميري ، وليس أدل على ذلك ، ولا أنطق به ، ولا أبلغ في وصفه ، من هاتين الرسالتين اللتين تبادلتهما المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوي حين خرج بالمدينة . هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولهما ، تصفان لك هذا العداء الشديد ، الذي كان يقسم بني هاشم قسمين : قسماً يوالى العباسيين ، وقسماً يوالى العلويين ، وهما على هذا تبيين لك شيئاً آخر أشرت إليه في فصل مضى ، وهو النظرية السياسية والدينية التي كان يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم ، والتي دافع عنها مروان بن أبي حفصة ، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التي كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقوقهم ، والتي قامت عليها الثورات ، وسفكت من أجلها الدماء ، واستغلها الفرس لأهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، كتب إليه المنصور يرغبه ويرهبه ، ويخوفه عاقبة الخروج والبغي ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة .

فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد عبد الله المهدي ، إلى عبد الله بن محمد .
 « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نزل عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم
 يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ،
 يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنَّ على الذين
 استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكنَّ لهم في الأرض ،
 ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأنا أعرض عليك من الأمان
 مثل الذي عرضت علىّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ،
 وخرجتم له بشيعتنا . وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصي ، وكان الإمام ،
 فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له
 مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا
 الطلقاء ، وليس يمتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة
 والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية
 وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من
 النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاماً علي ، ومن الأزواج
 أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلَّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ،
 سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل
 الجنة ، وإن هاشماً ولد علياً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين ، وإني أوسط
 بني هاشم نسباً ، وأصرحهم أمماً وأباً ، لم تُعرق في العجم ، ولم تتنازع في أمهات
 الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار
 لي في النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذاباً في النار .
 وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير
 أهل النار ، ولك الله علىّ إن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي ، أن أؤمنك على
 نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم
 أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ؛

لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي . فأى الأمانات تعطيني !
أمان بن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم !

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي ، لأن أباهم كان وصي النبي ، ولأن أمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء ، ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبي في الإسلام والجاهلية ، وبهذه الكرامة التي خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار ، وخير أهل الجنة ، وخير أهل النار ، يريد أبا طالب ، الذي مات ولم يُسلم ، فيروي أنه أقل أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف كيف ختم كتابه بهذا التعبير ، يصف فيه المنصور بأنه نقض العهد ، وخان الذمة مع قوم آمنوه ، فقتل منهم من قتل ، وسجن منهم من سجن .

وكان وقع هذا الكتاب شديداً في قصر المنصور ، فقد انتدب الكتاب والأمراء للرد عليه ، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه ، فكتب هذا الكتاب .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فحك بكراية النساء ، لتُضلَّ به الحفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا ، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله خلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً رزق الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ؛ قال الله عز وجل : « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فأنذروهم ، ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبي ، وأبى اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه

وبينهما إلاً ولا ذمة ولا ميراثاً .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وسترد فتعلم ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

أما من فخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلبه هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أمّاً وأباً ، وأنه لم تلدك العجّمة ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً ، وانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخرأ ، إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من جدك حسين بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ، وهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقربة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ! ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهراً ، ومَرَّضها سرّاً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجدة أبا الأم والحال والحالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من علي وسابقتة ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمره غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مُشَّهَم ،

وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده ، وميثاقه فاجتمعا على خلعه . ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بخرق ودرهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حيلة . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ، وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عموك حسين بن علي على ابن مَرْجَانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم ، وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قُتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بئاركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسيننا سلفكم وفضلناهم ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناهم ، للتقدمة منّا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعه كما تلعل الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله ، وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم ، للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقيل

جوعاً ، ولتَحَق جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسُّبَّة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد علَّناكم في الكفر ، وفديناكم من الأمر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بئاركُم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا أنفسكم . والسلام عليك ورحمة الله . (الطبرى جزء تاسع) .

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين . ثم أترى إلى نظرية العباسيين في خلافتهم ، هذه التى تقوم على أن العم أحق بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبى ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى على قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ، وهو نفس الكلام الذى كان يردده مروان بن أبى حفصة وأبان بن عبد الحميد، وغيرهما من الشعراء السياسيين لبني العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظرية، واحتج لها بالفقه والسنة، وجعلها مذهباً سياسياً ودينياً ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر إليه كيف عير العلويين تكرانهم للجميل ، وكفرهم للنعمة ، فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ، ويطلبون بدمائهم ، حتى أدركوا الثأر ، ومحو العار ، وأذلوا دولة بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين فى هذه القضية ، فذلك شئ لا يعنيننا الآن ، وإنما نريد أن نمثل العداء الذى كان بين هاتين الأسرتين ، ونحسب أن هذين الكتابين يمثلانه تمثيلاً قوياً، وأنت تعلم أن الحرب اتصفت بين المنصور ومحمد هذا ، حتى قتل محمد فى المدينة ، وقتل أخوه إبراهيم فى البصرة ، وكل هذا يبين لك إلى أى أحد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذى يدافع عن العلويين ، ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة ، فى ظل رجل قوى كالمنصور .

على أن شاعرنا السيّد الحميرى ، لم يكن من أنصار الحسن والحسين ، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من الكيسانية ، الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء على* ، محمد بن خولة الحنفية، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت ، وإنما تغيب عن الناس ، واحتجب عنهم حيناً ،

وسيعود فيملاً الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميرى بأس أن يمدح بنى العباس ، ويتقرب منهم ، ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد .

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم ، وهى أنه كان سخيلاً ضعيف العقل ، شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب ، كما أسرف فى مدح العلويين ، والإيمان بهم ، حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يقبل ، فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان يكفى أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير ، يروى كرامة من الكرامات ، يضيفها إلى أحد العلويين ، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف ، والنعي عليه .

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية فى الوقت نفسه ، وهى أنه كان يستبيح ضرراً من اللهو المنكر ، ويسرف فى شرب الخمر ، وغير ذلك من ألوان العبث ، لا لأنه كان يحسد الدين أو يزدريه ، بل لأنه كان يُدّلّ على صاحب الدين . كان يحب النبي وآله ، ويمنحهم مودته ونصره ، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك ، وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه ، لما قدّم بين يديه من مدح العلويين ، ونصرهم على خصومهم ، وكان بنو هاشم وبنو على خاصة يُطمعون فى ذلك ، ويعترفون له به ، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر ، قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم إن من أحب آل على لم تنزل له قدم إلا ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميرى يلهو آمناً فى دينه ودنياه ، يعتمد فى دينه على العلويين ، ويعتمد فى دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ، ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ، ويمقته كل المقت ، ويضمّر للسيد عداً وحقداً لا يعدلها عداً ولا حقداً . ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبرى ، قاضى البصرة

للمنصور ، فقد كان العداء بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يقبل
 للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ، وكان السيد قد
 هجاه ، فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فنهاه عنه ، وأمره أن
 يذهب إلى القاضي ، فيعتذر إليه ، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة ، فاستأنف
 السيد الهجاء ، وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً على السيد بالسرقة ، ليقطع يده
 فعلم السيد ذلك ، فجزع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء
 للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات ، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع
 أن تقرأ هجاء السيد لسوار في الأغاني ، فهو كثير ، لا أروى منه شيئاً ، لأنى
 قد أطلت ، بل لست أروى من شعر السيد إلا أبياتاً تمثل لك مذهبه الشعرى . على
 أنى أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشيئين اثنين :
 أحدهما الإكثار الذى لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة
 أن قصائده فى آل على كادت تبلغ الثلاثة الآلاف .

والآخر أنه كان سهلاً مطبوعاً ، شديد النفرة من الغريب ، وقد سئل عن ذلك ،
 فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس ، على أن يقول كلاماً يُعْجَبُ به
 الرواة . وهذا طبعى بالقياس إلى شاعر سياسى ، يدافع عن حزب مضطهد ،
 كالسيد الحميرى ، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ،
 الذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

امرُرْ على جَدَثِ الحُسَيْنِ فقل لأعظمه الزكِيَّةُ
 آأَعْظُمًا لا زلت من وطفاء ساكبة رَوِيَّةُ
 وإذا مررت بقبره فأطل به وقفَ المطيَّةُ
 وابكِ المَطْهَرِ للمَطْهَرِ والمَطْهَرَةِ النَّتْمِيَّةُ
 كبكاءِ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ يوماً لواحدِها المنيَّةُ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التى بعث بها إلى المهدي ، يسأله ألا يعطى آل
 أبى بكر وعمر من مال الدولة :

قل لابن عباس سئى محمد
 احرىم بنى تيم بن مرة انهم
 ان تعطيهم لم يشكروا لك نعمة
 وان ائتمنتهم او استعملتهم
 ولئن منعهم لقد بدؤوكم
 منعوا ثراث محمد اعمامه
 وتآمروا من غير ان يستخلفوا
 لم يشكروا لمحمد انعامه
 والله من عليهم بمحمد
 ثم انبروا لوصيه وولييه
 لا تعطين بنى عدي درهما
 شر البرية آخرًا ومقدمًا
 ويكافئون بأن تدم وتشتما
 خانوك واتخذوا خراجك مغنا
 بالمنع اذا ملكوا وكانوا اظلمًا
 وبنيه وابنته عديلة مريمًا
 وكفى بما فعلوا هنا لك مائما
 أفيشكرون لغيره ان انعمًا
 وهداهم وكسا الجذوب وأطعمًا
 بالمنكرات فجرعوه العلقما

وانظر إلى هذه الأبيات ينهى بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بنى هاشم
 دونكموها لا علا كعب من
 دونكموها فالبسوا تاجها
 لو خير المنبر فرسانه
 قد ساسها قبلكم ساسة
 فجددوا من عهدها الدارسا
 كان عليكم ملكها نافسا
 لا تعدموا منكم له لابسًا
 ما اختار إلا منكم فارسًا
 لم يتركوا رطباً ولا يابسًا

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة فى هذا العصر ، فسنحدثك عن
 شعراء آخرين لم يسلكوا فى شعرهم مجوناً ولا سياسة ، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم
 من الشعراء .

القديم والحديد^(١)

تقرأ في الرسائل الفارسية « لمتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة . تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء ، الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والحديد ، وحول القدماء والمحدثين . نجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ، ويكلفون بها . قد ظهر حبهم إياها ، وكلفهم بها ، حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرأون الصحف ، ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون بالشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كنوس القهوة في أثناء القراءة واللعب . ومن بين هذه الأندية ناد خاص ، يظهر أن للقهوة فيه فضلاً على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل ، وينبه الحاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقداً ، والألسنة انطلاقة ، فالذين يختلفون إلى هذا النادي ، ويتناولون القهوة التي تقدم فيه ، أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدل ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشائمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشائمون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة متقاة ، تقع وقع الصواعق ، وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة ، وكل هذا العنف ، وكل هذا الجدل ، إنما يدور حول شاعر يوناني ، عاش أو لم يعيش منذ ألى سنة ، يكبره بعضهم ، حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم ، حتى يبلغ به من الحسنة دركاً ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابدون ويقتتلون ، دفاعاً عن هذا الشاعر ، أو هجوماً عليه . ويغيبط الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التي أمات هذا الشاعر ، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته ، أو لنالته بشر من الموت ، إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « لمتسكيو » عن أدباء الفرنسيين ، الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ، ويظهر أن عبث

(١) نشرت بالسياسة في ١ رجب سنة ١٣٤٢ - ٦ فبراير سنة ١٩٢٤ .

« منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ، ولم يلهمهم عن القديم والحديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر ، كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر ، وكما اختصموا من قبل ذلك ، وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الحديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الحديد على ذلك القديم .

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً في كل لغة ، وفي كل جيل ، وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذي يتصرف فيهما حظ من الحياة ؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والحديد أشكالاً مختلفة ، وصوراً متباينة ، تمثل العصر الذي تنشأ فيه ، والظروف التي تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها ، وتتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التي تنشأ فيها ، والظروف التي تحيط بها ، خصومة بين القديم والحديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة ، ولا منصرف عنها ، لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل في مجلة « الهلال » ، التي صدرت أول هذا الشهر ، وكاتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب ، لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى ، كتب في مجلة « الهلال » ، التي صدرت في الشهر الماضي فصلاً عن الأستاذ الرافعي ، هاجم فيه المذهب القديم في الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى الرافعي زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً ، ولم يكن بد لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم تساءل : فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم ، أو في الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » ، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي ، وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد

يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الحصومة في هذه الأيام الأخيرة ، إنما هي صحيفة الأدب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الحصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له ، بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان : « أسلوب في العتب » ، وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب ، وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة ، انتهت إلى الشتم والتناوب ، ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكتاب أديب من كتاب فلسطين ، هو الأستاذ خليل السكاكيني ، رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد ، وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من كتاب سورية ، هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين ، حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » ، فعده مع الأمير شكيب أرسلان ، من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني ، على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الحصومة بين القديم والجديد في الأدب ، ويخطئ من يظن أن هذه الحصومة ستنتهي غداً أو بعد غد ، ويخطئ من يسأل نفسه عن قيمة هذه الحصومة ، وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الحصومة في الأدب العربي ، كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجتها في كل زمان ، وفي كل مكان ، فينتصر قديم على جديد ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً ، وتكون الحصومة حوله وحول جديد آخر ، ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

هذه الحصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربي بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكننا نظن أن من حقنا نحن القراء

على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم ، في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ، حتى تتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا ، فقد ظهر لنا إلى الآن ، أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء ، لم يستطيعوا بعد أن يحددها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي ، فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » ؟ وما « المذهب القديم » ؟ ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ، وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الأدبيين خليل السكاكيني ، وشكيب أرسلان : فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، قد عمد إليها أكبر الكتاب ، وأرفعهم قدراً ، منذ كان النثر العربي إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه ، فلا ينبغي أن يعتمد إليه الكاتب ، ولا سيما في هذا العصر . إلا بمقدار ، وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق ، دون أن يحددوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو ؟ وما حده ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل أن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعرف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضاً من أن نظهر عليه ، وانظر إلى ما يقول في الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . » نعرف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن الحملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن فليسا شيئين وإنما هما شيء واحد ، هو الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد ، تدل عليه ألفاظ مختلفة . نعرف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه

الجملة ، ولم نذوقها ، وإذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها ، ولا نحكم فيها ، لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور . فما زال الأستاذ الرافعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ، ونحسبه يحتاج في توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أنه يخيل إلينا أن الذوق شيء ، والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أننا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي ، دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا ، فترغم أننا قد نذوق أشياء كثيرة ، دون أن نفهمها ، وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نزن أن الذين يذوقون الموسيقى ، ويطربون لها ، يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى ، فيطربون ويتأثرون ، وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حيناً تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتعجب بهما ، وحيناً تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حيناً تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكلفين ، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين ، فتفهم النظم ، وتفهم النثر ، ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحيناً تسمع قطعة من الموسيقى ، فتعجب وتطرب ، دون أن تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي ، محتاجة إلى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي ، وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ، وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد ، إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب ، وضعفهم في اللغة العربية وآدابها ، مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعترازمهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ، ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صحت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد ، وهو إنما أخطأ الفهم ، لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق ، لأنه أخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم ، أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، حتى تتعبا ، فتسقطا معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ، فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم ، دون أن يفهم ويدوق ، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً ، فتخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق ، أو ذوق هو الفهم ، أو فهم ليس ذوقاً ، أو ذوق ليس فهماً ، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربي ، وأن نفهم الأدب الفرنسي وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي ، وأنصار المذهب الجديد ، ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد ، وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ، تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ في هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد ، وهم يجهلون اللغات الأجنبية ، ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه ؛ فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي ، وأحسن روايته وفهمه وتقليده ، وأسرف في هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم

والجديد ، فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة ، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه ، واختصموا فيه ، كما يختصم فيه الأستاذ الرافعي وأصحابه الآن . وقد كتبنا في هذا المكان من « السياسة » فصولا طويلا في العام الماضي ، فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بني العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » ، فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ، ولم يذكروهما ، ولم يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلبوا فيه ، فرضى عنهم قوم ، وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعاً ، وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الجديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف ، بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس ، وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام ، وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي ، وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد ، كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما ، كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم

من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله ، قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يَحْيَوْنَ ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ، وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الراقى يحسن أن نناقشه ولو قليلاً . فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد ، وأن يتعلموا الأدب العربى من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الوفور ، فيسلوكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن يتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا فى اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثه ، وهى ملك الملايين من الأعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها ، دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعرف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقماً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعج أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ، ونأخذها أداة للفهم والإفهام ، حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ، ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا فى ذلك إلا قواعد اللغة العامة ، التى تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلاً من أصول اللغة ، أو يخرجها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها ، يضيفون إليها ، ويدخلون فيها ، لما نمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت أن تلبى بحاجات أهلها ، التى تتجدد وتتغير وتتجدد الأزمنة ، وتبدل الظروف ، والكتاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان ، يضيفون إلى لغاتهم ، ويدخلون فيها ، ويجددونها ،

فمنهم من يسعده الحظ ، فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ، ويتهاكون عليها ، حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ ، فلا يحفل الناس بما أدخل ، ولا بما أضاف .

ومما يحسن أن ينبّه إليه الأستاذ الرافعي ، في رفق ولين أيضاً ، أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا ، وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها ، فهو يخطئ في الحكم على أوروبا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف في ذلك ، فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ، ولو قد بلغنا من السوء هذا الحد ، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ، ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ، ومنذ فكر . ويسوءنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ، ومنذ فكر أيضاً ، فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات ، وإنما الإنسان إنسان ، فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها ، وفيه التحرج الشديد .

والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم ، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر ، أو ينالهما منه ضيم ، ونظن من السخف والإطالة التي لا تجدى ، أن نهوّن على الأستاذ ، ونهدئ من روعه ، فليس ما يدعو إلى الإشفاق . ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد ، المتشددين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه ، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به ، فهو من أنصار المذهب الجديد ، رضى ذلك أو أنكره .

كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية :
- في الأدب والنقد :
- في الأدب الجاهلي
- حديث الأربعة (٣ أجزاء)
- مع المتنبي
- من حديث الشعر والنثر
- في أدب التمثيل :
- في القصة والرواية :
- الحب الضائع
- شجرة البؤس
- المعذبون في الأرض
- في التراجم والسير :
- على هامش السيرة (٣ أجزاء)
- عثمان
- الشيخان
- الأيام (٣ أجزاء)
- في الاجتماع :
- في التربية :
- في سلسلة اقرأ :
- أحلام شهر زاد
- الوعد الحق
- المعذبون في الأرض
- مرآة الإسلام
- فصول في الأدب والنقد
- تجديد ذكرى أبي العلاء
- مع أبي العلاء في سجنه
- ألوان - جنة الشوك
- من الأدب التمثيلي اليوناني
- دعاء الكروان
- صوت باريس
- ما وراء النهر
- الوعد الحق
- على وبنوه
- قادة الفكر
- أديب
- نظام الاثنينين
- مستقبل الثقافة في مصر
- الحب الضائع
- رحلة الربيع
- صوت أبي العلاء